بول راوزن

الحريم الفرويدي

ترجمة وتقديم: ثائر ديب



بــول روزن

الحريم الفرويدي

فرويد واتباعه من النساء

ترجمة وتقديم:
ثائر ديب

الناشر: دار كنعان للدراسات والنشر
دمشق —ص.ب.(443) — هاتف (2113311)

الطبعة الأولى: 1995
عدد النسخ: (1000)

تصميم الغلاف: نورما

إليكِ...

علّميني أن أكون واقعياً فلا أرضى

بأقلّ من المستحيل

المحتوى

تقديم

سيرة النساء اللواتي تعرّفن بفرويد ودخلن بيته وحركته التحليلية النفسية هي سيرة الأسرار، والفضائح، وإن لم يكن بالمعنى الأخلاقي للكلمة. وهي أيضاً سيرة المصائر الغريبة من انتحار، وقتل، وإدمان، وهجر للأزواج أو لفكرة الزواج من أصلها...، الأمر الذي يعيد إلى الأذهان تلك الفكرة التي غالباً مايعبّر عنها العامّة من أن الفلسفة وعلم النفس طريق سالكة إلى الجنون. ولكنها في الآن ذاته سيرة نساء أثبتن حضوراً قوياً إزاء عقلٍ عبقري وشخصية ذات سطوة، وفي حركةٍ كانت بمثابة ثورة فكرية عميقة لم يعد العالم بعدها مثلما كان من قبل. ومن ثم، فإن هذه السيرة لا تكتفي بإلقاء مزيد من الضوء على حياة فرويد وأعماله، بل تثير أيضاً جملةً من القضايا التحليلية النفسية أبرزها قضية المرأة والأنوثة، والتحليل النفسي للطفل. وهما قضيتان مترابطتان وما تزالان تثيران سجالاً عموماً ونقداً لا يستكين.

وإذاً، فإن هذه السيرة تشتمل على كل المتع التي تنطوي عليها سيرة جديرة بالعناء. فهي لا تُشبعُ فضولنا التلصصّي وحسب، وإنما المعرفي أيضاً، فضلاً عن متعة الحكاية. وذلك كله، وكما هو واضح من الهوامش، على أساس عدد هائل من المصادر والمراجع والمقابلات الشخصية التي أجراها المؤلف مع عدد كبير من المحللين النفسانيين، والمرضى الذي قام فرويد أو تلاميذه، بمعالجتهم وكذلك مع أقرب أقرباء فرويد، وبهذا عمل على لمّ شتات ما يمكن أن ندعوه باسم «التراث الشفوي للتحليل النفسي»، الأمر الذي ينقص معظم المراجع المكتوبة إن لم يكن كلها.

ولأن هذه الترجمة، في الأصل، فصل من سفر ضخم يتناول فرويد وأتباعه، فقد كان ثمة ضرورة لمقدمة طويلة بعض الشيء كي لا تبدو سيرة النساء هذه منقطعة الصلة عن رؤية نظرية التحليل النفسي للمرأة وقضيتها،

الأمر الذي يصعب نيله دون معرفة بالأفكار العامة، على الأقل، للتحليل النفسي. وهكذا، فإن هذه المقدمة هي بمثابة عرض موجز للأفكار الأساسية في التحليل النفسي، وموقفه من قضية المرأة، وعلاقة فرويد بنساء أخريات غير تلميذاته، والصراعات التي دارت ومازال تدور حول هذه القضايا، وذلك في محاولة لإكمال صورة «الحريم الفرويدي» قدر الإمكان.

I

القلق، والخوف، والعزلة، والشعور بالاضطهاد، والعجز عن الاستمتاع بالحياة، والانزياح عما تمّ التواضع على أنه السواء في السلوك أو التفكير... تجارب يعاني منها الانسان منذ بداية التاريخ المكتوب على الأقل. بيد أن دراسة هذه التجارب البشرية لم تأخذ طريقها إلى الصياغة بوصفها حقلاً معرفياً منظماً، ومستقلاً، ومتماسكاً في جوانبه المتعددة إلا مع فرويد والتحليل النفسي في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين[1]. فالتحليل النفسي ليس طريقة في معالجة الأمراض والاضطرابات الذهنية وحسب، وإنما هو أيضاً نظرية في العقل البشري، فضلاً عن كونه محاولة في تفسير نشوء الحضارة والمجتمع ودراسة مافيهما من ظواهر[2].

وتبعاً لفرويد، فإنّ ثمة مبدأين للنشاط النفسي هما مبدأ اللذّة Pleasure principle ومبدأ الواقع Reality principle. وفي حين يمثّل المبدأ الأول مالدى الإنسان من حافز للتخلص من التوترات التي تخلقها الدوافع الغريزية لديه وبطريقةٍ تحقق أكبر قَدر من اللذّة، فإن المبدأ الثاني يعدّل الأول نظراً لأن العالم الخارجي (أو المجتمع) يفرض شروطاً وضرورات تحول دون نيل اللذّة وإشباع الرغبات مباشرةً وبأقصر الطرق، مما يدفع بهذه الرغبات إلى الخضوع لتحولات شتى تتراوح من الإرجاء والتأجيل، مروراً بالكبت وغيره من المصائر، وصولاً إلى إدانتها والحكم عليها بالشجب واللعنة[3].

ثمّة لدى البشريّ، إذاً، مايدعوه فرويد دوافع غريزية instinctual

drives او نزوات pulsions تتصف بأن أصلها كامن في مصادر التنبيه داخل البدن وتتجلّى كقوة مستمرة يستحيل التملّص منهـا بأعمال هروبية[4]. وهي تهدف إلى الإشباع من خلال تناولها لموضوع ماتحقق بواسطته بغيتها[5]. فإذا ماجاءت هذه الدوافع متعارضة مطلق التعارض مع سائر رغبات المرء الأخرى ومتنافية مع الصبوات الأخلاقية والجمالية لديه أدّى ذلك إلى نشوب معركة داخلية تفضي في النهاية إلى كبت repression الرغبة الناشزة وطردها خارج مجال الوعي لتلفّها يد النسيان[6]. وهكذا، فإن ماهية الكبت تتمثّل في الإقصاء عن الوعي والابعاد عنه بإتجاه مايدعوه فرويد باللاوعي unconscious[7]، حيث تواصل الرغبة المكبوتة وجودها هناك مترقبة فرصة للظهور من جديد. فإذا ماظهرت إلى حيّز النور كان ذلك في ثوب تنكري يتعذّر معه تعرّفها، وبعبارة أخرى، إن الفكرة المكبوتة يتم استبدالها في الوعي بفكرة أخرى تكون لها بمثابة بديل أو وكيل، وبها تعود إلى الارتباط جميع الانطباعات المزعجة التي يكون المرء قد تصور أنه نحّاها جانباً بواسطة الكبت[8]. أما مايفرض هذا التنكّر على الرغبة وظهورها بمظهر العَرَض symptom فهو وجود قوة تعترض سبيل عودة المكبوت إلى الوعي، وقد أطلق فرويد على هذه القوة اسم المقاومة resistance [9].

وإذاً، فإن المرء لا يكون قادراً على تحمّل الكبت في بعض الأحيان، فيقع فريسةً للمرض. ويُعرف هذا الشكل من المرض باسم العُصاب neurosis[10]. ولأن على الكائنات البشرية جميعاً أن تكبت إلى درجة معينة، فإن من الممكن أن نصف الجنس البشري بأنه «حيوان عصابي». والحال، أن هذا العصاب متشابك مع ماهو إبداعي لدينا كبشر، فضلاً عن تشابكه مع أسباب تعاستنا. ذلك أن إحدى الطرائق التي نتغلّب بها على رغباتنا لا نستطيع تحقيقها هي إعلاء أو تصعيد Sublimation هذه الرغبات، وهو مصطلح عنى به فرويد توجيه هذه الرغبات نحو غاية اجتماعية وثقافية رفيعة. بل إن فرويد ليرى أن الحضارة ذاتها قد نشأت

بفضل هذا الإعلاء، حيث خلق التاريخ الثقافي من تحويل غرائزنا وتسخير طاقتها لخدمة أهداف سامية[11]. وبالهذه المفارقة التي نكتشفها حين نعلم أننا لم نصبح مانحن عليه إلا من خلال كبت شديد للعناصر المسهمة في تكويننا، ودون أن نعي ذلك بالطبع. بيد أن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا ينبغي على الكائنات البشرية أن تكون حيواناً عصابياً، وحدها دون بقية الكائنات؟

إن إحدى السمات التي تميز بني الانسان عن الحيوانات الأخرى هي أننا، ولأسباب تطورية، نولد عاجزين ونتكلّ في بقائنا اتكالاً كلياً على عناية الأفراد الأكثر نضجاً في النوع، وهم أهلنا عادةً. وعلى الرغم من أن هذا الاتكال المديد هو مسألة مادية في المقام الأول، أي مسألة قوت وحفظ من الأذى، إلا أن اعتمادنا على الأهل لا يقتصر على الاعتماد البيولوجي. فبينما يمصّ الرضيع ثدي أمه من أجل الحليب، يكتشف أن هذا النشاط البيولوجي أساساً مُلِذ أيضاً. ويصبح فم الرضيع ليس عضو بقائه الفيزيقي وحسب، وإنما منطقة ايروسية Erotogenic Zone يمكن للطفل أن يعيد تفعيلها لاحقاً بمصّ إبهامه، وبعد ذلك بالتقبيل. وهكذا تتخذ العلاقة مع الأم بعداً جديداً، ليبيدياً أو جنسياً، حيث تولد الجنسية Sexuality الآن كنوع من الدافع الذي لا يكون منفصلاً في البداية عن الغريزة البيولوجية، لكنه ينفصل عنها لاحقاً ويحرز لنفسه استقلالاً معيناً[12].

ويدعو فرويد هذه المرحلة باسم المرحلة الفموية Oral Stage، وهي أول تفتّح الجنسية وتترافق مع الدافع إلى إدماج incorporation الموضوعات وإدخالها إلى داخل الجسد[13]. بيد أن مناطق إيروسية جديدة تأخذ بالظهور مع نمو الطفل. ففي المرحلة الشرجية anal Stage، يصبح الشرج منطقة إيروسية، حيث يجد الطفل للذة في الإفراغ متصلةً مع رغبةٍ بالاحتباس والسيطرة. وهكذا يظهر في هذه المرحلة تعارض بين الفعالية والسلبية لم يكن معروفاً في المرحلة الفموية، وإلى جانب اللذة التي يستمدها

الطفل من الإخراج والتلويث والتخريب فإنه يتعلّم شكلاً جديداً من التسيّد على أمنيات الآخرين والتلاعب بها عبر «منح» الغائط أو الاحتفاظ به. ولذا توصف. المرحلة الشرجية بأنها مرحلة سادية[14]. أما المرحلة التي تليها فتدعى المرحلة القضيبية Phallic Stage، وهي تبدأ بتركيز ليبيدو الطفل (أو طاقة الدافع الجنسي لديه) على الأعضاء التناسلية[15]. وتختلف هذه المرحلة عن حالة التنظيم التناسلي عند البلوغ؛ لأن الطفل، سواء أكان صبياً أم بنتاً، لا يعرف في هذه المرحلة سوى عضو تناسلي واحد هو العضو الذكري، الأمر الذي يجعل التعارض بين الجنسين معادلاً للتعارض: قضيبي – مخصي[16].

وهكذا، فإن الطفل يتحسس منذ أول طفولته بوجود موضع معين يخدم بمثابة نقطة ارتكاز لإثارته الجنسية. ويكون هذا الموضع هو ثدي الأم في الفترات الأولى من المرحلة الفموية[17]، ثم تتوالى نقاط الارتكاز، الفم والشرج والقضيب. وتندرج هذه الأدوار كلها في إطار مايطلق عليه فرويد اسم الإيروسية الذاتية auto-erotism، حيث يجد الطفل لذّته في إثارة المناطق الإيروسية المختلفة في جسمه دون الاستعانة بموضوع خارجي[18]. بيد أن الاتجاه اللاحق، والذي يحدث في فترة من المرحلة القضيبية التي تستمر بين السنة الثالثة والسنة السادسة أو السابعة من عمر الطفل[19]، هو صوب العزوف عن الإيروسية الذاتية وتوحيد مالليمول المتعددة من مواضيع مختلفة والاستعاضة عنها بموضوع واحد أوحد[20]. ويكون هذا الموضوع المختار شبه مطابق لموضوع اللذة الفموية في السابق. «فلئن لم يعد هذا الموضوع هو ثدي الأم، فإنه يكون الأم نفسها على الدوام. وعلى هذا نقول عن الأم إنها الموضوع الأول للحب»[21].

مايحدث، إذاً، في هذه السيرورة - التي تتداخل مراحلها، وينبغي ألا تُرى كتعاقب صارم[22] - هو تنظيم تدريجي للدوافع الليبيدية، ولكنه تنظيم لا يزال متمركزاً على جسد الطفل الخاص. وهذه الدوافع مرنة إلى أبعد

حد، وموضوعاتها طارئة وقابلة للتبديل[23]. ويكون الطفل في هذه السيرورة فوضوياً، وسادياً، وعدوانياً، ومستغرقاً في ذاته وساعٍ وراء اللـذّة دون شعور بالذنب ودون إبداء أي احترام للاختلاف بين الجنسين[24]، بل وهـو غاشٍ للمحارم أيضاً؛ حيث يصبح الاهتمام الطبيعي للطفـل بأمـه مشـحوناً بالشهوة ويؤدي إلى قيام شـعورٍ لا واعٍ بالكراهيـة تجـاه والـده والرغبة في إيذائه لشعوره بأنه يتملك الأم في الوقت الذي يرغب فيه الطفل بأن تكون أمه ملكاً صرفاً له وحده. وهكذا تنفتح العلاقة البـاكرة «الثنائيـة» أو ذات الطرفين بين الطفل والأم وتتحوّل إلى مثلث مُشكّل من الطفل وكلا أبويه؛ ويصبح المماثل في الجنس من بينهما بمثابة منافس عاطفي للطفل على الآخر مـن الجنـس المعـاكس(*) . وهـذه هـي عقـدة أوديـب Oedipus Complex، أو الآلية التي تـأخذ بيـد الطفـل مـن المراحـل السـابقة قبـل الأوديبية[25].

ولكي يمكن لهذا الطفل أن ينخرط في المجتمع لاحقـاً وينفصـل عـن أهله لابد أن يخرج من هذه العقـدة الـتي دخـل فيهـا، أي لا بـد أن تنحـل عقدة الأوديب[26]. ومايحثّ الطفل ـ الصبي على التخلي عن رغبته المحرمـة بـالأم هـو التهديـد بالخصـاء Castration. ولا حاجـة بهـذا التهديـد لأن يكون مُعلناً بالضرورة؛ ذلك أن الصبي، بتصوره أن البنت «مخصيّـة»، يبـدأ بتخيّل هذا الأمر كعقاب يمكـن أن ينـزل بـه هـو أيضـاً[27]. وهكـذا يكبـت رغبته المحرمـة باستسـلام قلـق، ويتكيّـف مـع مبـدأ الواقـع، ويمتثـل لـلأب، وينفصل عن الأم، ويعزّي نفسه بعزاء لاواعٍ مفاده أن أباه يرمز إلى فرصـة، وإمكانية، سوف يكون هو نفسه قادراً على انتهازها وتحقيقها في المستقبل، وإن يكن غير قادر الآن على الأمل بأن يطرد أبيه ويمتلك أمه. وهكذا يقيم الطفل سلاماً مع والده، ويتماهى معه، ويدخل في الدور الرمزي للرجولـة،

(*) تنبغي الاشارة هنا إلى أن البنت، والتي هي مقيدة مثل الصبي إلى الأم وبالتالي فإن رغبتها الأولى هي جنسية مثلية على الدوام، تبدأ بتحويل الليبيدو لديها باتجاه الأب.

ويتخذ هوية جنسية، متغلّباً على عقدته الأوديبية[28]. ولكنه حين يفعل ذلك يسوق رغبته المحرمة تحت الأرض، ويكبتها في مكان اسمه اللاوعي. بيد أن هذا الأخير ليس مكاناً جاهزاً ومُنتظراً تلقي مثل هذه الرغبة، وإنما هو مكان يفتحه هذا الفعل من الكبت الأولي[29]. وينمو الطفل الآن، بوصفه رجلاً قيد التكوين، ضمن تلك الصور والممارسات التي يحددها مجتمعه بوصفه «ذكرية». ذلك أنه سيصبح أباً هو نفسه يوماً ما، ويعزز هذا المجتمع من خلال إسهامه في عملية التكاثر الجنسي. أما إذا كان الصبي عاجزاً عن اجتياز عقدة أوديب، فإنه قد يكون عاجزاً عن لعب مثل هذا الدور الجنسي؛ وقد يفضّل صورة أمه على كل النساء الأخريات، الأمر الذي يُفضي إلى الجنسية المثلية كما يرى فرويد؛ أو قد يصدمه بعمق إدراك أن النساء «مخصيات» بحيث لا يعود قادراً على التمتع بعلاقات جنسية مشبعة معهن. بل وقد ينشط الأوديب حتى بعد الحل الناجح للعقدة في بعض الأحيان[30].

تحتل عقدة أوديب، إذاً، مركزاً بالغ الأهمية إلى أبعد حدّ في عمل فرويد. فهي ليست مجرد عقدة بين العقد؛ إنها بنية العلاقات التي نصبح من خلالها ما نحن عليه. وهي الحد الذي نتكّون عنده وتتشكّل كذوات؛ وإحدى إشكالياتنا هي أنها دوماً آلية جزئية، وناقصة بمعنى ما. وهي تدلّ على الانتقال من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع؛ من انغلاق العائلة إلى المجتمع بالمعنى العريض، ذلك أننا نتحول من العلاقات المحّرمة إلى علاقات خارج ـ أسروية؛ ومن الطبيعي إلى الثقافة، حيث تمكن رؤية علاقة الرضيع بالأم بوصفها علاقة «طبيعية» إلى حدّ ما، وتمكن رؤية الطفل البعد ـ أوديبي بوصفه طفلاً في سياق الإصطلاع بموقع ضمن النظام الثقافي ككل. وعلاوةً، فإن عقدة أوديب بالنسبة لفرويد هي مطالع الأخلاق، والضمير، والقانون وكل أشكال السلطة الاجتماعية والدينية. فما يقوم به الأب من تحظير واقعي أو مُتخيل لغشيان المحارم هو ترميز لكل سلطة أعلى تُصادف لاحقاً؛ وبتمثل الطفل ذلك يبدأ بتشكيل مايدعى بالأنا الأعلى

Superego، صوت الضمير المرعب، والتأديبي في داخله[31].

ولقد سبق لنا القول إن الرغبة المحرمة قد سيقت إلى اللاوعي. وأن هذا اللاوعي عاصٍ وعنيد. وإذا ماكان الطفل الآن قد طور أنا ego أو هوية فردية، ومكاناً محدداً في الشبكات الجنسية والأسروية والاجتماعية، فإنه لم يستطع ذلك إلا من خلال فصم رغباته الآثمة، وكبتها في اللاوعي. وبالتالي، فإن الذات البشرية التي تنبثق من هذه السيرورة الأوديبية هي ذات منشطرة، ممزقة بين الوعي واللاوعي على نحوٍ محفوف بالمخاطر، حيث يمكن للاوعي دوماً أن يعود ويُنزل بها البلاء.

ولو أردنا إيجاز الاكتشاف الذي حققه فرويد في كلمة واحدة، فلا جدال في أنها ستكون كلمة «اللاوعي»[32]. ومن المعلوم أن الأحلام كانت بمثابة «الطريق الملكي» إلى اللاوعي[33]. فهي تتيح لنا واحدةً من التفطرات الخاطفة القليلة إلى اللاوعي وهو يعمل عمله. والأحلام بالنسبة لفرويد هي تحققات رمزية للرغبة اللاواعية؛ وهي تسبك في شكل رمزي لأنها قد تكون صادمةً ومنغصةً بما يكفي لإيقاظنا إذا ما تمّ التعبير عنها مباشرةً، ولأنه ينبغي أن ننعم ببعض النوم فإن اللاوعي يخفي ويلطّف ويشوّه معانيه ترّفقاً بنا، ولذا تصبح أحلامنا نصوصاً رمزية تحتاج إلى فكّ مغاليقها. فثمة سبيل خاص يسلكه اللاوعي في أداء وظيفته هنا، حيث يكثّف معاً مجموعة كاملة من الصور محولاً إياها إلى «بيان» واحد، أو يستبدل بمعنى موضوع مامعنىً آخر مترافق معه بشكل من الأشكال. وإضافةً إلى طريقة اللاوعي هذه في العمل، وكذلك إلى وجود الرقابة التي تمنع التصريح، فإن ثمة سبب آخر لما نجده في الأحلام من ألغاز وغموض وهو أن اللاوعي فقير نوعاً ما فيما يتعلق بتقنيات التمثيل لما يريد قوله، ذلك أنه حبيس الصور البصرية إلى حد بعيد. وعلى أية حال، فإن الأحلام تكفي لإيضاح أن اللاوعي لديه من الدهاء وسعة الحيلة ما يمكّنه من معالجة «المواد الخام» للحلم، أو مايدعوه فرويد بالمحتوى الكامن، وهي رغبات لاواعية، وتنبيهات جسدية

أثناء النوم، وصور مُستلّة من عمق طفولتنا، وصور متأتية من تجارب النهار الفائت، فيكون الحلم نتاجاً لتحويل كثيف لهذه المواد نطلق عليه اسم عمل الحلم. وآليات هذا العمل هي التقنيات التي يتم استخدامها في نقل وتكثيف مواده وإيجاد طرائق للتمثيل. أما الحلم الذي ينتجه هذا العمل، أو الحلم الذي نتذكره فعلياً، فقد أطلق عليه فرويد اسم المحتوى الظاهر. وهكذا فإن الحلم ليس مجرد «تعبير» عن اللاوعي أو «إعادة إنتاج» له؛ فبين اللاوعي والحلم الذي نحلم، تتدخل سيرورة إنتاج او تحويل. ويعتبر فرويد أن جوهر الحلم ليس المواد الخام أو المحتوى الكامن، وإنما عمل الحلم ذاته، وهو ما ينكبّ عليه تحليله[34].

بيد أن الأحلام ليست المدخل الوحيد إلى اللاوعي. فثمة مايدعوه فرويد الهفوات Parapraxises، كزلاّت اللسان غير المفسَّرة، وضروب النسيان، والقراءة المغلوطة وتضييع الأشياء، والتي يمكن ردّها إلى رغبات ومقاصد لا واعية[35]. كما تنم النكات أيضاً عن حضور اللاوعي، فهي تعبرّ عن دفعة عدوانية أو ليبيدية تكون في الحالة العادية خاضعة للرقابة، ولكنها تُجعل مقبولةً من خلال شكل النكتة، وظرافتها وتلاعبها بالألفاظ[36].

ويبقى أن الاضطراب النفساني بأشكاله المختلفة هو المكان الذي يعمل فيه اللاوعي بأشد مايكون من الاذى. فحين تحاول الرغبة شقّ طريقها خارج اللاوعي يعترض الأنا سبيلها مدافعاً، وقد تكون النتيجة لهذا الصراع الداخلي هي العصاب. حيث تظهر لدى المريض أعراض هي في آن واحد وقاء ضد الرغبة اللاواعية وتعبير مُقنّع عنها، في صيغة من صيغ التسوية[37]. وقد تكون هذه العصابات وسواسية (لمس كل أعمدة السور في الشارع)، أو هستيرية (حدوث شلل في الذراع دون سبب عضوي وجيه)، أو رهابية (الخوف غير المبرر من الأماكن الفسيحة أو من حيوانات معينة). ويميّز التحليل النفسي خلف كل هذه الأعصبة صراعاتٍ غير محلولة تمدّ بجذورها إلى التطور الباكر للفرد، وقد تكون متركزةً في اللحظة الأوديبية؛

بل إن فرويد يدعو عقدة أوديب «نواة العصاب»[38]. وعادةً مايكون هنالك علاقة بين نوع العصاب الذي يتكشّف عنه المريض والفترة من فترات المرحلة قبل - الأوديبية التي انكبح فيها تطوره النفسي أو تثبّت. وهدف التحليل النفسي هو أن يكشف النقاب عن الأسباب الخفية للعصاب لكي يخلص المريض من صراعاته، فيزيل الأعراض التي تكربه وتنغصه.

وإذا ماكان الأمر على هذا النحو في العصاب، فإن الحال في الذهان Psychosis أصعب وأشدّ، حيث يقع الأنا تحت سيطرة الرغبة اللاواعية ويعجز عن كبتها كبتاً جزئياً كما في العصاب. وبحدوث ذلك تنبتّ الصلة بين الأنا والعالم الخارجي، ويباشر اللاوعي بناء واقع وهمي، بديل. وبمعنى آخر، فإن الذهاني يفقد التماس مع الواقع عند نقاط مفتاحية، الأمر الذي نشاهده في البارانويا والفصام(*) ([39]) ([40]) ؛ ففي حين يعاني العصابي من شلل في الذراع، قد يعتقد الذهاني أن ذراعه تحولت إلى خرطوم فيل.

وكما سبق القول، فإن التحليل النفسي، في واحد من أوجهه أو جوانبه، هو ممارسة لمعالجة الأمراض والاضطرابات الذهنية. وهذه المعالجات، بالنسبة لفرويد، لا تتحقق بمجرد أن نشرح للمريض مايعانيه من خلل، وأن نكشف له تحميراته اللاواعية. فهذا جزء من الممارسة التحليلية

(*) تشير كلمة بارانويا إلى حالة من الوهم منظّمة إلى هذا الحد أو ذاك، ويضع فرويد تحتها كلاً من أوهام الاضطهاد والغيرة الوهمية وأوهام العظمة. وهو يحدد جذر هذه البارانويا في دفاع لا واعٍ ضد الجنسية المثلية، حيث ينكر العقل هذه الرغبة بتحويله موضوع الحب إلى منافس أو مُضطهِد، معيداً ترتيب الوقائع وتفسيرها على نحوٍ منظّم بحيث تُثبت هذه الشبهة[39] أما الفصام فيشتمل على انفصال عن الواقع وانكفاء على الذات، مع انتاج للهوامات Fantasies مُفرط ولكنه مهلهل التنظيم، وكأن الرغبة اللاواعية أو (الهو) id، تتقاذف العقل الواعي وتغمره بلا منطقيتها وبتداعياتها المحيرة وأدوات ربطها العاطفية وليس المفاهيمية بين الأفكار[40].

النفسية، لكنه لا يكفي لبلوغ الشفاء. والحال أن لبّ العلاج بالنسبة للنظرية الفرويدية هو مايعرف باسم «النقلة» أو «التحويل» Transference؛ ففي سياق العلاج قد يبدأ المُحلَّل (أو المريض) بـ«تحويل» الصراعات النفسية التي يعاني منها إلى شخص المحلّل بصورة لاواعيّة[41]. فإذا ماكان لديه مصاعب مع والده، على سبيل المثال، فإنه قد يخص المحلّل بهذا الدور ويختاره له. وهو أمر يطرح إشكالية بالنسبة للمحلّل، ذلك أن هذا «التكرار» Repetition[42]، أو التمثيل الطقسي للصراع، هو واحد من سُبل المريض اللاواعية في تجنّب التوصل إلى تلاؤم مع هذا الصراع. بيد أن التحويل يوفّر للمحلّل أيضاً فرصة مميزة لسبر حياة المريض النفسية والتبصّر بها، وذلك في وضعية مضبوطة يمكنه التدخل فيها والسيطرة عليها. وإنّ أحد الأسباب التي توجب خضوع المحللين أنفسهم للتحليل أثناء التدريب هو أن يصبح في مقدورهم إدراك سيروراتهم اللاواعية الخاصة، فيقاوموا قدر الإمكان خطر التحويل المضادّ counter-transference[43] إشكالياتهم الخاصة إلى مرضاهم. وبفضل دراما التحويل هذه، والتبصرات والتدخلات التي تتيحها للمحلّل، يُعاد تعريف إشكاليات المريض تدريجياً بالارتباط مع الوضعية التحليلية ذاتها. وبهذا المعنى، وهو أمر ينطوي على مفارقة، فإن الإشكاليات التي يتمّ التعامل معها في العيادة ليست مطابقة لإشكاليات المريض في حياته الواقعية، ولعل لها شيئاً من العلاقة «القصصية» أو «التخييلية» بإشكاليات الحياة الواقعية تلك مثل علاقة نصّ أدبي بمواد الحياة الواقعية التي يعمل عليها[44] وما من أحد يغادر العيادة شافياً من الإشكاليات التي تعترسه عيها. كما أن من المحتمل أن يقاوم المريض نفاذ المحلّل إلى لاوعيه بعدد من التقنيات المألوفة، أما إذا سار كل شيء على مايرام فإن سيرورة التحويل سوف تتيح لإشكالياته أن «تشق طريقها» إلى الوعي، وسوف يأمل المحلل أن يخلّصه منها من خلال فسخ العلاقة التحويلية في اللحظة المناسبة[45]. ويمكن التعبير عن هذه السيرورة بطريقة أخرى والقول إن المريض يصبح قادراً على تذكر

أجزاء من حياته كان قد كبتها، وعلى تلاوة سردٍ جديد عن نفسه وعلاقاته أكثر اكتمالاً ويفسّر الاضطرابات التي يعاني منها ويجعلها مفهومة. وهكذا يعطي «العلاج بالكلام»، كما يُدعى، نتيجته المطلوبة.

ويبقى أن نذكر أخيراً، وبإيجاز، أن تقييم فرويد للقدرات البشرية هو تقييم محافظ ومتشائم عموماً؛ فنحن محكومون برغبة الإرضاء والبغض الشديد لكل مايمكن أن يحبطها. ويرى فرويد في أعماله الأخيرة إلى الجنس البشري بوصفه جنساً أنهكته قبضة دافع رهيب للموت، ومازوخية بدئية يطلق لها الأنا العنان على ذاته. فالهدف النهائي للحياة هو الموت؛ أو العودة إلى تلك الحالة اللاحيّة الرحيمة حيث يكون الأنا في مأمن من الأذى. وإذا ماكان صحيحاً أن إيروس، أو الطاقة الجنسية، هو القوة التي تبني التاريخ، فإنه أسير تناقض مأساوي مع ثاناتوس أو دافع الموت. ورغبتنا في أن نزحف آيبين إلى مكان لا يمكن فيه أن نتأذى، إلى الوجود اللاعضوي الذي يسبق كل حياة واعية، هي التي تبقينا نصارع قدماً. وهكذا يكون الأنا كياناً جديراً بالشفقة، ومحفوفاً بالمخاطر، يسحقه العالم الخارجي، ويسومه الأنا الأعلى صنوف التوبيخ واللوم القاسيين، ويبلوه الهو بمتطلباته المحشمة، التي لا ترتوي[46]. وإشفاق فرويد على الأنا هو إشفاق على الجنس البشري، الذي ينوء تحت وطأة ما ألقته عليه الحضارة القائمة على كبت الرغبة وإرجاء الإرضاء من متطلبات لا تطاق في الغالب. ولقد ازدرى فرويد كل الاقتراحات «الطوباوية» لتغيير هذا الشرط[47]. ولكنه، وعلى الرغم من أن كثيراً من وجهات نظره كانت تبدو تقليدية وسلطوية، نظر بنوع من الاستحسان إلى محاولات إلغاء، أو على الأقل إصلاح، مؤسسات الملكية الخاصة والدولة. وذلك لقناعته العميقة بأن المجتمع الحديث قد أصبح طغيانياً في كبته. وحاول أن يبيّن في كتابه مستقبل وهم أنه إذا لم يتطور المجتمع أبعد من حدّ يعتمد عنده إشباع مجموعة من أعضائه على قمع مجموعة أخرى، فإن من المفهوم أن يطور أولئك المقموعون عداءً شديداً حيال ثقافة كان عملهم قد جعلها ممكنة، ولكنهم لا ينالون من ثرواتها

سوى حصّة هزيلة[48]. ويؤكد فرويد أن «لا حاجة للقول إن حضارة تترك عدداً كبيراً من المساهمين فيها غير مشبعين وتسوقهم إلى التمرد لم ولن تكون جديرة بفرصة بقاء مديد»[49].

ومن المعروف أن النظرية الفرويدية قد تعرّضت، ومازالت تتعرّض، للنقد من منطلقات كثيرة جداً. ولعله من الطبيعي تماماً بالنسبة لنظرية معقدة وأصيلة أن تكون مصدراً لخلاف شديد. ولعلها ليست خالية من الإشكاليات بأي حال من الأحوال. فثمة نقد جَسَدي، على سبيل المثال، ينطلق من أن التحليل النفسي كممارسة طبية هو شكل من أشكال الضبط الاجتماعي القمعي، حيث يدمغ الأفراد ويدفعهم إلى التكيّف مع تعريفات اعتباطية للسواء **Normality**. والواقع أن هذه التهمة غالباً ماتوجّه إلى الطب النفسي ككل. وعلى الرغم من أن هذه التهمة صحيحةً في العمق وإلى حدّ بعيد، فإن من الممكن القول، دفاعاً عن فرويد، إن عمله قد أظهر، وعلى نحو فضائحي، أن الليبيدو «مرن» ومتقلّب في اختياره للموضوعات، وأن ما يُدعى بالانحرافات الجنسية يشكّل جزءاً مما نعتبره جنسية سويّة، وأن الجنسية الغيرية ـــ **hetero sexuality** ليست واقعة بدهية بأي حال من الأحوال.

ومن الانتقادات الشائعة الأخرى لفرويد أنه «يردّ كل شيء إلى الجنس». وهو انتقاد يتعذّر الدفاع عنه، لأن فرويد كان مفكراً مثنوياً على نحو جذري فكان يوازن الدوافع الجنسية بقوىً غير جنسية مثل «غرائز الأنا» في المحافظة على البقاء. وبذرة الحقيقة في التهمة الآنفة هي أن فرويد قد اعتبر الجنسية مركزية في الحياة الانسانية بما يكفي لأن تكون واحداً من مكوّنات جميع فعالياتنا، بيد أن ذلك بعيد كل البعد عن الاختزالية الجنسية.

وثَمة انتقاد يتردد في أوساط اليسار السياسي مفاده أن فرويد يستبدل بالأسباب والتفسيرات الاجتماعية والتاريخية أسباباً سيكولوجية خاصة. وربما كانت هذه الإشكالية من أهم الإشكاليات التي تستدعي

النقاش والبحث العميقين. خاصةً وأن هذا الاتهام ربما كان منطوياً على سوء فهم جذري للنظرية الفرويدية. وإذا ماسلّمنا بأن ثمة إشكالية حقيقية بشأن كيفية تعلّق العوامل الاجتماعية والتاريخية مع اللاوعي، فإن هنالك من يرى أن إحدى ميزات عمل فرويد هي أنه يمكننا من التفكير في تطور الفرد البشري بمصطلحات اجتماعية وتاريخية. وأن مايقدمه فرويد ليس بأقلّ من نظرية مادية في تشكّل الذوات البشرية. فنحن نصبح مانحن عليه من خلال تعالق أجساد - أي من خلال التفاعلات المعقدة التي تحدث أثناء الطفولة بين أجسادنا وتلك المحيطة بنا. وهذه ليست اختزالية بيولوجية، ذلك أن فرويد لا يعتقد بالطبع أننا لسنا سوى أجسادنا، أو أن عقولنا مجرد انعكاسات لها. كما أنه لا يقدم نموذجاً حياتياً لا اجتماعياً، فالأجساد التي تحيط بنا، وعلاقاتنا معها، محددة اجتماعياً على الدوام. وأدوار الأهل، وممارسات العناية بالطفل، والصور والقناعات المترافقة مع كل ذلك هي أشياء ثقافية يمكن أن تتنوع من مجتمع إلى آخر ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى.

وثمة بعد الكثير من الانتقادات، تتراوح بين السخيف المبتذل والجدي الرصين. بيد أننا سنتوقف بشيء من التفصيل عند انتقاديتهم فرويد باللاموضوعية وتبني قيم وإيديولوجيا جنسانية تنحيز إلى الرجال في مواجهة الجنس الآخر، فيتطابق مع الايديولوجيا الجنسانية السائدة، بل ويسهم في بناء ميثولوجيا تحاصر المرأة وتعيق تحررها.

II

إلى جانب تلميذات فرويد، كان هنالك عدد كبير من النساء اللواتي لعبن دوراً هاماً في حياته. ويمكن تتبّع هذا الدور النسائي المميز منذ طفولة فرويد الأولى وحتى آخر يوم من عمره. فإضافة إلى أمه، كان فرويد الصغير، قبل الرحيل إلى فيينا، في رعاية مربية كاثوليكية تركت فيه أثراً عميقاً وأعطته فكرة رفيعة عن قدراته. وكانت هذه المربية تأخذه إلى

الكنيسة بانتظام وتحكي له عن الكاثوليكية، والنعيم والجحيم، ولكنها اختفت فجأةً حين أصبح عمره سنتين ونصف، ذلك أنها ضُبِطَتْ وهي تسرق العائلة. كما كانت تقنع فرويد بأن يعطيها ماكان يقدمه له أهله من مبالغ قليلة، وتشجعه على أن يسرق لها النقود. وقام أحد أخوة فرويد بإبلاغ الشرطة، وسُجِنت المربية. لكن فرويد لم يفقد عاطفته الشديدة تجاهها و لم يكفّ عن حبها بصرف النظر عما قيل عنها بعد إبعادها. وربما كانت هذه التجربة أول خيبة أمل بالناس لدى فرويد، هذه الخيبة التي ستتكرر على مدى حياته كلها[50]. ومما يضفي أهمية ودلالة أكبر على رحيل هذه المربية، أن اكتشاف سرقاتها قد توافق مع فطامه ومع ولادة أخته آنا التي لم يكن يحبها[51].

وعلى الرغم من الاهتمام الذي أولاه فرويد لعلاقة الأخوة في كتابه تفسير الأحلام، فإنه لم يكتب شيئاً عن معظم اخوته، وكان عدد البنات بينهم خمس. في حين أنه كان معتاداً على تشبيه عائلته بالكتاب الذي تمثل فيه البنات الأوراق بينما يشكّل هو وشقيقه الكسندر الغلافين. وكان بوصفه الابن الأكبر يتصرف على هذا الأساس، فيقرر لأخوته مثلاً ماينبغي أن يقرأنه من كتب. ولم يكن من غير المعتاد لأبوين يهوديين في ذلك الوقت أن يمنحوا الحظوة لأبنائهم من الذكور[52]. ويبدو أن حاجات فرويد، ورغباته، كانت الشمس التي يدور أهل البيت من حولها. فعندما أزعجه بيانو شقيقاته في دراسته، «اختفى البيانو»، على حدّ تعبير ابنته آنا، على الرغم من أنه كان على مسافة معقولة من حجرة مكتبه. ومع إصرار فرويد على استبعاد البيانو، تلاشت إلى الأبد أحلام شقيقاته في أن يصبحن عازفات. وليس من الصعب أن نتصوّر المكانة التي كان فرويد يحظى بها وهو مايزال في العاشرة من عمره حين يجد أن بمقدوره منع الموسيقى في البيت منعاً باتاً لمجرد أنه لا يحبّ «ضجتها»[53].

والحال، أن فرويد كان معبود أمه. وكانت تتنبأ له، وهي المتديّنة

صوفية النزعة، بمستقبل باهر. وقد بدا وكأنها لا تعيش إلا لتلبي رغباته، من أكبرها إلى أصغرها. ووالدة فرويد كانت امرأة جميلة، تزوجت من أبيه وهي في التاسعة عشرة من عمرها وعاشت حتى بلغت الخامسة والتسعين، حيث توفيت في عام 1930 . وإلى جانب هذا، فقد كانت أيضاً زوجة مطيعة لهذا الزوج الذي هو في مثل ضعف سنها، ومتزوج من قبل ولديه أولاد، ويفرض سلطانه على أسرته بذلك الاستبداد المطلق التقليدي في الأسر اليهودية والذي ينطوي على تعويض للعجز عن فرض الاحترام في الخارج[54]. أما فرويد فكان شديد التعلق بأمه التي كانت أكثر حيوية وقدرة على التخيل من أبيه، وهو تعلق لازمه في حياته المتأخرة أيضاً. فكان يزور أمه كل صباح أحد ويجعلها تزوره كل أحد في المساء لتناول العشاء. ودام هذا حتى وصل إلى سن الشيخوخة، مع أنه لم يكن لديه وقت يخصصه لأي فرد من العائلة بما في ذلك زوجته[55]. ولقد كان لعلاقة فرويد بأمه عميق الأثر، وعبّر هو ذاته عن أن الانسان الذي يكون المفضّل دون جدال لدى أمه يتمتع بنوع من الثقة بالنجاح تولّد النجاح الحقيقي في أغلب الأحيان. ويبدو أن هذه الثقة بالنفس كانت، كما يقول جونز، خاصة مميزة من خصائص فرويد نادراً ماتضعف، وكان فرويد محقاً في إرجاعها إلى الأمان الذي وفره له حب أمه[56].

بيد أن تركيز فرويد الشديد والمتكرر على الأمان الذي يوفره حب الأم، يشير أيضاً إلى شدّة خوفه من انعدام هذا الأمان. فالتعلق بالأم، والذي يولّد ما أشرنا إليه من ثقة بالنفس، يشتمل أيضاً على جانب سلبي متعلق بخلق شعور بالسلبية والاكتئاب حين يلوح مايقلّل ولو قليلاً من المحبة والإعجاب المطلقين. وهكذا، وإلى جانب الثقة بالنفس، كانت التبعية وخوف عدم الأمان عنصران محوريان في شخصية فرويد. ولقد وجد خوف عدم الأمان هذا تعبيراً جلياً عنه في خوفه المقيم من الجوع. ويربط إريك فروم بين هذا الخوف والأم التي تقدم عادةً كلاً من الطعام والرعاية والمحبة، فيكون الخوف من الجوع متعلقاً تماماً بالخوف من احتمال فشل

ذلك الحب وفقدان تلك الرعاية[57]. ولقد كتب فرويد في إحدى رسائله: «إن رُهابي ـ إذا شئت ـ هو بؤس، أو بالأحرى رهاب جوع ناشيء عن نهمي في مرحلة الطفولة وتدعّم هذا الرهاب بسبب الظروف الخاصة من أن زوجتي لم يكن لها دوطة (وهذا شيء أفخر به)»[58]. وعلاوةً، فإن خوف عدم الأمان هذا وجد عند فرويد تعبيرات أخرى، أوضحها خوفه المرتبط بالسفر عبر السكك الحديدية. فقد كان عليه أن يتوجه إلى المحطة قبل رحيل القطار بساعة كي يكون متأكداً أنه لن يفوته. والسفر، كما يقول فروم، غالباً مايكون رمزاً لترك الأمان في كنف الأم والمنزل وللاستقلال وقطع جذور الانسان. ولهذا، فإنه لدى الناس ذوي التعلّق الشديد بالأم، كثيراً ما تعاش تجربة السفر على أنها شيء خطر، وعلى أنها مشروع على المرء أن يوفر له احتياطات خاصة للغاية. ولهذا السبب نفسه كان فرويد يتجنب السفر قدر الإمكان. وعلى الدوام كان يصاحبه شخص يستطيع الاعتماد عليه في رحلاته الطويلة خلال إجازات الصيف، وعادةً مايكون هذا الشخص أحد تلاميذه وأحياناً مينا أخت زوجته[59]. بل إن إريك فروم يربط أيضاً بين عدم أمان فرويد وفتوحاته الفكرية، ذلك أن فرويد الذي لم يكن آمناً بالمرة، ويشعر بسهولة أنه مُضْطَهَد، ومُهَدَّد، ومُخان، تكوّنت لديه رغبة قوية بالأمان والطمأنينة. وبما أنه لم يكن ثمة أمان في الحب بالنسبة له فقد وجد هذا الأمان في المعرفة، وكان عليه أن يقهر العالم عقلياً لكي يتلافى شكوكه أو شعوره بالفشل[60].

ومع ذلك كله، فإن مانعرفه عن علاقة فرويد بأمه قليل نسبياً، حيث كان مقتصداً للغاية بهذا الصدد. ومن بين مايزيد على الثلاثين حلماً التي أوردها في كتابه **تفسير الأحلام** لا يوجد إلا حلمين اثنين يتناولان أمه. وكلاهما يعبّر عن ارتباط شديد بها، الأمر الذي دفع إريك فروم لأن يستنتج من هذين الحلمين أن فرويد كان غلاماً يتوقع من أمه تحقيق رغباته كلها، وترعبه فكرة أن تموت. كما أن جونز أيضاً يشير إلى هذا التكتم فيقول: «في سنوات فرويد الأولى كانت لديه دوافع قوية للغاية لإخفاء

حقبة مهمة من تطوره ـ ربما أخفاؤها حتى عن نفسه. ويمكنني أن أخاطر فأخمن أنها حبه العميق لأمه»[61]. ولعل هذا الإغفال أو التكتّم كان ناجماً أيضاً عن التحفّظ الذي عرفه القرن التاسع عشر تجاه النساء وخاصة الأمهات[62].

أما أول حب لفرويد في صباه فكان في عمر السابعة عشرة، وقت دخوله الجامعة. ففي العائلة التي استضافته حين عاد إلى مسقط رأسه لقضاء العطلة، كان ثمة فتاة في الخامسة عشرة لم يلبث أن وقع في حبها. وكان ذلك الحب على جانب من العنف، وقد احتفظ به في سرية تامة. لكن اللقاء لم يَطُلْ، إذ عادت الفتاة إلى المدرسة بعد اللقاء بأيام لأن عطلتها كانت قد انتهت. وراح فرويد يقطع الساعات الطوال متجولاً في الغابات، وحيداً وحزيناً، ينسج أحلاماً وهمية تنطلق من الماضي فتعيد ترتيب أحداثه بحيث تصل إلى مستقبل تتحقق فيه أمنيته بالزواج من هذه الفتاة التي كانت تدعى جيزيلا فلوس. بل إن فرويد، بعد ثلاثين عاماً من ذلك، صدرت عنه زلّة قلم أثناء تسجيله ملاحظات عن حالة مرضية؛ فقد حدّثه مريضه عن جيزيلا أخرى، وكتب فرويد في ملاحظته «جيزيلا فلوس». واكتفى بأن وضع إلى جانب ذلك علامة تعّجب وجهها إلى نفسه[63].

إن أرنست جونز، الذي لا يمكن التشكيك بإخلاصه وبأرثوذكسيته الفرويدية، هو من يقول إن موقف فرويد من النساء «كان قابلاً، دون أدنى ريب، لأن يُعَدّ موقفاً عفا عليه الزمن»[64]، ولو أنه يردّ ذلك إلى البيئة والعصر أكثر مما يردّه إلى عامل شخصي. والحقيقة أن هذا الأمر لا يظهر في أي مكان آخر أوضح منه في علاقة فرويد بزوجته مارتا. ففي السادسة والعشرين من عمره خطب فرويد مارتا. ويبدو أن الأشهر التسعة التي قضاها في فيينا بصحبتها لم تكن موفقّة جداً، إذ أغلب الظن أنها كانت تخشاه ولا تشعر بالارتياح معه. ولكن عندما فصلت بينهما مسافة بعيدة، جمع بينهما، طيلة أعوام أربعة (1882–1886)، «حب

عظيم»، أفصح عن نفسه في تسعمئة رسالة غرامية يتسم كثير منها باللهجة المتعجرفة التي تذكرنا بثورفالد، بطل مسرحية إبسن بيت الدمية، عندما كان ينهال باللوم على نورا [65]. كما أنها غنية بالعناصر العاطفية، والهوامات التقليدية مما سيُطلق عليه بعد بضعة أعوام تسمية «عُصاب الخطوبة» (وهو تعبير مُهمَل اليوم)، فضلاً عن الغيرة غير المبررة وهاجس الموت ومجموعة من الأعراض التي سيكون من شأنها لاحقاً تغذية تفكير فرويد [66].

لقد كان فرويد في فترة الخطوبة عاشقاً مشتعلاً حباً. والفقرة التالية من رسالة منه إلى مارتا (1884) هي تعبير مميز عن شدة اشتعال حبه: «ويلك مني عندما آتي إليك ياأميرتي. سوف أقبلك حتى أدميك وسوف أغذيك حتى تسمني. وإذا ماتحسنتِ فسوف ترين من هو الأقوى: فتاة صغيرة رقيقة لا تأكل بما فيه الكفاية أم رجل متوحش كبير يسري الكوكايين في جسمه» [67]. لكنه كان أيضاً يرغب رغبة عارمة بأن يسيطر سيطرة تامة على مارتا، وقد انطوت هذه الرغبة على غيرة حادة من أي شخص قد تكِّن له اهتماماً أو محبة إلى جانب فرويد. وعلى سبيل المثال، فإن ماكس ماير، ابن عمها، كان موضع ولعها الأول. ولقد أتى حين مُنِعَت فيه من الإشارة إليه باسم ماكس، وطلب منها ألا تذكره إلا باسم السيد ماكس. وثمة شاب آخر كان قد تعلق بمارتا، وكتب فرويد إليها: «عندما تعاودني ذكرى خطابك إلى فريتز ونزهتنا في الكالتبرج فإنني أفقد كل سيطرة على نفسي، وإذا كانت لديّ قوة تستطيع تدمير العالم كله بما في ذلك أنفسنا لكي أجعله يبدأ من جديد، حتى ولو على حساب المخاطرة بأنه قد لا يخلق مارتا ويخلقني مرة أخرى، فإنني سأفعل هذا بدون تردد». غير أن غيرة فرويد لم تكن مقتصرة على الشبان الآخرين، وإنما كانت تطال حتى مشاعر المودّة التي تكنها مارتا لأهلها. فقد طلب فرويد منها ألا تكتفي بإنتقاد أمها وأخيها على نحو موضوعي وحسب، بل أن تسحب عنهما أيضاً كل محبة تكنّها لهما ـ وذلك على أساس أنهما عدوّاه

ـ لكي يمكن لها أن تشاركه في كراهيته لهما. وحين استثمر أخوهما مبلغاً من المال كانت قد وضعته عنده ريثما تستخدمه وخطيبها في شراء الأثاث لشقتهما، وتردّد في إعادته كله دفعة واحدة مقترحاً شراء الأثاث بالتقسيط، وجّه فرويد إلى مارتا إنذاراً كانت أول نقطة فيه أن توجّه رسالة لاذعة إلى أخيها تسميه فيها بـ «الوغد». وحتى بعد ردّ المبلغ، طلب منها فرويد ألا تكتب إليه إلا بعد أن تعده بقطع كل علاقة مع أخيها[58].

كما تكشف رسائل فرويد ماكان يأمل أن يكون عليه زواجه من مارتا. فهو يكتب في إحدى هذه الرسائل: «طاولات وكراسي، أسّرة، مرايا، ساعة حائط لتذكير الزوجين السعيدين بالوقت الذي يمّر، مقعد وثير للحظات أحلام اليقظة العذبة، سجاجيد لمساعدة ربّة البيت في المحافظة على نظافة أرضية الغرف، بياضات رُتبت في الخزائن ورُبطت بشرائط زاهية اللون، فساتين على الموضة وقبّعات مزينة بزهور، لوحات على الجدران، كؤوس عادية وأخرى ثمينة للخمر والمناسبات الهامة، صحون، أطباق... وعدّة التطريز وقنديل السرير... وإن لم يكن كل شيء في مكانه، فإن ربّة البيت، التي تعلّقت بكل قطعة من أثاث بيتهما، تكابد من العذاب والضيق. ويُفترض في غرض بعينه أن يشهد على الجديّة، على العمل الذي يضمن حسن سير حياة الأسرة، في حين يدلل غرض آخر على حسّ بالجمال، أو يذكّر بأصدقاء أعزاء، بمدن زارتها الأسرة، بلحظات لا تودّ أن تنساها... هل من المفروض أن نسجن قلبنا في مثل هذه الأشياء الصغيرة؟ أجل، بكل تأكيد... إنني أدرك، بكل تأكيد، كم أنت ناعمة، وكيف تستطيعين أن تجعلي من بيتي جنة، وأعلم أنك ستشاركينني اهتماماتي، وأنك ستكونين مرحة وإنما نشطة ومكدّة في آن معاً. سأدعك تديرين البيت كما تهوين، وستجازينني على ذلك بعطفك وبحبك وبتعاليك على السفاسف وزلاّت السلوك التي كثيراً ماتجعل النساء موضع احتقار. وبقدر ماتسمح لي أعمالي من أوقات فراغ، فإننا سنطالع معاً كتباً تروق لنا، وسوف أطلعك على أمور لا يمكن لها أن تثير اهتمام فتاة مالم

تشارك زوجها المقبل حياته الحميمة»[69].

بيد أن الزواج وضع حداً لذلك الحب المضطرم، وكان زواجاً تقليدياً. ويبدو أن رغبة فرويد في أن «يجعل منها كائناً على صورته» قد منيت بإحباط متكرر. ولقد عزّ على فرويد، كما نوّه بذلك جونز، ألاّ تستجيب للاختبار الأساسي، أي «أن تتماهى على نحو مطلق معه، مع آرائه ومشاعره، ومقاصده». فلم يكن يشعر أنها غدت ملكه ما لم يتعرّف فيها «دمغته». وكان مأخذه الرئيس عليها أنها ليست طيّعة بما فيه الكفاية. وأنها أيضاً لا تشعر بالإرتياح معه ولا تدلل على قدرة في أن تكون «رفيق سلاح» له. ويبدو، والكلام لجونز أيضاً، «أنها لم تكن لينة العريكة، كما تسنّى لفرويد أن يلاحظ بأسى، بل كانت صاحبة شكيمة قوية يصعب التأثير عليها. وكانت شخصيتها متفتحة عموماً ومتوازنة أفضل توازن: كانت تستحق أفضل ثناء يمكن أن يصدر عن محلل نفسي: كانت «طبيعية»». وهكذا كتب إليها فرويد في نهاية المطاف يقول: «لقد عدلت عمّا كنت أطالب به. فأنا لست بحاجة إلى ذلك الرفيق في السلاح الذي كنت تأملت أن أصنعه منك. فأنا قوي بما فيه الكفاية لأقاتل بمفردي...»[70].

أما كزوجة وأم، فإن مارتا كانت تكرس كل حياتها لفرويد، فتعتني برفاهيته وتتابع احتياجاته ولا تريد لنفسها شيئاً[71]. وقد كشفت عن موهبة رائعة في تنظيم بيتها. بيد أنها لم تكن يوماً من النساء المتألقات في المجتمع، فقد كانت تسبّق راحة زوجها وسعادته على أي شيء آخر، شأنها شأن أكثر الأمهات اليهوديات رعاية واستكانة. بيد أنها لم تكن تحظى بما يداني هذه الأهمية عند فرويد. وثمة حلم يرويه فرويد نسيَ فيه أن يذهب إلى المسرح ليرافقها في طريق العودة إلى البيت. وعلّق على هذا الحلم قائلاً: «هذا معناه أن من الممكن لنا أن ننسى الأشياء التي لا أهمية لها»[72]. وثمة أمثلة كثيرة مشابهة لهذا في حياتهما اليومية التي لم يكن فرويد

يبدي فيها أي اهتمام يستحق الذكر بزوجته. وحين كان فرويد يسافر إلى الخارج، فإن ذلك لم يكن مع زوجته بل غالباً مع أصدقائه أو مع أخت زوجته. وهو يقدم تفسيراً لذلك في رسالة كتبها إلى مارتا من بالرمو فيقول: «أنا آسف للغاية أنني لم أدعكم جميعاً ترون الأشياء الجميلة التي هنا. فلكي أتمكن من الاستمتاع بهذه الأشياء بصحبة سبعة أو تسعة أشخاص أو حتى ثلاثة أشخاص، فإنه ماكان يجب أن أكون طبيباً نفسياً والمؤسس المفترض لاتجاه جديد في علم النفس، بل كان يجب أن أكون مجرد صاحب مصنع لشيء نافع مثل ورق التواليت أو أزرار الأحذية. ولقد تعلمت هذا ولكن متأخراً جداً، ومن ثم فعليّ أن أنطلق ممتعاً نفسي بأنانية، ولكن مع شعور عميق بالأسف». ويعلق إريك فروم على هذا قائلاً: «إن فرويد يدرج تعلاّت عقلية نمطية هي من الناحية العملية التعلاّت العقلية نفسها التي يلجأ إليها الأزواج الآخرون من الذين يستمتعون في إجازاتهم وهم في صحبة أصدقاء من الذكور على نحو أفضل مما لو كانوا مع زوجاتهم. والملاحظ هو أن فرويد كان أعمى، على الرغم من تحليله الذاتي، فيما يتعلق بزواجه، وكان يتفنن في تقديم التبرير العقلي[73].

ولقد أدّى هذا الفتور في حب وحماس فرويد تجاه مارتا إلى تحويل أنظاره نحو امرأة أخرى هي مينا أخت زوجته. وكانت هذه الأخيرة قد جاءت للعيش مع عائلة فرويد منذ عام 1896 حين كان عمرها واحداً وثلاثين عاماً وظلت معهم حتى وفاتها في عام 1941 . وكانت الصلة وثيقة بين مارتا ومينا. وكلتاهما كانتا فنانتين في أشغال الإبرة، وتعانيان من آلام الشقيقة والإقياء. ومع أن فرويد لم يكن يعتبر الشقيقة «مرضاً عضوياً» وإنما «نفسانياً»، فإنه كان يرى أن العصاب غير موجود في عائلته. والحقيقة أن خطيب مينا كان صديقاً لفرويد من فيينا وتوفي. وأصبحت مينا بمثابة أم ثانية لأطفال فرويد، الذين كانوا يعانون من وجود هذه السلطة الأمومية المزدوجة كما كانوا يغارون من انشغال الاختين واحدتهما بالأخرى واهتمامها بها. ويبدو أن مينا كانت هي الأكثر

صرامة مع الأطفال. لدرجة أن كنّة فرويد (زوجة ابنه مارتن) عبّرت عن استيائها من الدور الذي تلعبه هذه العمة في حياة زوجها.

وكانت مينا أكثر ثقافة من مارتا. وصارت بمثابة سند حقيقي لفرويد في عمله. وثمة من يقول إن فرويد، في تلك الأيام الباكرة من عمر التحليل النفسي، كان يتلو عليها قصص بعض مرضاه. لكن مساعدتها له لم تكن مساعدة الشخص الفاعل أو تتخطى حدوداً معينة. ويمكن القول إنها كانت تفهم أفكاره فعلاً، كما كان يروقه أن يناقش معها هذه الأفكار أكثر مما يروقه ذلك مع مارتا. ويبدو أنه أملى عليها واحدةً من ترجماته. كما عبر فرويد مرةً عن فكرة مفادها أن مينا وصديقه فيلهلم فليس هما الوحيدان اللذان عززا إيمانه بنفسه في سنوات عزلته، وهي ذاتها سنوات إبداعه، ذلك أنهما كانا يثقان بإنجازاته الفكرية. ويضاف إلى ذلك أن مينا، على الرغم من ثقافتها، لم تكن منافسة وإنما مستمعة وحسب.

وفي عام 1969 ظهر مقال يؤكد أن يونغ قال إن مينا عبّرت له عن قلقها من حب فرويد لها ومن حميمية علاقتهما. وكان فرويد قد كتب مرةً أن مارتا وخطيب مينا طيبان، بخلافه هو ومينا لأن «هواهما بريّ، وليسا طيبين». ولقد تم إضفاء معنى معيناً على هذا القول، على الرغم من أنه قد يكون مجرد محاولة لتفسير سبب التلاؤم بينه وبين مارتا من جهة، وبين مينا وخطيبها من جهة أخرى. ثم إن مينا كانت شريك فرويد المفضّل في لعب الورق ورفيقة أسفاره الكثيرة، لكن الإشارات كثيرة إلى أن ذلك لم يتحول إلى علاقة حقيقية وأنه ظل مخلصاً لمارتا بهذا الصدد. ويبدو أنه كان لدى فرويد نوع من الانفصام في حياته الحبية، ذلك أن جنسيته بقيت لدى مارتا في حين انزاح إنشغاله الروحي نحو مينا[74]. أما أبعد من ذلك، فيبدو أن فرويد كان مفرطاً في طهرانيته وعفته. ولم يشغل الجنس حيّزاً هاماً في حياته[75]، وهو أمر مدهش بالنظر إلى ماقام به من فتوحات علمية في ميدان الحياة الجنسية.

إن رسائل فرويد، واختياره للمرأة التي أحبّ، وعلاقته بتلميذاته تنم بوضوح عن أن ثمة نموذجاً واحداً للموضوع الجنسي كان ماثلاً في ذهنه: نموذج المرأة الطيّعة. وكان يرى في الجنس الآخر ملائكة مكلّفة بالسهر على راحة الرجال وتأمين حاجاتهم. بيد أننا نريد الآن أن نستكشف منزلة المرأة في أعماله النظرية، ونرى إلى الأسس التي يمكن للمواقف التحليلية النفسية أن تنبني عليها في هذا المجال، الأمر الذي سيكشف في السياق ما إذا كان ثمة تعارضات أو تناقضات أو سواها في فكر فرويد وسلوكه.

في الحقيقة، إن ماذكرناه آنفاً عن عقدة أوديب ينطبق على الطفل ـ الصبي. أما قصة مرور الطفل ـ البنت عبر هذه العقدة فهو أمر أقل وضوحاً واستقامة بكثير. بل إن هذا الموضوع يشكل منطلقاً ممتازاً لاستكشاف التصوّر الفرويدي عن المرأة والأنوثة. وهو، أيضاً، المنطلق ذاته الذي صدرت عنه معظم الانتقادات التي انصبّت على فرويد في هذا المجال، فضلاً عن الدفاعات التي نافحت عنه.

تمتّ الإشارة من قبل إلى أن التهديد بالخصاء هو مايدفع الصبي للتخلي عن رغبته المحرمة بالأم والانفصال عنها والامتثال للأب. فما الذي يدفع البنت إلى التخلي عن رغبتها بالأب مادامت «مخصية» أصلاً ولا يمكن تهديدها بالخصاء؟ وبعبارة أخرى، ماهي الآلية التي تنحلّ بواسطتها عقدتها الأوديبية، مادام الخصاء، وكما سنرى، هو مايجعل العقدة ممكنة أصلاً لديها، فضلاً عن تحظيره رغبتها المحرَّمة كما هو الحال لدى الصبي؟ ومن ثم، فإن الدخول في عقدة أوديب يفرض على البنت أن تغيّر «موضوع حبها» من الأم إلى الأب، في حين على الصبي أن يستمر وحسب في حبه للأم؛ وبما أن تغيير موضوعات الحب أمر معقد وصعب، فإن هذا يطرح إشكالية أخرى بشأن الأوديب الأنثوي. فكيف يتعامل فرويد مع هذه الإشكاليات؟.

يقول فرويد: «إننا نعزو إلى الأنثى أيضاً عقدة خصاء، وإن تكن

بطبيعة الحال مختلفة عن عقدة الذكر. فعقدة الخصاء تظهر عند الصبي حين يلاحظ، متى ما وقع نظره على أعضاء تناسلية أنثوية، أن عضو الذكورة، العظيم القيمة في نظره، ليس جزءاً لازماً من كل جسم بشري، وعندئذ يتذكّر ما وُجِّه إليه من تهديدات يوم فوجيء متلبساً بجرم معابثة قضيبه. ويتنابه إشفاق من أن توضع هذه التهديدات موضع التنفيذ، ويعرف من ثم خوف الخصاء الذي يغدو مذّاك أقوى محرك لتطوره اللاحق. وعند البنت أيضاً تنشأ عقدة الخصاء لدى مرآها الأعضاء التناسلية للجنس الآخر. فتفطن في الحال إلى الفارق، وتفهم أيضاً - لامفرّ لنا من الإقرار بذلك - كل مدلوله وأهميته. وتكون حساسيتها بما أصابها من أجحاف كبيرة، وقد تصرّح برغبتها في أن يكون لها هي أيضاً «شيء كهذا». ويستبدّ بها الحسد القضيبي ويترك هذا الحسد في تطورها وتكوين خلقها آثار لا تُمحى. وحتى في الحالات المواتية لا تستطيع البنت الصغيرة أن تتغلب على هذه الشهوة إلا بعد بذل مجهود نفسي كبير. فحينما تكتشف البنت الصغيرة ما أصابها من إجحاف لا تستسلم بسهولة، بل على العكس، فهي تظل لفترة طويلة من الزمن تأمل في أن ينبت لها قضيب، وقد يدوم هذا الأمل أحياناً إلى طور متأخر من الحياة. وحتى عندما تقطع معرفة الواقع كل رجاء لها في تحقق رغبتها يوماً، يميط التحليل اللثام عن أن هذه الرغبة تبقى متأججة في لا شعورها ومحتفظة بشحنة كبيرة من الطاقة. ومن جملة الدوافع التي قد تحضّ المرأة الراشدة على طلب العلاج التحليلي، ينبغي أن ندرج الرغبة في امتلاك قضيب. وما ترجوه من خير من المعالجة، مثل اقتدارها على ممارسة مهنة فكرية - وهو رجاء معقول - لا يعدو في الكثير من الأحيان أن يكون شكلاً مصعداً من هذه الرغبة المكبوتة»[76].

وهكذا، يمثّل اكتشاف واقعة الخصاء لدى البنت الصغيرة نقطة انعطاف حاسمة. وتنفتح أمامها آنذاك ثلاثة منافذ: «الأول يفضي إلى الكّف الجنسي أو إلى العصاب، والثاني إلى تغير في الخُلُق وإلى تكوين عقدة ذكورة، والثالث أخيراً إلى الأنوثة السوية»[77]. وتتجسم الحالة الأولى عن

عيش البنت الصغيرة وكأنها صبي صغير، فتسارع إلى تعاطي الاستمناء البظري، وربط الإشباع الذي تناله على هذا النحو برغباتها الموجبة التي غالباً ما تكون الأم محورها، ثم تتوقف، تحت تأثير الحسد القضيبي، عن إيجاد لذّة في الجنسية القضيبية إذ تجد في المقارنة مع الصبي أجحافاً وسبباً للدونية، وتفقد أمها والنساء قاطبة من قيمتهن في نظرها للأسباب ذاتها التي تنتقص من قيمتهن في نظر الرجل[78]. أما إذا رفضت العزوف عن ممارسة نشاط «قضيبي» (أي نشاط مميز للذكر عادة) ورفضت قبول الواقع القاسي، وثابرت على نشاطها البظري، ونشدت خلاصها في التماهي مع الأب أو مع الأم القضيبية، فإن ذلك يؤدي إلى «عقدة ذكورة». والشيء الجوهري في هذه السيرورة الأخيرة هو «غياب دفعة السلبية في تلك المرحلة من التطور، تلك السلبية التي تتيح للأنوثة أن تكون وتتوطد»[79] كما يقول فرويد. ويمكن لنا أن نستنتج الآن أن الحالة الثالثة، أو الأنوثة السويّة، تنجم عن إقلاع البنت الصغيرة عن ممارسة الاستمناء البظري، والعزوف عن جزء من نشاطها القضيبي، فترجح كفّة السلبية، ويغدو الميل إلى الأب، بمعونة الدوافع الغريزية، هو الغالب، وينتفي النشاط القضيبي[80].

ويرجحّ فرويد أن تكون رغبة البنت بأبيها عائدةً إلى رغبتها بامتلاك قضيب، ذلك القضيب الذي ضنّت به أمها عليها والذي تأمل الآن أن تحصل عليه من أبيها. وبما أن التخلي عن القضيب لا يُحتمَل دون محاولة تعويض، فإن الرغبة في إنجاب طفل تنوب مناب هذه الرغبة بالقضيب، أي أن الطفل هنا يحل محل القضيب ويكون بديلاً له، وهذا ما يفضي إلى توطد الموقف الأنثوي. بل إن رغبة المرأة بالقضيب لا تشبع حقاً إلا عندما يكون الطفل صبياً صغيراً يحمل معه ذلك الشيء الذي هو أشد ما رغبت به. ويصبح في مستطاعها كأم أن تحول إلى إبنها جميع الطموحات التي اضطرت إلى كبتها في نفسها، وأن تأمل في أن تصرف، عن طريقه، بقايا عقدة الذكورة لديها[81].

وإذاً، فإن البنت الصغيرة تدخل في عقدة أوديب حين تحول إلى الأب رغبتها في الطفل – القضيب. وعندها يتأجج عداؤها الموجود من قبل للأم. وتصبح الأم منافسة لها، فهي المرأة التي تظفر من الأب بكل ما تود البنت الصغيرة أن تحصل عليه منه. ومن ثم، فإن من الملحوظ هنا وجود فارق أساسي بين الصبي والبنت فيما يخص العلاقة بين عقدة أوديب وعقدة الخصاء. فالبنت تقبل الخصاء كواقع، بينما الذي يسبب خوف الصبي هو إمكانية حصوله. وعقدة أوديب التي تدفع بالصبي إلى إشتهاء أمه والرغبة بالتخلص من أبيه، تتطور تطوراً طبيعياً أثناء الطور القضيبي، ليأتي التهديد بالخصاء ويرغمه على التخلي عن هذا الموقف، إذ يحكم الخوف من فقدان القضيب على عقدة أوديب بالزوال فتتلاشى تلاشياً تاماً في الحالات السوية. وعكس ذلك ما يحدث لدى البنت الصغيرة. فعقدة الخصاء هي التي تدخلها في عقدة أوديب، وبدلاً من أن تدمرها تساعدها على البقاء والاستمرار، فتحتفظ بها البنت لأجل غير محدود، ولا تتخطاها إلا في زمن متأخر وعلى نحو غير كامل[82].

ويترتب على ذلك آثار هامة لدى كل من الذكر والانثى تظهر على شكل خصائص متمايزة لدى كل منهما في تطورهما اللاحق. ففي حين يؤدي تلاشي عقدة أوديب لدى الذكر إلى قيام أنا أعلى متشدد، فإن الفترة الطويلة التي تحتفظ بها البنت بعقدة أوديب تؤدي إلى تكوين أنا أعلى أنثوي «لايتوصل إلى تلك الدرجة من القوة والاستقلال الضرورية من وجهة النظر الحضارية»[83]. ومن هنا فإن المرأة «لا تملك حسّ العدل في درجته الرفيعة. وأكبر الظن أن مردّ ذلك إلى غلبة الحسد على نفسيتها. فحس العدل ينبع، بالفعل، من ا لقدرة على التحكم بالحسد، ويعينّ الشروط التي يباح فيها اعتمال الحسد في النفس. ونقول أيضاً إن الاهتمامات الاجتماعية للنساء هي دون اهتمامات الرجال الاجتماعية، وأن القدرة لديهن على تصعيد الغرائز أوهن وأضعف»[84]. والحسد القضيبي هو الذي يحفز المرأة للتباهي بجسدها، إذ تعتبر مفاتنها تعويضاً لاحقاً وثمينا

عن دونيتها الجنسية الأصلية. وهو أيضاً ما يجعلها أشد نرجسية قياساً بالرجل، بحيث تكون حاجتها إلى أن تحب أكبر من حاجتها إلى أن تُحَبّ. أما الحياء، والذي يعد من الفضائل الخاصة بالنساء، فهدفه البدئي هو ستر النقص في أعضائهن التناسلية، على الرغم مما يخضع له لاحقاً من أعراف ومواضعات. وفي حين لم تسهم النساء، كما يزعم فرويد، إلا بقسط زهيد في الاكتشافات والاختراعات في تاريخ الحضارة، فإن ما يفسّر براعتهن في تقنية النسيج والضفر واختراعهما هو دافع لا شعوري إلى الستر والإخفاء[85]. بل ويجد فرويد نفسه منقاداً في نهاية المطاف إلى الكلام عن انطباع يساوره دوماً من جديد كلما قام بتحليل ومفاده أن الشرط النسوي قدر لا ينفع فيه علاج. «فالرجل البالغ من العمر ثلاثين حولاً كائن فتيّ، غير مكتمل، قابل بعد للتطور. وفي مقدورنا أن نأمل في قدرته على أن يستخدم على أرحب نطاق إمكانيات التطور التي يتيحها له التحليل. وبالمقابل فإن المرأة التي في مثل سنه تخيفنا بما نلفاه من ثبات وجمود لديها؛ فليبيدواها الذي اتخذ له مواقع نهائية يبدو عاجزاً عن الانتقال إلى مواقع أخرى. وهنا ينعدم كل أمل في أن نراها تحقق أي تقدم. فكل شيء يجري لديها كما لو أن سيرورة التطور قد اكتملت وباتت مستعصية على أي تأثير؛ فلكأن المسيرة الشاقة نحو الأنوثة كانت كافية لتستنفد كل إمكانيات المرأة. وإننا، نحن المعالجين، نبتئس لهذه الحالة، حتى لو توصلنا إلى قهر المرض بتصفيتنا الصراع العصابي»[86].

في عام 1880 قام فرويد بترجمة أربع دراسات لجون ستيوارت مل هي «حول المسألة العمالية»، «تحرير المرأة»، «الاشتراكية»، و«أفلاطون»[87]. وعلى الرغم من ثنائه على مل لأنه «ربما كان خير رجل في القرن التاسع عشر قد رتبّ أمر تحرير نفسه من هيمنة الأحكام المبتسرة المعتادة»[88]، فإنه في رسالة إلى خطيبته مارتا في الخامس من تشرين الثاني عام 1883 ينتقد ساخراً آراء مل فيما يتعلق بتحرير المرأة وبقضيتها عموماً، ويقول: « لا يتضح على الإطلاق من كل مايقوله، أن النساء كائنات

مختلفة – لن نقول كائنات دنيا وإنما على نقيض من الرجال. إنه يقيم موازاةً بين وضع المرأة ووضع العبد. والواقع أنه في وسع أي فتاة ترى رجلاً يقبّل يدها ويغامر بكل ما يملك في سبيل حبها، أن تكشف له عن خطئه، دون أن تحتاج من أجل ذلك إلى حق الانتخاب أو معرفة القوانين. إن الفكرة الداعية إلى إطلاق النساء في الصراع من أجل الحياة على قدم المساواة مع الرجال محكوم عليها بالفشل سلفاً. فلو كان عليّ مثلاً، أن أرى في خطيبتي الحلوة واللطيفة منافساً لي، لانتهيت حتماً إلى مصارحتها قائلاً، كما فعلت قبل سبعة عشر شهراً، بأنني شديد التعلق بها، وأنني أناشدها التخلي عن ميدان المعركة هذا، والانكفاء إلى أعمالها المنزلية، الأهدأ طابعاً والتي هي في منأى عن كل منافسة. وربما تغلبت يوماً التحولات الطارئة على أصول التربية على رقة المرأة التي تنشد الحماية مع أنها على درجة كبيرة من القوة، وقد يكون في مستطاعها آنذاك أن تكسب خبزها اليومي، أسوةً بالرجال تماماً. وقد تنعدم أيضاً، فيما لو حصل ذلك، أسباب حدادنا على أعذب ما يقدمه لنا العالم: أعني مثلنا الأعلى عن الأنوثة. لكني أعتقد أن ما من إصلاح قانوني أو إداري إلا وسيبوء بالفشل، لأن الطبيعة قد حددت سلفاً مصير المرأة بلغة الجمال، والفتنة، والعذوبة، وذلك قبل أن يكون الكائن البشري قد بلغ سن الارتقاء إلى مكانة في المجتمع. إن القوانين والأعراف ماتزال مدعوة إلى منح النساء عدداً من الأشياء التي ماتزال محظورة عليهن حتى الآن. بيد أن مصير المرأة سيظل رغم ذلك ما كان عليه حتى اليوم: ففي شبابها تكون ذلك الشيء اللذيذ الرائع. وفي سن الرشد تكون الزوجة المحبوبة»[89].

وبعد خمسين عاماً من تاريخ هذه الرسالة، نراه ينتقد أمام زائر له ما تتسم به الثقافة الأميركية من طابع أمومي. وحين يسأله هذا الزائر: «ولكن ألا تظن أنه من الأفضل إذا كان الوالدان متساوين؟ يردّ عليه فرويد قائلاً: «في هذا استحالة عملياً. يجب أن يكون هناك عدم مساواة، وإن تفوق الرجال هو أضعف الشرّين»[90]. ولقد عرّضت هذه الآراء فرويد لنقد

شديد واتهامات خطيرة، وخاصة من قبل الماركسيين وأنصار الحركة النسائية. ويبدو أن الأولوية التي تعطي، في أعمال فرويد، للطبيعة (البيولوجيا) أو المجتمع (التاريخ) هي التي حددت، وستحدد على الدوام، مروحة المواقف من فرويد ونظريته في المرأة والأنوثة، وهي مواقف تتراوح بين الدفاع المتزمت والنقد العنيف مرورا بتلاوين وتدرجات أكثر من أن تحصى. وبعبارة أخرى، فإن السؤال الأساسي في هذا الصدد هو من الذي يلعب الدور الأكبر في تحديد المعطيات النفسية، المجتمع أم الطبيعة؟ التشريح أم التاريخ؟.

وهكذا فإن النقد الذي يطال فريد ينطلق من مفكرة مفادها أنه، عند تناوله نفسية المرأة، يأخذ واقعها الاجتماعي والثقافي كتعبير عن الظواهر البيولوجية[91]. أي أنه يبدأ من الاختلاف التشريحي بين الجنسين ليتبين اختلافات التطور النفسي بينهما، وبذا يجعل التشريح قدراً أو مصيراً[92]. وهو، بالطبع، يعتبر النساء دون الرجال مرتبة من حيث التكوين البيولوجي والتشريحي، ويقيم على هذا الاساس مفهومه عن الحسد القضيبي وعقدة الخصاء وما يترتب عليهما من نتائج لدى المرأة. والحال، أن الجزء الأكبر مما بدا لفرويد خاضعاً للبيولوجيا هو قائم على أساس ثقافة نوعية وخاصة، وأن الجزء الأكبر مما اعتبره ملازماً للطبيعة البشرية هو، وبكل بساطة، وقف على طبقة معينة من المجتمع الأوربي في أواخر القرن التاسع عشر[93]. وبالتالي فإن دونية المرأة، والتي هي واقع ملموس، ليست قدرا بيولوجياً، بل النتيجة المؤقتة للتطور التاريخي. ووضع المرأة الخاص، المحدد اجتماعياًوتاريخياً، هو الذي يفسر بعض السمات الخاصة لديها ويطبع بطابعه مجمل السلوك والظواهر التي تنطوي عليها «الأنثوية». وعلى سبيل المثال، فإن النظرية التحليلية تستند إلى ملاحظات صحيحة فيما يتعلق بالسلوك الجنسي عند الأطفال وخصوصاً باكتشاف البنت الصغيرة لشكل عضوها الجنسي، هذا الاكتشاف الذي يكون تراجيدياً في بعض الأحيان، بيد أن هذ السلوك الطفلي هو انعكاس للفهم الاجتماعي للنشاط الجنسي

والذي يثّمن قضيب الرجل لأن هذا الأخير يحتل الموقع المهيمـن في عملية الانتاج الاجتماعي. ومن هنا، فإن التحليل النفسي يعكس نظام الأشياء معتبراً أن قوة الرجل متأتية عـن حيازتـه عضواً جنسياًخاصاً، في حين أن عضو الرجل هو رمز لقوته الاجتماعية أساساً[94].

وتبعاً لهذا النقد، فإن أسباب خطأ فرويد تكمـن في أنـه كـان أسير ثقافته الخاصة التي لم يستطع الإفلات من قبضتها. ولا تقتصر هذه الثقافة على ثقافة أوروبا العهد الفيكتوري وحسب، بل تمتـد أيضـاً لتطـال الثقافـة العبرية التي تجعل الرجال يرددون في صلواتهم اليوميـة: «أشـكرك، يارب، لأنك لم تخلقني امرأة»، وتدفع بالمرأة إلى القول بخنوع: «أشـكرك، يارب، لأنك خلقتني وفق إرادتك»[95]. ولذا جاءت نظرة فرويد الى المـرأة «نسـخة مصطبغة بالتبرير العقلي الضعيف للابتسـارات الخاصـة بالأسـرة الأبويـة في زمنه»[96]. ويضاف إلى ذلك ما كان يراه فرويد من أن سيكولوجيا النسـاء «قارة مظلمة»[97] تبعث على البلبلة والحيرة وتفرض الحذر والاحتراس أكـثر بكثير من سيكولوجيا الرجـال. ويبدو هـذا الاحـتراس واضحـاً في مقالـة فرويد عـن الأنوثـة ضمـن كتابه **محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي**، وكذلك في قولة مرةً لماري بونابرت: إن السؤال الكبـير الـذي لم تتم الإجابة عليه أبداً، والذي لست قادراًبعد على الإجابة عليه، على الرغـم من ثلاثـين سـنة مـن ا لبحـث في النفـس الأنثويـة، هـو «مـا الـذي تريـده المرأة؟»[98] كما اعترف فرويد أيضاً بأن ظروفاً خارجية وداخلية غير مواتيـة جعلت ماقدمه يدور بشكل أساسي حول تطور جنـس واحـد هـو الجنـس الذكري. وهذا ما أفسح في المجال للنقّاد كي يردوا ذلـك إلى كبـتٍ معـرفي داخـل نظريتـه، وإلى كبتـه هـو نفسـه، وإلى هيمنـة جنـس يريـد أن يلفـت الانتباه[99].

وبالمقابل، فإن هنالك من يرى في الاتجـاه التحليلي النفسـي توافقـاً كاملاً (وإن لم يكن تطابقاً) مع الجدلية المادية ومنطلقاتهـا الأسـاسية مـن

حيث التفاعل والتناقض والتجاذب بين المعطيات الموضوعية ومحصلاتها الذاتية. وبشأن المعاناة النسائية تحديداً، يرى هؤلاء أن المدرسة التحليلية النفسية، مع فرويد ورايش خاصةً، قد ربطت هذه المعاناة بجدلية المؤسسات والتفاعلات الاجتماعية، مما يشكل مثالاً على أن التحليل النفسي يعتبر المعطيات النفسانية نتيجة لتفاعل المعطيات الاجتماعية العامة. ولذا فإن الأدبيات التي تنطلق في نقدها للفكر التحليلي من منظور اجتماعي ترتكب خطأً إذ تُظْهِر هذا الفكر وكأنه فكر لا اجتماعي ولا تاريخي[100].

وينطلق هذا الرأي من أن منطق فرويد يشتمل على فهم مفاده أن اللذّة – التي هي هدف الرغبة – لها منطلقات ذاتية، لكنها تنزع إلى الاشباع بالعلاقة مع الموضوعات الأخرى (حيث الأم هي الموضوع العاطفي الأول). وهذا ما يضعنا في إطار المجتمع الذي يحوّل اللّذة ويقبض عليها، فيطلقها أو يقمعها، ويرسم لها مساراً عند جماعة، ومساراً آخر عند جماعة أخرى. واللذة ليست بيولوجية ميكانيكية صرف وإنما هي هوامية نفسانية على الأخص، ذلك أن المركز الجسدي للّذة يعتبر قاعدة مباشرة لهوامات مكثفة ومتحركة ورمزية تسرق اللذة من مكان الجسد المركز إلى ضباب الهوامات السرابية. وبالمقابل، فإن القيم الاجتماعية التي تتجسد في وقائع القمع والتحريم، والتي تصدر عن حلقات السلطات المتعددة – وخاصة السلطة الأبوية – تؤدي في المجتمع الأبوي إلى تفضيل لاعقلاني وهوامي لمركز لذّة على مركز آخر، وإلى محاباة لهوامات المتعة عند فريق على حساب هوامات متعة فريق آخر. وهكذا يتم الانتقال عند الذكر، وبموجب القيم الاجتماعية، من القضيب إلى هوامات القضيب التي ترمز إلى القوة والسيطرة والايجابية، وأخيراً إلى الخوف من فقدان القضيب. ويتم الانتقال عند الانثى من البظر إلى هوامات مرتبطة بمأساة فقد القضيب التي حصلت، وإلى هوامات الدونية والسلبية، وأخيراً إلى هوامات المعادلة الرمزية التي تنزع إلى تعويض هوامي لما فُقِد، وذلك من خلال المقارنة بين القضيب والأب أو الأخ أو الزوج ممن يمكن أن يعطي الأنثى مولوداً

يعوضها ما فقدته. وخلاصة القول إن اللذّة هي أساس الرغبة، وأن اللذة تنطلق من الجسد ولا تستقر فيه، وأن لا لّذة بلا هوامات، ولا هوامات بدون واقع، والواقع مؤسس اجتاعيا. والمنطلق التحليلي النفسي يتعاطى مع هذه المركبات المتشابكة والداخلة فيما بينها في علاقات احتواء لا تنتهي[101].

وعلى هذا الاساس، يصبح ممكناً إنجاز قراءة أخرى مختلفة لمظاهر المعاناة النسائية التي أشار إليها الفكر التحليلي[102]. فإذا ماكانت بنية الآنا الأعلى الأنثوية ضعيفة ومفككة، كما يشير فرويد، فإن التحليل النهائي لهذه الظاهرة يشير إلى أن السلطة الأنثوية ليست سوى تمثّل عميق ولا واعٍ للسلطة الأبوية. وبما أن هذا التمثّل لا يتم إلا في أجواء الغياب المادي لهذه السلطة بعد أن تؤدي دورها في عملية التشريط في مرحلة الطفولة، وبما أن الغياب لا يتمّ في حياة الأنثى التي تلاحقها السلطة أينما ذهبت، فإنّ السلطة تغزو بنيتها الشخصية كما هي دون أن تتحول إلى سلطة ذاتية على شكل أنا أعلى. وهذا ما يفسّر الظاهرة اللاواعية لخوف الأهل من ترك الأنثى وحيدة وبعيدة عن رقابتهم مخافة انحرافها عن إطار القيم الأخلاقية المعتمدة. هذا في حين أن محتوى السلطة الأبوية المحابي للذكر، يسمح للأهل بالثقة بأبنائهم الذكور وبسلطتهم الذاتية المتمثّلة بالأنا الأعلى. وإن انعدام الثقة هذا بالأنثى هو مايقف خلف هوامات الأهل المتعلقة بغواية المرأة وشيطانيتها وخطورتها وشرّها الذي لابد منه.

وإذا ماكانت المرأة تعاني من كبت ذهني واضطراب في الذكاء، فذلك يعود إلى تعميم الكبت من الإطار العاطفي إلى الإطار الذهني. فالعاطفة ، برأي فرويد، تنفتح من خلال التفاعل مع الموضوعات العاطفية الخارجية المادية والبشرية بوجه خاص (ومع الأم كموضوع عاطفي أول على الأخص). وبالتالي فإن الموضوعات الخارجية يمكن أن تكتسب في آن واحد معاني ذهنية ومعاني عاطفية هوامية. فإذا ما تم التضييق على التفاعل

مع الموضوعات، فإن العاطفة تنحرف وتقمع وتكبت، كما أن الذكاء يفتر ويضطرب ويضعف. وهذه المعاناة تبرز بوجهيها العاطفي والذهني بشكل حاد عند المرأة.

أما ما يقوله فرويد عن أن المرأة مازوشية، تجد لذتها وإشباعها العاطفي عن طريق الألم الجسدي والنفسي الذي ينزله بها الرجل والمجتمع إجمالاً، فذلك يعود إلى ما يشير إليه فرويد من مسؤولية المؤسسات الاجتماعية في إيصال اللذة الانثوية إلى الشكل المازوشي واستقطابه لها. فالمرأة تعاني مادياً ومعنوياً من المجتمع وقوانينه الجائرة، ومن الزوج المقموع الذي يسقط عليها قمعه على شكل عداونية مؤلمة(*) ([103]). لكن هذه المرأة لا تفقد رغباتها ولذاتها (وإن كانت تقمعها إلى حين) ويتحول الألم إلى لذة، ذلك أن هذه الأخيرة لا تختفي ولا توجد من العدم وإنما تتحول. والمازوشية تتوطد عندما تتحول مشاعر الألم إلى لذة وبالعكس في إطار عملية كاملة من تجاذب المشاعر وتناقضهما على المستوى الجسدي والنفسي. وعلى الرغم من أن المازوشية ليست أنثوية خالصة، حيث يمكن

(*) مايقوله فرويد حرفياً هو: «قد يكون في مستطاعنا القول إن الأنوثة تتميّز، من الناحية السيكولوجية، بميل نحو أهداف سلبية... لكن لنحاذر على كل حال أن نهوّن من شأن التنظيم الاجتماعي الذي يجنح، هو أيضاً، إلى وضع المرأة في مواقف سلبية. والأمر الذي لا يزال يكتنفه إبهام كبير. ولا نغفل كذلك عن الصلة الثابتة بوجه خاص بين الأنوثة والحياة الغريزية. فالقواعد الاجتماعية وجبلّة المرأة الخاصة بها يقسرانها على كبت غرائزها العدوانية، ومن هنا تتشكّل لديها نزعات مازوشية قوية لا يعزّ عليهما أن تصبغ الميول المدمرة المتجهة إلى الداخل بصبغة إيروسية. إذن فالمازوشية هي بالفعل، كما يقال، أنثية جوهراً. وعلى هذا، وحتى عندما تلتقون برجال مازوشيين (وهذا شيء غير نادر)، فلن تجدوا مفراً من القول بأنهم ينطوون في خلقهم على قسمات أنثية ظاهرة»[103]

للرجل أن يشارك في هذه الأنماط من الإشباعات والتوظيفات العاطفية، فإننا نجد كثيراً من النساء اللواتي يتلذذن بالألم والعذاب وكأنه ينفّس عنهن كرباً.

ويُقال أيضاً إن المرأة رمز الغواية، وإن البغاء هو من التوجهات الأساسية الكامنة في بنية المرأة. لكن التحليل النفسي يرجع هذه الظاهرة إلى الجدلية الاجتماعية وعلاقاتها، حيث يشير فرويد إلى أن الرجل يهدف دائماً إلى اختيار موضوع عاطفي أقل منه قدراً اجتماعياً ومركزاً ومكانة وثقافة حتى يسمح لنفسه ولجسده بالانطلاق الهوامي اللاعقلاني والساقط أخلاقياً في تعاطيه مع الجسد الأنثوي، وبشكل يحمي الكثير من مظاهر التشبث والنكوص الطفوليين. وإذا ماكان الرجل يملك سلطة القانون والاقتصاد والمجتمع، فإن المرأة تملك السلطة العاطفية، أي سلطة العطاء والامتلاك والعارض لمادة اللذة. ويرى التحليل النفسي أن المرأة غالباً ما تمتلك هذه السلطة بشكل سلبي، فتعطي نفسها بشكل بارد أحياناً وبشكل مهدد ومخيف في أحيان أخرى مما يحول الرجل إلى عاجز ورهابي، ويعطي المرأة في ذهنه صورة رموز الافتراس والخطر. وعلى هذا تتحول المرأة في ذهنه (وفي ذهنها هي أيضاً) من السلبية المتلقية إلى الايجابية الفاعلة.

يبدو إذاً أن ثمة مجال لقراءات مختلفة ومتنوعة في أعمال فرويد، الأمر الذي يفسّر وجود مواقف متعارضة حياله حتى في صفوف الحركة الأنوثية أو بين الماركسيين أنفسهم. وعلى الرغم مما تقدمه عبقرية فرويد من أدوات وطرائق لاستكشاف بنية وعمل مجالنا النفسي وعلاقة ذلك بالمجتمع، يبقى ثمة مجال للرؤية مع إريك فروم أن ما يبدو بمثابة تفاعل جدلي لدى فرويد بين الواقع والغرائز ليس سوى نتيجة لانطلاقه من وجهة نظر سوسيولوجية زائفة[104]. وأن مبدأ الواقع لديه ليس خصماً لمبدأ اللذة وإنما «معدّل» له، ومايقصده فرويد بمبدأ الواقع ليس سوى القدرة الموجودة لدى كل إنسان على ملاحظة الواقع والنزوع إلى حماية نفسه من الأذى الذي قد ينزله به الإشباع غير المكبوح للغرائز. وبالتالي فإن مبدأ الواقع هنا مختلف كل الاختلاف عن المعايير التي لبنية اجتماعية معينة[105].

المراجع

(1) انظر، ميشيل برنـارد، «الدور الثقافي لعلم النفس ومضمونه الإيديولوجي»، ترجمة عبد الرزاق الأصفر وسهيل عثمان، المعرفة، العدد 196، حزيران 1987، ص14

(2) انظر، فيكتور سميرنوف، التحليل النفسي للولد، ترجمة د. فؤاد شاهين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية 1982، ص13-20

(3) إريك فروم، أزمة التحليل النفسي، دراسات حول فرويد وماركس وعلم النفس الاجتماعي، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1986 ، ص 166-168

(4) فرويد، علم ماوراء النفس، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، كانون الأول 1982، ص12

(5) المصدر السابق، ص 14-15

(6) فرويد، خمسة دروس في التحليل النفسي، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، حزيران 1981، ص26

(7) علم ماوراء النفس، ص38

(8) خمسة دروس في التحليل النفسي، ص30

(9) المصدر السابق، ص 25-26

(10) المصدر السابق، ص 59-66، وكذلك انظر، فرويد، النظرية العامة للأمراض العصابية، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، تموز 1980

(11) انظر، فرويد، مدخل إلى التحليل النفسي، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، نيسان 1982، ص17

(12) فرويد، ثلاث مقالات في نظرية الجنسية، ترجمة سامي محمود علي، دار المعارف، مصر، دون تاريخ للنشر، ص 66-67؛ وانظر أيضاً، النظرية العامة للأمراض العصابية، ص92

(13) ثلاث مقالات في نظرية الجنسية، ص78-79؛ وكذلك علم ماوراء النفس، ص34

(14) ثلاث مقالات في نظرية الجنسية، ص79، وكذلك النظرية العامة للأمراض العصابية، ص110

(15) د. علي كمال، الجنس والنفس في الحياة الانسانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 1984، ص69

(16) فرويد، محاضرات جديدة في التحليل النفسي، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، آب 1980، ص118؛ انظر أيضاً، جان لابلانش و.ج.ب. بونتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ترجمة د. مصطفى حجازي، المؤسسة الجامعية للدارسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، ص474-475

(17) النظرية العامة للأمراض العصابية، ص92

(18) المصدر السابق،ص93، وكذلك، خمسة دروس في التحليل النفسي، ص52

(19) الجنس والنفس في الحياة الانسانية، ص73

(20) النظرية العامة للأمراض العصابية، ص112؛ وخمسة دروس في التحليل النفسي، ص53

(21) النظرية العامة للأمراض العصابية، ص113

(22) محاضرات جديدة في التحليل النفسي، ص119

(23) علم ماوراء النفس، ص15

(24) محاضرات جديدة في التحليل النفسي، ص76

(25) الجنس والنفس في الحياة الانسانية، ص70، وكذلك خمسة دروس في التحليل النفسي، ص56

(26) النظرية العامة للأمراض العصابية، ص121

(27) المصدر السابق، ص296؛ وكذلك محاضرات جديدة في التحليل النفسي، ص 104-106

(28) حول عقدة أوديب، انظر الصفحات من 113-123 في النظرية العامة للأمراض العصابية وكذلك في غيره، بالطبع، من مؤلفات فرويد.

(29) علم ماوراء النفس، ص38-39؛ وكذلك، فرويد، الكف، العرض، الحصر، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، نيسان 1982، ص 13-14

(30) الجنس والنفس في الحياة الانسانية، ص74

(31) بشأن تحول العلاقة الوالدية إلى أنا الأعلى وما يحمله انحلال عقدة أوديب من نتائج، انظر الصفحات من 86-97 في محاضرات جديدة في التحليل النفسي؛ وكذلك الصفحات 27-40 من كتاب فرويد، الأنا والهذا، ترجمة جورج طرابيشي، دار

الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، أيلول 1983 .

(32) **معجم مصطلحات التحليل النفسي**، ص597

(33) المصدر السابق، ص598

(34) إضافة إلى كتاب فرويد الضخم **تفسير الأحلام**، ترجمة مصطفى صفوان، دار المعارف بمصر، الذي صدرت طبعته الأولى 1958 والثانية 1969، فإن هناك كتابان آخران لفرويد عن الأحلام مترجمان إلى العربية وهما، **نظرية الأحلام**، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى 1980 ، والثانية 1982، وهو في الحقيقة جزء من كتاب فرويد **محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي**، أما الثاني فهو **الحلم وتأويله**، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى 1976، والثالثة 1980، إضافة إلى مقالات أخرى مترجمة لفرويد ومبثوثة في كتبه، وخاصة مراجعته لنظرية الأحلام في كتاب **محاضرات جديدة في التحليل النفسي**.

(35) فرويد، **مدخل إلى التحليل النفسي**، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، نيسان 1982 . والحقيقة أن هذا الكتاب الصغير هو عبارة عن المحاضرات الأربع الأولى من كتاب **محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي**، وهي خاصة بالهفوات.

(36) انظر ماكتبه فرويد عن النكتة في الدرس الثالث من كتابه **خمسة دروس في التحليل النفسي**. ومما يؤسف له أن كتاب، الهام النكتة وعلاقتها باللاوعي لم يترجم إلى العربية حتى الآن، على حدّ علمي.

(37) فرويد، **مسائل في مزاولة التحليل النفسي**، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، كانون الأول 1981، ص36؛ وكذلك **النظرية العامة للأمراض العصابية**، ص148

(38) **النظرية العامة للأمراض العصابية**، ص122

(39) النظرية العامة للأمراض العصابية، ص 85، 225-229

(40) **معجم مصطلحات التحليل النفسي**، ص395-398

(41) **النظرية العامة للأمراض العصابية**، المحاضرة السابعة والعشرون، «التحويل»، ص234-255

(42) المصدر السابق، ص250

(43) معجم مصطلحات التحليل النفسي، ص554-555

(44) النظرية العامة للأمراض العصابية، ص251، 263

(45) المصدر السابق، ص262

(46) فرويد، مافوق مبدأ اللذة، ترجمة د. إسحق رمزي، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية 1966؛ وانظر أيضاً محاضرات جديدة في التحليل النفسي، ص123-132

(47) انظر، فرويد، مستقبل وهم، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثالثة 1981 .

(48) المصدر السابق، ص17

(49) المصدر السابق، ص17-18

(50) Paul Roazen Freud and His Followers ،Penguin Books، 1974،PP، 51-52.

(51) المصدر السابق، ص 57

(52) المصدر السابق، ص 57

(53) انظر، بتي فريدان، «الفرويدية واسطورة دونية المرأة»، في كتاب نقد مجتمع الذكور، مجموعة من الكتّاب، ترجمة هنرييت عبودي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى 1982، ص 169؛ وانظرأيضاً، إريك فروم، فرويد، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، سلسلة أعلام الفكر العالمي المعاصر، الطبعة الأولى 1972،ص 21

(54) المصدر السابق، ص 169

(55) إريك فروم، فرويد، ص 21-22

(56) المصدر السابق، ص 22-23

(57) المصدر السابق، ص 24-25

(58) المصدر السابق، ص 25

(59) المصدر السابق، ص 26-27

(60) المصدر السابق، ص11

(61) المصدر السابق، ص20

(62) بول روزن، فرويد وأتباعه، ص

(63) و. مانوني، مذهب فرويد، ترجمة: نريست عبودي، دار الحقيقة، بيروت، الطبعة الأولى، 1979، ص 23

(64) نقد مجتمع الذكور، ص 176

(65) المصدرالسابق، ص 169، 172-173

(66) مذهب فرويد، ص29

(67) إريك فروم، فرويد، ص 28

(68) المصدر السابق، ص 29-30

(69) نقد مجتمع الذكور، ص 170

(70) المصدر السابق، ص 173-174

(71) إريك فروم، فرويد، ص 34

(72) نقد مجتمع الذكور، ص 75

(73) إريك فروم، فرويد، ص 37-38

(74) بول روزن، فرويد وأتباعه، ص 71، 81-84

(75) نقد مجتمع الذكور، ص 172 .

(76) محاضرات جديدة في التحليل النفسي، ص 148-149 .

(77) المصدر السابق، ص 150 .

(78) المصدر السابق، ص 150-151 .

(79) المصدر السابق، ص 154 .

(80) المصدر السابق، ص 152

(81) المصدر السابق، ص 152-153

(82) المصدر السابق، ص 153- 154

(83) المصدر السابق، ص 154

(84) المصدر السابق، ص 159-160

(85) المصدر السابق، ص 157-158

(86) المصدر السابق، ص 160

(87) مذهب فرويد، ص 9

(88) إريك فروم، فرويد، ص 31

(89) إنظر، نقد مجتمع الذكور، ص 171-172، وكذلك، إريك فروم، فرويد، ص 31-32

(90) إريك فروم، فرويد، ص 33

(91) برنارد مولدوورف، الماركسية والمسائل الجنسية عند المرأة، ترجمة عبدالله اسكندر، دار ابن خلدون، بيروت، 1975، ص 13

(92) جوزيت زوين، «المرأة في ضوء نظريات التحليل النفسي»، ترجمة د. فؤاد شاهين، الفكر العربي، أيلول- كانون الأول 1980، العدد 17-18، ص48

(93) نقد مجتمع الذكور، ص 165

(94) الماركسية والمسائل الجنسية عند المرأة، ص 70-72

(95) نقد مجتمع الذكور، ص 169

(96) إريك فروم، فرويد، ص 3

(97) مسائل في مزاولة التحليل النفسي، ص 48

(98) انظر في هذا الكتاب الفصل المعنون: «هيلين دويتش: سيكولوجيا الأنوثة».

(99) انظر جوزيت زوين، «المرأة في ضوء نظريات التحليل النفسي»، ص 46 .

(100) د. عباس مكي، «المرأة وأزمة المجتمع العربي»، الفكر العربي، أيلول- كانون أول 1980، العدد 17-18، ص 1 0

(101) المصدر السابق، ص 10-11

(102) المصدر السابق، ص 11-14

(103) محاضرات جديدة في التحليل النفسي، ص 137 - 138

(104) أزمة التحليل النفسي، ص 178

(105) المصدر السابق، ص 30

- 1 -

روث ماك برونشفيك

«يجوز للحاخام مالا يجوز لغيره»

بعد أوتورانك(*)، لم «يتبنّ» فرويد إبناً آخر. وعلى الرغم من أن قائمة عام 1924 لتلاميذه الذين ظلّوا على ولائهم له لا تشتمل على أية أسماء نسائية، فإن تلاميذ فرويد من النساء صارت لهن الصدارة والأولوية منذ ذلك الحين فصاعداً. فقد وجد فرويد أن النساء أقلّ عناداً ومنافسةً. والحقيقة، أنّ تلميذات فرويد يشكلن صفّاً طويلاً من البنات بالتبني: ميرا أوبرهولزر، إيوجينيا سوكولنيكا (محلّلة أندرية جيد البولندية، التي ذكرها في «مُزيّفوا النقود»، وانتحرت بالغاز عام 1934، على الرغم من قيام فرويد نفسه بتحليلها)، هيرمين فون هوغ - هيلموت، هيلين دويتش، ماري بونابرت، روث ماك برونشفيك، جيان لامبل - دي غرو، والنساء

(*) أوتورانك (1884-1939): محلّل نفساني احتلّ مكانة استثنائية في حياة فرويد، حتى أنه كان بمثابة ابنه بالتبني. كان حقل اهتمام رانك الخاص هو الميثولوجيا (سيكولوجيا الأساطير) فضلاً عن اهتمامه بالإبداع وسيكولوجيا الفنان، ومن أعماله: «أسطورة ولادة البطل»، «رضّة الولادة»، كما تعاون مع فرنزي في كتابه «تطور التحليل النفسي». وساهم رانك في تأسيس مجلة إيماغو للتحليل النفسي. وجعله فرويد المحرِّر الأهم في الدورية الأساسية للتحليل النفسي في ألمانيا. كما كان عضواً قيادياً في اللجنة السرية التي أسسها فرويد بعد فقدانه لأدلر ويونغ. ومع ذلك فإن فرويد ورانك اختلفا لاحقاً. - م -

اللواتي قدمن إليه عن طريق صداقتهن مع ابنته آنا فرويد بالدرجة الأولى – دورثي برلنغهام، إيفا روزنفيلد، آني كاتان، وماريان كريس.

وفرويد ليس الرجل المشهور الوحيد الذي يجذب سرباً من النساء المعجبات، على الرغم من تقدمه في السن واعتلال صحته، فألبرت شفايتزر(**) ، والذي كان فرويد يكنّ له احتراماً بالغاً، فعل الشيء ذاته. إلا أن فرويد لم يُجْهِد نفسه بالتماس تزلّف هؤلاء النساء، ولا هو اختار معجباته على نحوٍ خاص. وبصورة عامة فقد قبل نساء بمثابة عضوات في الحلقة الضيقة المحيطة به دون ان يقوم بفعالية في هذا الصدد، لكن وجود ما يشبه الحاشية الملكية من حوله لم يصدمه. وهكذا، وإلى جانب انشغال فرويد الكثيف بعمله وعدوانيته تجاه العالم الخارجي، سار نوع من الاستسلام السلبي، ليس لامرأة واحدة، وإنما لمجموعة كاملة من النساء. فهو لم يكن يريد لسفاسف الحياة اليومية أن تنغّصه. وفي سنواته الأخيرة شكلّت هؤلاء النساء من حوله ما أطلق عليه البعض اسم «البطانة camarilla» فكن يحمينه عن الزائرين، ويتخذن الترتيبات الضرورية لقضاءه أيام عطلته، ويسهرن على صحته. وبهذا، فإن فرويد الذي كان متحفظاً ومنكمشاً مع النساء، ختم حياته محاطاً بهن؛ الأمر الذي يعيد إلى الأذهان أنه في طفولته كان يعيش بين خمسٍ من الأخوات.

ولقد مضت هؤلاء النساء في ترسيخ أقدامهن في مهنةٍ تبدو منفتحة بصورة ملحوظة أمام المواهب الأنثوية. وعلى الرغم من أن المكانة التي احتلتها روث ماك برونشفيك في حياة فرويد لم تتضح بعد على نحوٍ وافٍ، فإن سيرتها تلقي الضوء على العقد الأخير من عمر فرويد ونصف شيخوخته. ففي عام 1930 كانت روث ماك برونشفيك (1897 –1946)

(**) ألبرت شفايتزر (1875–1965): طبيب ولاهوتي وباحث موسيقي فرنسي. أس مشفى لامبارينه في الغابون. ومُنِح جائزة نوبل للسلام عام 1952 . – م –

هي الأثيرة لدى فرويد في فيينا دون جدال[1]. وانفتاحها عليه كان فريداً، إذ كانت تأتي لتناول العشاء في بيته، وتـزوره في الأصيـاف، وتربطهـا علاقـة طيبة بأطفاله. وكانت في الحقيقة مثل فرد مـن أفـراد عائلـة فرويـد. ومن جهة أخرى، فإن روث برونشفيك، والتي كانت آنا إبنة فرويد تحبها وتغار منها في الوقت ذاته بوصفهـا منافسـة لهـا، كـانت هـي الأشـد أهميـة بـين الأخريات من بنات فرويد بالتبني[2].

ولقد لعبـت روث مـاك برونشفيك دوراً في التوسـط بـين المحللـين الأميركيين وحلقة فرويد الضيقة في فيينا. فنظراً لكونهـا أميركيـة وصديقـة حميمة لفرويد، وعضوة في كل من جمعيتي نيويورك وفيينا للتحليل النفسـي في الوقت ذاتـه، فقـد كـانت في موقـع متميّز أهّلهـا للعمـل علـى تلطيـف التنافرات الطبيعية بين هذين العالمين المتباينين إلى حد بعيد. أما فيمـا يتعلـق بمزاولة فرويد الخاصة لمهنته، فإن روث برونشفيك كانت بمثابـة القنـاة الـتي قَدِمَ عبرها الأميركيون الأثرياء إلى فرويد؛ كمـا كـانت بوجـه عـام تُعْنـى بمرضى التحليل الأميركيين في فيينا.

بالنسبة للشخص الغريب، لم يكن واضحاً دوماً من هو «المقـرّب» من فرويد ومن هو الذي ليس كذلك، إلا أن المكانـة الرفيعـة الـتي تبوأتهـا روث ماك برونشفيك كانت معروفة تماماً لدى كل من كان علـى اتصـال بفرويد لبعض الوقت. وحتى ابنتها كانت أثيرة لدى فرويد وزوجته. ولعل الغيرة أو ربما اللباقة هي التي منعت أرنست جونز(*) من الاشـارة إلى منزلـة

(*) أرنست جونز (1879–1958): محلل نفساني بريطاني مشهور، وواحد من تلامذة فرويد المسيحيين القلائل. تعاون بصورة وثيقـة مـع فرويـد. وقـاد الجمعيـة البريطانيـة للتحليل النفسي. وكان واحداً ممن أهداهم فرويد خاتماً، على الرغم من أنه قد سُرِقَ منه لاحقاً. كتب سيرة حياة فرويد في ثلاثة مجلـدات ضخمـة، وبتعـاون وثيـق مـع آنـا ابنـة

روث برونشفيك في السيرة التي كتبها عن فرويد. فقد كانت روث واحدة من النساء اللواتي تلقين من فرويد خواتم تدل على معزّة خاصة، الأمر الذي لم يكن جونز يعرفه(**) 3.

كانت روث برونشفيك ذات سحر وذكاء، ولم يكن لديها، وهي الأميركية النمطيّة، سوى القليل من حالات الكفّ inhibition ؛ فكانت صريحة وسريعة الإنفعال، ودّية، ومسرفة في التعبير عن عاطفتها، ودافئة. كما كانت أيضاً شخصية أنيقة ذات طرائق وسلوكيات مهذبة، فضلاً عن كونها مفعمة بالحيوية وذات ذهن وقّاد. أما كامرأة، فهي لم تكن جذّابة ولا منفّرة على نحو خاص بالنسبة لفرويد. وكما كان الأمر مع مينا أخت زوجته، فإن فرويد كان يروقه أن يستخدم نساءً بمثابة دريئة لأفكاره، بيد أن روث، وبخلاف مينا، كانت تنزع لأن تكون مهيمنة ولم تكن من ذلك النمط الأمومي المسالم الذي يرضى بمجرد استيعاب أفكار فرويد. كانت مثقفة ومدقّقة، تقرأ جيداً، وواحدة من الأميركيين القلائل غير الموصومين كأميركيين في نظر فرويد(*).

فرويد وبقية أفراد عائلته. ولقد ظلّ جونز حتى نهاية حياته واحداً من القلائل بين تلامذة الذين ظلوا مخلصين لفرويد.

(**) تبعاً لجونز3، فإن النساء اللواتي تلقين خواتم من فرويد هُنَّ فقط زوجته كاترين، وآنا ابنة فرويد، ولو أندرياس - سالومي، وماري بونابرت. وفي الحقيقة، فإنّ جيزيلا فرنزي، وجيان لامبل - دي غرو، وروث ماك برونشفيك، وإديث جاكسون، وهيني فرويد، وإيفار وزنفيلد كُنَّ من بين النساء اللواتي قدّم لهن فرويد خواتماً. - بول روزن-.

(*) لم يكن فرويد معجباً بنمط الحياة الأميركية التي كان يعتبرها أمومية أكثر مما يجب، وبالتالي أكثر انفلاتاً وأقلّ ضبطاً.

ولقد أوتيت روث برونشفيك عقلاً جريئاً، وربما كان ذلك هو الأمر الحاسم بالنسبة لفرويد. فهي لم تكن ضيقة الأفق محدودة التفكير؛ بل كانت تتجاسر على ركوب المخاطر. وكان بمقدورها أن تتبنى اليوم فكرة وتتخلى عنها في اليوم التالي. في حين أن من حاؤوا إلى فرويد بمثل تلك المرونة الفكرية لم يكونوا سوى قلّة قليلة. ولقد كانت روث فخورة بعلاقتها مع فرويد، تلك العلاقة التي كانت مبعث سرورٍ وبهجة لكليهما.

كانت روث برونشفيك – ومن ثم روث بلومغارت – في الخامسة والعشرين من عمرها حين قَدِمَتْ إلى فرويد، ودخلت إلى عالمه بحماسٍ وحرارة. وأصبح فرويد بالنسبة لها الشخص المثالي، والمعلم الناصح فضلاً عن كونه بديل الأب. فأبوها، القاضي جوليان ماك، كان قانونياً لامعاً ومحسناً يهودياً ذائع الصيت. لكنها لم تكن على علاقة وثيقة به، وبدا لها فرويد بمثابة الحل النهائي. وكانت روث تعرف أن فرويد يعتبرها، بعد وفاة فرينك(*) ، صلة الوصل بينه وبين الأميركيين، وأنه يتكل عليها في تفسير أعماله على نحو صائب في الحلقات الأميركية.

ولفترة طويلة ظلت روث برونشفيك أكثر إلتصاقاً بفرويد من ابنته آنا[4]. ولقد أعطى فرويد لروث بضع صفحات من مخطوط كتابه عن الرئيس وودور ويلسون(**) ، في حين لم تقع آنا على شيء من هذا الكتاب

(*) هوارس دبل يو. فرينك (1883–1935): كان شاباً اميركياً لامعاً جداً وواعداً جداً، كما قال فرويد عنه. كما كان مُعالجاً فذاً ومحدثاً طليق اللسان. قام فرويد بتحليله مرتين بعد أن كان أ.أ.بريل قد حلله. وتم اختياره بتوجيه من فرويد رئيساً لجمعية نيويورك للتحليل النفسي. ولقد كان لفرويد وللتحليل النفسي عموماً أثراً سلبياً جداً عليه قاده إلى مايشبه الجنون.

(**) وودور ويلسون: رئيس الولايات المتحدة الأميركية، تعاون فرويد مع السفير ويليام.س. بوليت في تأليف كتاب عنه. ولم يظهر هذا الكتاب منشوراً إلا عام 1965 .

حتى عام 1965م. وكلما كان فرويد يغدق مظاهر الحفاوة والتكريم على روث ويمنحها صداقته ومودّته الحميمتين، فإنها كانت تثير الغيرة لدى كل من هو أقلّ حظوةً لديه. وبلغ الأمر إلى حدّ أن بعض زملائها من الذكور كانوا يعتبرونها بغيضة وعدوانية.

ولقد لعبت روث برونشفيك دوراً خاصاً في الإشراف على صحة فرويد. وهي التي رتّبت في عام 1931 أن يقوم بروفسور في الطب من هارفرد[5] بإجراء جراحة تجميلية خاصة لفم فرويد(**)، وذلك من خلال نفوذ والدها لدى مجلس المشرفين في هارفرد. ودفعت هي وماري بونابرت الفاتورة الباهظة، والتي أثارت امتعاض فرويد؛ فالجراحة التجميلية الجديدة لم تكن ناجحة، وفرويد كان شديد الحساسية حيال كونه مديناً بالمال لأيّ كان. ولقد رفرفت روث فوق فرويد أثناء مرضه، بل وتدخلت حتى بحميته.

عندما قَدِمَت روث إلى فيينا أول مرة كانت قد تزوجت من هيرمان بلومغارت. وبلومغارت هذا كان طالباً في مدرسة هارفرد الطبية لدى إ.ب. هولت، الذي لم يكتف بإعطاء واحد من أول المقررات الدراسية عن فرويد، وإنما ألّف واحداً من أبكر الكتب المدرسية في التحليل النفسي. أما روث، وهي الخرّيجة من كلية رادكليف، فقد مضت إلى المدرسة الطبية في توفتس. ومن خلال ليونارد شقيق هيرمان، وهو محلّل سبق له أن كان في فيينا وقام فرويد بتحليله لفترة وجيزة، رتّبت روث أمر الذهاب إلى هناك بنفسها. وكان زواجها في ذلك الحين مضطرباً على نحو واضح. بيد أنها أكملت فترة تخصصها في الطب النفساني، ومضت إلى فيينا ليس من أجل أن يساعدها ذلك على حلّ مشاكلها وحسب، وإنما

(**) من المعروف أن فرويد أصيب بسرطان في فمه وأجرى له عمليات جراحية عدّة. وكان له أثر كبير على صحته وحياته.

من أجل التدريب أيضاً. ولقد رحل بلومغارت إلى فيينا في مسعى للعودة بها. ولكنه كان قد عقد عزمه على أن يبقى طبيباً، أما هي فأرادت أن تصبح محللّة نفسانية. وتحدث بلومغارت مع فرويد ساعياً للمّ شمل زواجهما، ولكن دون طائل. وهكذا ترك بلومغارت زوجته هناك وعاد إلى أمريكا، حيث اشتهر كاختصاصي بارز في أمراض القلب.

ولقد كان في مخيّلة روث، من قبل، رجل آخر لتتخذه زوجاً، وكان فرويد يتمناه لها ويفضّله كثيراً: إنه مارك برونشفيك الذي كان يصغرها بخمس سنوات ويحبها حباً جماً. وكان قد وطد العزم على الزواج منها عندما حضر زفافها ولما يزل مراهقاً. وكان هيرمان بلومغارت ابن عم أم مارك. وهذه المجموعة من الأمريكيين كانت مرتبطة بروابط معقدة ومتشابكة، وعلى سبيل المثال فإن أم مارك برونشفيك تزوجت لاحقاً من القاضي ماك في سنواته الأخيرة.

رتّبت روث أن يقوم فرويد بتحليل مارك، فضلاً عن قيامه بتحليلها هي نفسها. وفي عام 1924 دخل مارك حلقة فرويد، وكان عمره آنذاك اثنين وعشرين عاماً. وكان فرويد آنئذ في الثامنة والستين؛ وتذكّر مارك تعليق فرويد في أول مقابلة لهما، حيث قال له فرويد: «هل يمكن لأحد أن يكون فتياً إلى هذا الحد؟» ولم يكن مارك قد حاز سوى القليل من التعليم الرسمي؛ فقد قضى سنة واحدة في أكاديمية إيكسيتر كانت هي آخر عهده بالمدارس. وعلى الرغم من أن مارك كان خجولاً وجباناً ولم تكن انفعالاته قد نضجت بعد، إلا أنه كان أعجوبة موسيقية، وأصبح لاحقاً أستاذاً للموسيقى ورئيساً لقسمه في كلية المدينة في نيويورك منذ عام 1946 وحتى عام 1965م. وإلى هذا، فإن مارك كان شخصاً صريحاً، واسع الخيال، وفناناً، ولقد تولى فرويد أمر العناية به على الفور. وبالطبع، فإن مارك لم يكن يعرف شيئاً عن العلم والطب، ولم يكن ليهتم سوى بالتأليف الموسيقي وبأصدقائه الموسيقيين في فيينا[6]. ولقد اضطلع فرويد

بتحليل مارك باعتباره صهراً مأمولاً إذا جاز التعبير؛ فروث ومارك كانا في حب وقتذاك، وشرع فرويد بترقيع مارك وإصلاحه بحيث يمكنه الزواج من روث[7].

ولقد كان زواج روث ومارك في عام 1928 حدثاً هاماً في حياة فرويد، ذلك أنه نادراً ما كان يظهر في لقاءات عامة تلك الأيام. ولقد أقيم الزفاف في ملهى المدينة، وكان فرويد أحد الشاهدين. أما الشاهد الثاني في مراسم الزواج فكان أوسكار راي، طبيب الأطفال الذي يُعنى بأحفاد فرويد والذي عُني لاحقاً بابنة روث ومارك.(سمّيت هذه الطفلة على اسم ماتيلدا، ابنة فرويد الكبرى، والصديقة الحميمة لكل من روث ومارك). أما ابنة راي، ماريان كريس، فقد كانت صديقة روث الفضلى. ولقد قام مارتن ابن فرويد، والذي كان محامياً، بصياغة وثائق الزواج. ومن بين الحضور كان كل من ديفيد شقيق مارك (والذي كان فرويد مضطلعاً بتحليله أيضاً) وشقيقته الصغرى (التي كان نونبيرغ يقوم بتحليلها).

قام فرويد بتحليل كل من روث ومارك في الوقت ذاته، فضلاً عن ديفيد شقيق مارك أيضاً. وقد شغل هؤلاء الثلاثة 60٪ من وقت فرويد ودخله التحليليين. (في تلك الأيام كان فرويد مضطلعاً وعلى نحو منتظم بحوالي خمس حالات تحليلية). بيد أن محللو اليوم لا يميلون إلى معالجة ثنائي، سواء أكان متزوجاً أم لا، الأمر الذي تعتبره «القواعد» مضاداً للاستطباب contraindicated ؛ فالمحلل يحتاج لأن يكون قادراً على التماهي(*) identify مع مريضه، الأمر الذي يصبح أكثر صعوبة لدى معالجة أشخاص وثيقي الارتباط. ولكن فرويد انتهك النهج التحليلي

(*) التماهي: Identification، عملية نفسية يتمثّل الشخص بواسطتها أحد مظاهر أو خصائص أو صفات شخص آخر، ويتحول، كلياً أو جزئياً، تبعاً لنموذجه. ويعتبر التحليل النفسي أن الشخصية تتكون وتتمايز من خلال سلسلة من التماهيات.

السويّ بروح الحاخام الذي «يجوز له مالا يجوز لغيره». فبالنسبة للحاخام، كانت الاستثناءات الخاصة متاحة و مسموحاً بها[8].

ومن جهة أخرى، فإن مارك قد رأى كثيراً من جوانب شخصية فرويد في محيطه العائلي، فهو وروث كثيراً ما كانا يقومان بالزيارات الاجتماعية لبيت فرويد. وفيما بعد عبّر مارك عن شعور مفاده أن هذه الصلة الشخصية جلبت له الكثير من الخير، ولكنها عززّت لديه أيضاً بعض السمات المرضية المعينة في الوقت ذاته. وبهذا الصدد، فإن فرويد كان يعيش في عالمين مختلفين واضعاً بينهما حاجزاً يقيه، فبعيداً عن مزاولته للمهنة لم يكن يميل لأن يكون سيكولوجياً. وفي وسطه العائلي كان منطلقاً وبعيداً عن الحذر؛ وفي مرةٍ تَبرمَ بصهره، زوج ماتيلدا، لعيشه الزائد مع روث، في وقتٍ كانت فيه روث مريضة فرويد.

و لم يكن مارك ليجرؤ على مفاتحة فرويد بما لاحظه من تباين بين سلوكه في البيت وسلوكه في المكتب، وبالأحرى، فإن مارك في ذلك الحين لم يفكّر أبداً أنه لم يكن ليجرؤ على فعل ذلك. ونضيف إلى هذا أن مارك، قبل ذهابه إلى فيينا، كان قد قرأ كتاب فرويد **الطوطم والتابو** وأعجب به، ولكنه لم يُبد اهتماماً بالطب على الرغم من اهتمامه بالأنثروبولوجيا. كما لم يفكر أبداً في أن يصبح محللاً. و لم يذهب سوى مرة أو مرتين إلى إجتماعات جمعية فيينا للتحليل النفسي، وعندما فعل صدمته الكلمات التي كانت تُقال صراحة بحضور كلا الجنسين.

ولقد تعرّف مارك أيضاً على وليم بُلليت، الذي كان فرويد آنئذ يقوم بتحليله، وعلى ماري بونابرت، التي كان فرويد أيضاً يقوم بتحليلها على نحو متقطّع دام سنوات عدّة، شأنها شأن روث؛ وفي الثلاثينات تعرّف مارك أيضاً على إديث جاكسون، وكانت مريضة أخرى لدى فرويد. وبالمناسبة، فإن مرضى فرويد كانوا، حتى الثلاثينات، يدفعون عشرين دولاراً لقاء كل ساعة تحليل؛ ومن ثم قرروا، طوعاً، رفع الأجر إلى خمسة وعشرين دولاراً.

بيد أن الحميمية في هذه العلاقات الشخصية لم تساعد مارك من الناحية العلاجية؛ كما لم تساعده حماقات فرويد. وعلى سبيل المثال، فإن فرويد، وبعد أن كان ديفيد شقيق مارك قد قضى معه بضعة أسابيع، تذمّر لدى مارك قائلاً: «ماالذي فعلتماه بي أنت وروث! إن أخاك شخص مضجر إلى أبعد حدّ!» وفي الحقيقة، فإن مارك وديفيد كانا مرعوبين من فرويد كلٌ بطريقته. فديفيد كان يظن أن فرويد متحامل عليه بتأثير مارك وروث؛ حيث طلب فرويد من ديفيد في اليوم الثاني لتحليله أن يتعلم اللغة الألمانية ويلتحق بمدرسة طبية، إذ يبدو أنه توقع منه إبداء تلك المقاومات التي يبديها المثقفون في العادة. فقد كان ديفيد وقتذاك سيكولوجي متدرّب ومن المنتظر أن يباشر عمله؛ وكان قد فُصِلَ من المدرسة الطبية في الولايات المتحدة، كما فصل لاحقاً من المدرسة الطبية في فيينا. وافترض فرويد أن ديفيد، كأميركي، يحتاج إلى شهادة طبية لتأهيله كمحلّل في الولايات المتحدة. وعندما بدأ ديفيد ممارسة التحليل في أميركا، كتب له فرويد: «إن كونك قد أصبحت محلّلاً هو العقاب العادل الذي تستحقه». وكانت هذه واحدة من دعابات فرويد، إلا أنها، بالنسبة لديفيد، كانت تعبّر أيضاً عن موقف فرويد منه.

أما مارك برونشفيك الشاب فقد جاء إلى فرويد ولديه اضطرابات حادة في الطبع(*) character . وحين تذكّر مارك تلك الأيام عبّر عن اعتقاد مفاده أن فرويد لو رفض تحليله آنذاك على أساس أن روث كانت

(*) الطبع: السمات والخصائص العقلية والسلوكية التي تميّز الفرد وتكوّن شخصية وتنسمّ عنه، وتجعله يستجيب ويتصرف في مختلف المواقف والظروف بأسلوبه الخاص الذي طُبع عليه... الخ.

مريضته، لكان ذلك راضاً[**] Traumatic له ولكن ربما كـان ذلـك هـو الأفضل على المدى البعيد. (شعر مـارك لاحقـاً وبقـوة أن فرويـد مـا كـان ينبغي أن يقوم بتحليله). والحـاصل هـو أن مـارك بـدأ، في أيلـول مـن عـام 1924، أول تحليل له من قبل فرويد، ليستمر هذا التحليـل ثـلاث سـنوات ونصف السنة. وعندها أعلن فرويد أنه قد شُفي، وبانتهـاء التحليـل تـزوج مارك من روث. وتبعاً لما يقوله مارك، فإنه لم يشف من أي عرض، علـى الرغم من تحسّن مشاعره تجاه أبيه. وعلى الرغـم مـن أن مـارك أظهـر نحـو فرويد لاحقاً بعض المشاعر السلبية، إلا أنه كان يوقـره. فهـو لم يجـد لديـه أبداً أي شيء تافه هزيل؛ وشـعر أن أخطـاءه كـانت نابعـة مـن إرادة طيبـة وأنها كانت أخطاء الودّ وعدم التحفظ.

وفي حزيران من عام 1928 غادرت روث ومارك فيينا متجهين إلى الولايات المتحدة، حيث وضعت روث طفلتها؛ وفي عـام 1929 عـادا إلى أوروبا ومكثا في فيينا حتى عام 1938م. وفي حوالي نهايـة عـام 1933 أو بداية عام 1934، أخبر مارك فرويد بأن أعراضه جميعاًلا تـزال موجـودة، وأنه الآن في حالة أكثر سوءاً، ذلك أنـه كـان الآن يحـاول أن يسـلك تبعـاً لوضعية البالغ. وما كان من فرويد الذي عكرّتـه هـذه الأنبـاء إلا أن تولّـى القيام بتحليل مارك من جديد.

خلال تحليل مارك الأول، وكان لا يزال شاباً فتياً واقعاً في حـب امرأة متزوجة، كان فرويد وروث قـد ناقشـا معـاً حالتـه بكـل تفاصيلهـا. وأصبحت روث بمثابة أم لمارك تقريباً. أما هذه المرّة فقـد أوضـح فرويـد لمارك أن روث ينبغي ألا تعرف عن تحليله كما عرفت من قبل، وأنه كان

[**] الرضّة: حدث في حياة الشخص يثير اضطراباً في التنظيم النفسي ويترك آثاراً دائمـة مولّـدة للمرض. وتتصف الصدمة بفيض من الإثـارات تكـون مفرطـة قياسـاً بقـدرة الشخص على الاحتمال وكفاءته في السيطرة عليها.

قد ارتكب خطأً فادحاً بمناقشته تحليل مارك معها في السابق. وكان فرويد طبيعياً وصريحاً في اعترافه بغلطته السابقة. (ولكنه مع مرضى آخرين – كديفيد مثلاً– لم يكن سلساً هكذا).

وسرعان ما وقع مارك في حب إحدى الصبايا. وسأل فرويد عما إذا كان من اللائق أن ينتهك قسم زواجه، وأجابه فرويد أن نعم. وفي عام 1937 انفصل مارك وروث بالطلاق، ولكنهما تزوجا ثانية خلال ستة أشهر، على الرغم من أن فرويد لم يُسَرّ لفعلهما هذا. وحتى عام 1938 كان مارك قد حقق تقدماً مهماً في معالجته. لكن فيينا كانت قد خلت في ذلك الحين من كل أصدقائه الموسيقيين. وفي تشرين الأول من عام 1937 غادر فيينا ليعود إليها في كانون الأول من العام ذاته؛ وفي النهاية رحل نهائياً في أواخر كانون الثاني من عام 1938م. أما فرويد فقد بدأ بكتابة قصة مارك المرضية في الشهر ذاته، بيد أنه توفي قبل أن يتمها[9]. (بعد بضع سنوات خضع مارك لتحليل آخر في نيويورك، واعتقد أنه كان أكثر نجاحاً بكثير من التحليلين اللذين أجراهما فرويد).

ثمة بعض التوترات التي كانت قد نشأت من قبل بين فرويد ومارك، وتركزت حول مسائل سياسية بصورة رئيسة. فعندما تعرّض الاشتراكيون في فيينا لحملة قمع عنيفة في عام 1934 خاب أمل كل من روث ومارك في فرويد. وبدا فرويد، من الناحية السياسية، وكأنه قد قلب موقفه رأساً على عقب، وراح يجادل مؤيداً دولفوس(*) وداعماً له، على الرغم من أن حكم هذا الأخير كان حكماً سلطوياً. كان موت فرويد قد أضحى وشيكاً، وأراد أن يبقى في فيينا مهما كلّف الأمر. وفي شباط من عام 1934 اتفق مارك وفرويد أن يفترقا لفترة، نظراً لسخرية مارك من

(*) أنغلبرت دولفوس (1892–1934): سياسي نمساوي، رئيس الوزراء من عام 1932 وحتى عام 1934 . اغتاله بعض النازيين النمساويين.

موقف فرويد السياسي. وكانت النمسا آنذاك في ظل حكومة معادية للفكر، وتمثل القوى الاجتماعية التي لم تكن لتحظى باعتراف فرويد وتقديره، في حين كان الاشتراكيون أصدقاء فرويد. بيد أن فرويد لم يستطع أن يعالج هذه القضية في التحليل، ربما بسبب شعوره بالإثم.

ولقد ألح مارك وروث على فرويد أكثر من مرة لكي يغادر فيينا، لكن فرويد كان يستاء لهذا الضغط، نظراً لاعتقاده أن لا أساس لمخاوفهما. وفي مطلع عام 1932 كتب في إحدى رسائله: «من الصعب أن أصدق أن ثمة مجازفة تنطوي على خطر شخصي [في حال البقاء]، كما يقول لي مارك وروث دون كلل أبداً. إنني مغمور على نحو ملائم في النمسا؛ وأفضل المطلّعين لا يعرفون سوى أن أية معالجة سيئة أقوم بها من شأنها أن تثير جلبة عظيمة في الخارج»[10]. أما الآخرون في جماعة التحليل النفسي الفيينية فقد وجدوا صعوبة وحرجاً في المغادرة لأنهم غالباً ما عارضوا فرويد بهذا الشأن، وبدا لهم الأمر كما لو أنهم يهجرون سفينة غارقة.

وفي الوقت الذي سيطر فيه النازيون على النمسا، كانت روث قد وضعت بصمتها الخاصة في التحليل النفسي، وكان ذلك وإلى حد بعيد بفضل رعاية فرويد لها. ذلك أنه وهبها هبة شخصية عظيمة، حيث أسند إليها الرجل- الذئب، مريضه السابق. وهو بفعله هذا، كان يمتدحها أرفع المديح. وعلى أية حال، فإن روث في معالجتها للحالة قد أغفلت مشاعر التحويل Transference Feelings التي لديها تجاه الرجل- الذئب؛ فنظراً لاعتقادها أن «هذا المريض ليس له إلا فرويد»، اعتبرت أن دورها كمعالجة كان «من الممكن إهماله تقريباً؛ حيث عملت كمجرد وسيط بين المريض وفرويد»[11].

إن هذه الحالة والمقالة التي كتبتها عنها شكّلت نقلة هائلة بالنسبة لروث من حيث تقديرها لذاتها. وكانت قد كتبت هذه المقالة بتعاون وثيق مع فرويد، إلا أن المرء يأمل أن فرويد ما كان ليصادق على ذلك

الضرب من اللغو الذي ختمت به عرضها. فقد كتبت تقول عن مستقبل صحة الرجل- الذئب: «إنه متوقف وإلى حد بعيد على درجة الإعلاء(**) sublimation التي يثبت أنه قادر عليها»[12].

كانت روث تكتشف نفسها بحضور فرويد. أما بدون فرويد، فإن قلّة قليلة وحسب من أتباعه هي التي كانت لتحظى بأية أهمية في تاريخ الأفكار. إن ماألهمه فرويد لديهم وشجعهم عليه قد فاق بكثير كل ما كانوا قد حققوه من قبل.

(**) الإعلاء (أو التسامي، أو التصعيد): عملية افترضها فرويد لتبيان النشاطات الإنسانية التي لا صلة ظاهرية لها مع الجنسية، ولكنها تستقي مددها من قوة النزوة الجنسية. ولقد أطلق فرويد أساساً وصف الإعلاء على النشاط الفني والاستقصاء والذهني.

وتطلق تسمية الإعلاء على النزوة بمقدار تحولها إلى هدف جديد غير جنسي، حيث تستهدف موضوعات ذات قيمة اجتماعية.

المراجع

(1) مقابلة مع إديث جاكسون وإيرماريتا بوتنام، على سبيل المثال.

(2) رسالة من ماكس شور إلى أرنست جونز، 30 أيلول 1955، (محفوظات جونز).

(3) جونز، حياة وأعمال سيغموند فرويد، (نيويورك: Basic Books ؛ 1957)، المجلد III ، ص 18 .

(4) مقابلة مع أوليفر فرويد.

(5) جونز، سيغموند فرويد، المجلد3، ص167

(6) انظر، بخصوص نعيه، النيويورك تايمز، 28 أيار 1971، ص32

(7) مقابلة مع مارك برونشفيك، 25 كانون الثاني 1966

(8) رسالة من ماكس شور إلى أرنست جونز، 30 أيلول 1955

(9) «إنشطار الأنا في عمليةالدفاع»، الطبعة المعيارية لأعمال سيغموند فرويد السيكولوجية الكاملة، تحرير جيمس ستراتشي (لندن: هوغارث؛ 1953-1974)، المجلد 23، ص 275-278 ظن جونز أن المريض كان بلليت، لكن روث ومارك برونشفيك كانا يعرفان حقيقة الأمر. جونز، سيغموند فرويد، المجلد 3، ص239

(10) أورده جونز، سيغموند فرويد، المجلد 3، ص 456

(11) الرجل -الذئب، تحرير موريل غاردنر (نيويورك، Basic Books ؛ 1971) ص306

(12) المصدر السابق، ص307

- 2 -

روث ماك برونشفيك

«الاعتماد والإدمان»

تبيّن فرويد لدى روث برونشفيك مقدرةً سيكولوجيةً فطرية. فقد تميّزت بموهبة «شمّ» اللاوعي بالحدس والبديهة[1] . أما في تقنيتها كمحللة نفسانية فلم تكن تقليدية أبداً؛ حيث كانت، ضمن الحدود الأرثوذكسية، محللةً نشطةً ومجّددةً نوعاً ما، على الرغم من أنه قد يبدو مدهشاً أنها لم تكن أكثر نشاطاً وتجديداً من ذلك حين نأخذ في الحسبان أن فرويد هو الذي قام بتحليلها. وإلى هذا، فإن روث كانت، مثل فرويد، مهتمةً بعلم التحليل النفسي أكثر من اهتمامها بالعلاج لمجرد العلاج. أما مرضاها فقد كانوا بمعظمهم من الهولنديين، وذلك ربما لأن فرويد كان يرسل إليها مرضى هولنديين في البداية. (كان التحليل النفسي مُقَدّراً حقّ قدره وعلى نحو باكر تماماً في هولندا[2] ؛ كما كان مزدهراً هناك، ربما لأن البلاد الواطئة هي بلاد الطبقة الوسطى أساساً. وفي الستينات من هذا القرن كانت هذه ا لبلاد هي الوحيدة التي تذمّر فيها المحللون من وجود عدد كبير جداً من الطلاب قيد التدريب التحليلي).

ولم تكن تأشيرة روث تسمح لها بالعمل، وشكّلت الشرطة مصدر إزعاج لها في هذا الصدد. بيد أن مارتن فرويد أوضح للسلطات، وعلى نحو منحاز لروث، أنها كانت تعمل لمقاصد تدريبية وحسب، وتحت الإشراف. وفيما عدا ذلك، فإن آل برونشفيك كانوا يمتلكون في فيينا سيارة وبيتاً كبيراً فيه خدم. وكانوا في أعين بقية جماعة التحليل النفسي

يعيشون مثل [1]أصحاب الملايين.

ولقد أعطى فرويد لـروث دون حـدود، أفكـاراً وكذلـك مرضـى؛ فبخـلاف تلاميـذه الأوائـل مـن الذكـور، لم تكـن روث لتشـكّل مصـدراً لمنافسته أبداً. كما أُعجب فرويد باهتمامهـا بمرضى الذهـان Psychotics . ولقد خصّت روث زملاءها في جمعية فيينا بحلقة دراسية في الذهـان؛ و لم تكـن هـذه الحلقـة جـزءاً مـن منهـاج الجمعيـة النظـامي، وإنمـا حلقـة دراسـية لـ«المتخرّجين»، وكان بول فيدين[*] وماري بونابرت، من بين آخرين، قد حضرا جلسات في بيتها في فيينا. والمدهـش هـو ان فرويـد قـد شـجع عملها بينما ظـلّ صامتـاً حيـال عمـل فيديرن.صحيـح أن أفكـارا فيديرن كانت مشوشة؛ ولكن عاطفة فرويد تجاه روث هـي الـتي كسبت الجولـة، على الرغم من شك فرويد في مشروعية استخدام التحليـل النفسي لمعالجة الأمراض الذهانية.

ولقد تميّزت روث برونشفيك بالمقدرة على دمج مكتشفاتها ضمـن إطار مكتشفات فرويد. كما كـانت تمتلـك موهبـة المنـاورة والتعـامل مـع مفاهيم فرويد النظرية، الأمر الذي مكّنهـا مـن استخدام هـذه المفـاهيم في توليد أفكار جديـدة خاصـة بهـا. فقـد شـددت روث علـى أهميـة الأم في تطور الطفل، ولكنها فعلت ذلك بلباقة شديدة بحيث لم يَبْدُ لفرويـد علـى أنـه ثـورة ضـد أفكـاره الأساسية. وبعـد وفـاة فرويـد، فـإن واحـداً مـن

---

[*] فول فيدين (1871–1950) كان واحداً من أقدم مريدي فرويدي، حيث قَدِمَ إلى حلقته منذ عام 1903 . عهد إليه فرويد بمنصب نائب رئيس جمعية فيينا للتحليل النفسي بعد إصابته بالسرطان عام 1923 . ومع ذلك فإن فيدرن لم يكن المفضّل لـدى فرويـد ولم يكن يثق بقدراته كل الثقة. ويبقى أن فيديـرن لعـب دوراً بـارزاً في تـاريخ التحليـل النفسي.

الاتجاهات الرئيسة في التحليل النفسي كان ذلك الاتجاه الذي اهتم بحالات «ترجع فيها السببية الإمراضية aetiology إلى ماوراء عقدة أوديب، وتشتمل على تشوّه يحصل في مرحلة التبعية المطلقة»[3] . ذلك أن فرويد كان في الأصل قد أغفل الدور غير الأوديبي لرابطة الأم- الطفل، وهذا ماكان يونغ قد أشار إليه قبل زمن طويل. أما روث فقد عبّرت عن اكتشافاتها بحذر بالغ.

وفي حين كان رانك قد بنى نظريةً منافسةً حول فكرته الجديدة التي تلحّ على أهمية العوامل غير الأوديبية، فإن روث شدّدت على أن هنالك أطواراً «قبل أوديبية» في تطور الطفل. وعبّرت عن ذلك باحتراس إذ قالت: «على حدّ علمي فإن التعبير "قبل أوديبي" قد استخدمه فرويد أول مرة عام 1931 ... واستخدمته كاتبة هذه السطور عام 1929 ...»[4] ومع أن نظريات روث قد حظيت في السنوات اللاحقة بتطبيقات على الرجال أيضاً، إلا أنها كانت قد اقتصرت في الأصل على سيكولوجيا النساء. وهكذا فإن روث كانت تعني بتعبير «قبل أوديبي» علاقة انفعالية باكرة سابقة على النزاع المثّلث الذي تتوق فيه الفتاة الصغيرة إلى حب أبيها وتشعر بمنافسة تجاه أمها، حيث تشتمل هذه "الوضعية" "Position" الباكرة، والتي تأتي قبل عقدة أوديب، على حب الفتاة الصغيرة لأمها وتماهيها معها. وهو تورّط انفعالي أكثر قدماً وبدائية بكثير من التورّط الأوديبي، وقد افترضت روث أنه يكمن في جذر المشاكل الذهانية التي كانت تدرسها.

ثمة إذاً ظاهرات كان قد تمّ تجاهلها وبحثت روث برونشفيك في دمجها ضمن نظرية الليبيدو الفرويدية، وهي ظاهرات كان قد ألحّ عليها تلاميذ فرويد المرتدّون؛ وهكذا دفع فرويد أتاوةً باهظة لقاء عمل روث. فمن خلال وضعها لنظرياتها ضمن مجال سيكولوجيا النساء في الأصل (حيث اعترف فرويد بأنه لم يقو على المضيّ بعيداً) ومن خلال إيقاعها

على بُرج(*) أوديب بحد ذاته (سائرةً على هدى فكرة فرويد التي مفادها أن هذا البرج يشكّل «ماقبل التاريخ»)، تمكنت روث من إعادة التأكيد على أهمية مفاهيم فرويد النظرية ومن توسيعها في الوقت ذاته.

ومنذ أوائل عام 1925، كان فرويد قد شنّ هجوماً على هذا الانحراف في التفكير التحليلي النفسي مدّعياً أن وجود طور في الحياة الانفعالية سابق على عقدة أوديب يعني أن هذه العقدة، لدى البنات، «هي تكوين ثانوي»[5] . ولكن كلما كان عمل روث يكتسي أكثر بنظرية العوامل قبل الأوديبية، كلما كانت عقدة أوديب تصبح أكثر أهمية، ذلك أنها كانت عندئذ تمتلك تاريخاً تطورياً خاصاً بها. وهكذا فإن فرويد كتب في عام 1931: «إن نفاذ بصرنا إلى هذا الطور القبل أوديبي الباكر لدى البنات يقع علينا وقع الشيء المدهش، شأنه شأن اكتشاف الحضارة المينوية- المسينية خلف حضارة الإغريق، في حقل آخر»[6].

ولقد أقر فرويد عمل روث برونشفيك على النماذج القبل أوديبية لدى النساء، وقال إنها «كانت تدرس هذه المشاكل في الوقت ذاته الذي كنت أدرسها فيه...»[7]. وبعد وفاتها قال نونبرغ إنها «في مقالتها فائقة الأهمية عن الطور قبل الأوديبي من تطور الليبيدو... أكدت أنها لم تستطع أن تميّز بدقة بين أفكار فرويد وأفكارها الخاصة»[8]؛ وبما أننا لا نجد هذا التأكيد في مقالة روث، فربما كان نونبرغ قد سمع منها مثل هذا التعليق، خاصةً وأنه متّسق مع تعاونها الوثيق مع فرويد. كما سلّم فرويد بأن المحللات النساء قد تمكّن من اكتشاف هذا الارتباط الباكر بالأم والذي لم يكن هو نفسه قادراً على اكتشافه «لأن النساء اللواتي كان يقوم بتحليلهن كنّ قادرات على التشبّث بكل إرتباط بالأب يؤمن لهنّ ملجأً من

(*) بُرْج، أو كوكبة، Constellation: عدد من النجوم المتجمّعة. والمقصود هنا هو أطراف عقدة أوديب الثلاثة المتعالقة والمترابطة.

الطور الباكر الذي هو موضع بحث»[9]. إلا أن فرويد ظلّ يؤكد على أن «طور الارتباط المقتصر على الأم، والذي يمكن أن ندعوه بالطور قبل الأوديبي، يمتلك لدى النساء أهمية أكبر بكثير من التي يمكن له أن يحظى بها لدى الرجال»[10].

وكان ثمة اعتقاد بأن التثبيت(*) Fixation قبل الأوديبي لدى المرأة من شأنه أن يؤدي إلى نقص الليبيدو تجاه الرجال، في حين أن الرابطة قبل الأوديبية لدى الرجال تعني ارتباطاً سلبياً منفعلاً مع الأب. وفي هذا المجال، اعترف فرويد بأسبقية روث، فقد كتب في عام 1932 أنها كانت «أول من وصف حالة عصاب كانت ترجع إلى تثبيت على المرحلة قبل الأوديبية لم يصل إلى الموقف الأوديبي مطلقاً»[11].

لقد عملت روث برونشفيك بكدّ كطبيبة ممارسة، كما ساهمت أيضاً في سياسة الحركة التحليلية النفسية على كلا جانبي الأطلسي. وعلى سبيل المثال، فقد ادّعى جونز أنهما وقفت في صفّ زيلبورغ ضد بريل؛ وظنّ بريل أنها كانت تعمل ضدّ شيلدر، إلى أن استقال من جمعية نيويورك للتحليل النفسي[12]. وفي فيينا، كانت روث قيد تحليل متواصل إلى هذا الحد أو ذاك يقوم به فرويد كلما استطاع أن يجد فسحة لذلك. وكان كارل مينينجر تلميذها الأميركي الذائع الصيت؛ كما قامت أيضاً بتحليل روبرت فليس، ابن صديق فرويد السابق.

وعلى الرغم من إنتاجها العلمي وعملها الممتاز كمحللة، إلا أن صحة روث برونشفيك لم تكن على ما يرام. فكانت تنزع إلى قلب المشاكل الانفعالية وتحويلها إلى أعراض جسدية، ولم يستطعْ أطباؤها

(*) التثبيت، أو التشبّث: هو واقعة تعلّق الليبيدو المفرط بأشخاص معينين أو صور هوامية معينة وإعادة انتاج أسلوب ما من الإشباع، والبقاء في تنظيمه تبعاً للبنية المميزة لإحدى مراحل تطور الليبيدو دون التوصل إلى المرحلة الأكثر تطوراً.

تشخيص أمراضها علـى أنها أمراض عضوية بصورة لا لبس فيها. وفي إحدى المرات وجدوا كمية كبيرة من الزرنيخ في دمها؛ ولم يكن واضحاً ما إذا كانت قد تسممت عن طريق الطعام والطبخ أو من ورق الجدران، لكنها غيّرت ورق الجدران في حجراتها. (كان جيمس جاكسون بوتنام قد صنّف ورق الجدران كعامل شائع من عوامل التسمم بالزرنيخ)[13].

وكانت روث تستعمل المورفين للتغلّب على الألم الفظيع الذي ظنّت أنه نوبات ألمية في الحويصل الصفراوي. ومع أن الأطباء كانوا يجيئون ويمضون على نحو متواصل، فإن قلّة قليلة من أفراد حلقة فرويد الضيقة هم الذين عرفوا أنها كانت مصابة بأمراض مبهمة. وأجريت لروث عملية جراحية، لكنها لم تنجح، ربما لأن المشكلة لديها كانت أكبر من مشكلة حويصل صفراوي. واعتقد طبيبها، ماكس شور، أنها لم تكن مصابة بالحصيات الصفراوية، بينما خالفه الرأي آخرون. (كانت روث قد قامت بتحليل كل من شور وزوجته، مكررةً الحالة التي وقعت فيها مع فرويد هي ومارك). كما كانت تعاني أيضاً من التهاب الأعصاب. وباعتبارها طبيبة فقد وصفت لنفسها العلاج- حيث راحت تتناول المنومات والمسكّنات القوية - وفي عام 1933 و 1934 انزلقت بالتدريج لتقع في حالة دوائية خطيرة. ونظراً لما ألمّ بها من تعاسة واضطرابات عضوية، فإنها أضحَتْ مدمنة في عام 1937 أو نحوه. وفي تلك الأيام كانت معظم حالات الإدمان ناجمة عن استخدام العقاقير لمقاصد طبية.

وفي فترة من الفترات انقطعت روث عن اعتمادها على العقاقير. وعملاً بنصيحة فرويد، فقد دخلت ذات مرة، وهي ماتزال في التحليل، إلى أحد المشافي في مسعى للتغلّب على الإدمان. بيد أن روث لم تكن مدمنة على العقاقير وحسب؛ ذلك أن شخصيتها كانت من ذلك النوع الذي يتشبّث ويلتصق، الأمر الذي يفسّر جزئياً سبب نفور فرويد منها في النهاية. وإنها لنهاية مأساوية تلك التي انتهت حياتها بها؛ حيث لم تستطع،

رغم محاولتها، أن ترتفع فوق مرض وصفـه المحللون بأنـه قبـل أوديبي مـن حيث طبيعته.

في فيينا، وعندما كـان فرويـد لايزال علـى قيـد الحيـاة، لم تكـن روث لتبدو مضطربة أو مريضـة في الظاهر. وواظبـت علـى تأديـة عملهـا بصورة نشيطة حتى آخر جزء من حياتهـا، حين أصبح اعتمادهـا علـى العقاقير مفرطاً. وحتى وفاتها المفاجئة في أوائل عـام 1946، كـانت روث تعتبر محللة نفسـانية قيادية، وذات حظوة لـدى فرويـد في سـنوات حياتـه الأخيرة.

وبؤس روث الخاص له أهميتـه الـتي يستمدّها مـن صلتهـا الوثيقـة بفرويد. ففرويد لم يكن ليطيق إدمـان العقاقـير خاصـةً. وفي أواخـر أيامـه، وعلى الرغم من الألم الناجم عن إصابتـه بالسرطان، كـان فرويـد يرفـض حتى أن يتناول الاسبرين. فلم يكن ليقبل باستخدام المسكنات بغية تخفيـف الألم، أو أن يفقد رشده، أو أن يتيح لنفسه أن يصبح معتمداً علـى العقاقير بتلك الطريقة. وكان فرويد فخوراً بقدرته على التفوق علـى نفسـه. ولـذا فإن اعتماد روث علىالعقاقير، ومن ثـم إدمانهـا عليهـا وخضوعهـا لهـا في النهاية، كانا إهانة بالغة لحساسية فرويد المفرطة بهذا الصدد. وعلـى الرغـم من أن فرويد نفسه لم يتخلّص أبداً من إدمانه الخـاص علـى النيكوتين، إلا أنه كافح سنواتٍ ضـد ماأسمـاه «عـادتي أو نقيصـتي». (والمدهـش هـو أن فرويد لم يردّ مشكلة التدخين لديه إلى رابطـة قبـل أوديبيـة مـع أمـه، وإنمـا أشار في أواخر عام 1929 إلى تماهية مع أبيه باعتباره «مدخناً كثيفاً»[14]).
ولقد أدرك فرويد أن إدمان روث هو مرض ينبغي تفهمّه ومعالجته بدلاً من شجبه وإدانته، على الرغم من أن هـذه المشـاكل لم تكـن مستسـاغة لديـه.
ومن جهتها، فإن روث لم يكن بمقدورها أن تلفق أنّ إدمانها ناجم عن تحدّ

لاواع لفرويد، كتعبير عن تجاذبها الوجداني (*) ambivalence ؛ فقد كان لديها على الدوام شيء ما من هذه الإشكالية. ومن ثم، فإن فرويد كان يعتبر أية مشكلة إدمان مشكلة سيئة على نحو خاص؛ وكان ذلك واحداً من الأسباب الرئيسة لخيبة أمله فيها.

عند أول قدوم روث إلى فيينا في عام 1922، لم يكن التدريب ليتعدّى خضوع المتدّرب للتحليل، فإذا ما تمّ هذا الأخير على يد فرويد نفسه فإن ذلك يكون مثالياً. وهكذا فإن قدراً كبيراً من الادعاء يلفّ شخصيات التحليل النفسي الأولى. فمن وجهة نظر معاصرة، قد يبدو التدريب في تلك الأيام وكأنه مجرد إيماء؛ وقد قيل أنّ معظم " أنصار فرويد الأوائل لم يكن لديهم سوى خبرة فكرية محضة في التحليل.. وإنهم عندما كانوا يخضعون للتحليل،كانت معالجتهم أقصر بكثير وأشد سطحية من أن تودي إلى أية نتيجة دائمة "[15]. كما أن ثمة إشارة إلى أن مشاكلهم كانت لتقلّ لو أنهم خضعوا لتحليلٍ وافٍ.

وعلى أية حال، وبالنسبة لروث، فإن تحليلها الذي اضطلع به فرويد امتد طويلاً وطويلاً، واستمر مع بعض التقطعات، من عام 1922 إلى عام 1938، وإن مثل هذا التحليل المديد هو إدمان بحد ذاته، إدمان يعيد إلى الأذهان ما كان فرويد من قبل قد خشي حدوثه نتيجة لاستخدام تقنية التنويم[16].

وإذاً، فقد ساعدت معالجة فرويد لروث على إحداث الاعتماد الحقيقي والذي كان يتعين أن تكون إزالته مهمةيقوم بها التحليل. والسمة الرئيسة في مرض روث المحزن ليست أن تحليلها على يد فرويد لم يَقِهَا من اضطراب منهك، وإنما أنها بقدر ما كان فرويد يعالجها بقدر ماكانا

(*) التجاذب الوجداني: هو تلازم وجود ميول ومواقف ومشاعر متعارضة في العلاقة مع نفس الموضوع وأبرز نموذج لها الحب والحقد.

يصبحان أقرب وأوثق صلةً وبقدر ما كانت مساعدته لها في التغلب على الاعتماد تصبح أضعف.

كان فرويد يحب العمل مع روث حباً جماً، وأضحت مشاعره نحوها عائقاً في طريق جهودهما المبذولة للارتفاع فوق منغصاتها. أما روث فكانت مستمتعة بكونها معتمدة عليه، الأمرالذي كان يقتضي معالجته كمشكلة لا الانغماس فيه كنوع من اللذة[17]. ولعله كان يتعين على فرويد أن يرسلها إلى محلل آخر. كما كان يتعين على روث أن تذهب إلى محلل آخر[18]، بيد أنها لم تفعل ذلك إلا عند عودتها إلى أمريكا حيث ذهبت إلى نونبرغ قبل وفاتها مباشرة. بيد أنه ليس بعيداً عن فرويد أن يكون قد أراد الاحتفاظ بروث لنفسه؛ فتعلقهما المتبادل وتفاعلهما الفكري أبقاهما معاً.

يمكن للعبقرية أن تحوزعلى سلطة الإغواء. وبالنسبة للكثيرين كان فرويد شخصاً لا تمكن مقاومته، حتى لو لم يقم عامداً بأي شيء لإثارة تزلفهم. وعلى الرغم من أن فرويد كان ينفر من الافتتان، إلا أنه أثاره إلى حد استثنائي. ولقد انطلق فرويد ليحرر، لكنه استعبد في بعض الأحيان. وإن المرضى ذوي القلب الرقيق، والدفاعات الذاتية الضعيفة، هم أولئك الذي انتهوا نتيجة لتماسهم مع فرويد. وإذا لم يكن المرء متفقاً مع ذاك المحلل النفساني الذي أشار إلى أن فرويد قد "دمّر" روث، فذلك لأنها هي نفسها كانت مفتقرة إلى النرجسيةالأساسية التي تمكنّها من الانسحاب بعيداً عن فرويد ووقاية نفسها.

وكما عبّر واحد من الأصدقاء بصورة بليغة ومفعمة بالحيوية، فإن روث كانت على الدوام تنقر الطبل نقراً شديداً قرب البروفسور. ومثل غيرها، كانت تنتظر من فرويد مالا يقوى كائن بشري على تقديمه. ومن ثم فإن فرويد لعب في حياتها دوراً مركزياً وأحدث لديهما تحويلاً هائلاً. ولقد عالج فرويد روث في البداية على نحو لصيق جداً، ومن ثم حاول أن

يجعل العلاقة أكثر بعداً[19]. ولكن روث، إلى جانب اعتمادها، كانت تسنزع لأن تكون مهيمنة ومستبدة، ولقد تذكّر مارك برونشفيك لاحقاً مراقبته لحديث بين روث وفرويد على شرفتهما حيث كانت روث تتكلم بثقة وبطريقة دكتاتورية؛ ومع أن مارك لم يستطع سماع ما كان يقال إلا أنه رأى الجمدة على وجه فرويد.

كانت خيبة أمل فرويد بروث تتنامى بتنامي مرضه وضعفه، ويتزايد قسوتها وغيرتها تجاه دور آنا في رعاية والدها: فانطلاقاً من الحسد، تصرفت روث على نحو عدواني. وعلى الرغم من أن بعض المعارف ممن كانوا على صلة وثيقة بكل من فرويد وروث لا يعرفون ذلك، إلا أن فرويد تحرر من أوهامه حيالها. وعلى الرغم من سنوات التحليل معه، فإن روث أضحت أكثر إدماناً من ذي قبل. وفي عام 1937، حين اشتدّ مرض فرويد، فإنه كان يعاني من إزعاج أكبر لدى تحكّمه بنزقه تجاهها. بيد أنها، في الظاهر، ظلت تبدو كواحدة من الأشخاص الأشد حظوة وحميمية لديه.

وكما تدهورت صحة فرويد كذلك فعلت علاقتهما. ومع أنها زارته في لندن في صيف عام 1938، وشعرت بنشوة لما كسبته من جرّاء معاودته تحليلها، إلا أن فرويد، ومع شتاء عام 1939، وهو آخر شتاء من عمره، عاد إلى صدّها والتملّص منها. وأرادت هي أن تراه ثانية, لكنه لم يُرد أن تأتي كي ترقبه وهو يموت، وهكذا أنبّها على ما اعتقد أنه «الحاجة الأبدية لدى الأنثى» في أن ترى والدها وهو يموت. وفكرة فرويد التي مفادها أن الأهتمام المفرط قد يخفي شعوراً معاكساً كانت فكرة مشروعة تماماً، كما أن جميع مشاكله كانت متفاقمة وكان لاذعاً ومريراً. وفي كانون الثاني من عام 1939 لم يعد فرويد هو نفسه، وبدأ يسلك تجاهها على نحو غريب; وعلى الرغم من خيبة أمله بكل من مارك وروث، إلا أنه ما كان ليعبر عن دخيلته هكذا لو أن صحته كانت أفضل. ففي عيد

ميلاده السبعين أهداه مارك المجلد الأول من سلسلة كيمبردج عن التاريخ القديم، وبما أنهما كانا منخرطين في نقاش حول الأركيولوجيا، فإن مارك كان يقدّم لفرويد نسخة من كل مجلد يتمّ نشره من هذه السلسلة؛ ولكن عندما ظهر المجلد الأخير في عام 1938 فإن فرويد طلبه لنفسه ومن ثم أراد أن يعرف من سيدفع. ذلك أن مناطق من شخصية فرويد كانت مقتصرة على ألمه وإدراكه لدنو الأجل. ولقد قال مرّة عن ابنة روث، والتي كان مفتوناً بها: «أعتقد أنها تستنطقني»[20].

حين هاجر فرويد من فيينا إلى لندن لم تسافر روث معه. فأبوها كان مريضاً في أميركا، وكثيراً ما كان مارك يكالمها هاتفياً عبر الأطلسي؛ حيث كانت أمه في فيينا مع روث وابنتهما. وعندما تأثّر بصر والدها وذاكرته من جرّاء مرضه، فإنه احتاج إلى ابنته الوحيدة. كما كان النازيون على وشك التحرك بإتجاه النمسا. وكان لدى فرويد من يرعاه. وهكذا عادت إلى الولايات المتحدة كارهة ومضطرة.

وعلى أية حال، فإن روث بعيداً عن فيينا كانت تتمزق إرباً شيئاً فشيئاً. وإذا ما أخذنا في الحسبان نزوعها إلى المُراق(*) Hypochondria، فإننا لا يمكن إلا أن نتساءل بدهشة إن لم تكن أمراضها قد تفاقمت، شأن أمراض الرجل - الذئب في العشرينات، من جرّاء تحويل تجاه فرويد لم يلق حلاً له. وهكذا راحت تعاني من آلام رهيبة في عينيها، وطفقت تصف لنفسها العقاقير. وعلى الرغم من مشاكلها فإن فرويد واظب على إرسال المرضى إليها، وكذلك فعل المحللون الآخرون؛ ففي الظاهر، وحتى نهاية حياتها تقريباً، لم يكن ثمة أي تدهور صريح في قدرتها على التحليل. ولقد

(*) المراق أو توهّم المرض، حالة غير سوية يزيد فيها انتباه الشخص إلى نفسه وصحته بصورة مرضيّة، مع سوء تأويل لأتفه الأعراض، فيتوهم أنه مصاب بأمراض مختلفة دون أن يكون به مرض حقيقي.

حصلت لكل أصدقائها المقرّبين على تصاريح خطية تمكنهم من الذهاب إلى أميركا مباشرة إن هم أرادوا ذلك.

وحين عادت روث إلى نيويورك من رحلتها الأخيرة إلى لندن، كان فرويد يحتضر. وفي أميركا وصلت روث إلى أسوأ مرحلة من مراحل إدمانها على العقاقير. وفي عام 1940 توفيت والدتها، وبعد ثلاث سنوات توفي والدها. ولأن علاقتها بمارك كانت قد ساءت كثيراً، فقد ناءت روث تحت وطأة شدّة stress قاسية. والمفارقة هي أنها كانت حتى آخر سنتين من زواجهما، وعلى الرغم من مشاكلها الخاصة، ضد تعاطي مارك للشراب، الأمر الذي كان يضطره لأن يشرب خفيةً، على الرغم من أنه لم يكن يُسْرِف في ذلك كثيراً حسب المقاييس الأميركية. ولقد تشبثت روث بمارك كما فعلت مع كل الذين ارتبطت بهم. ويبقى أنها كانت بين المحللين أول من احتفى بأوليفر ابن فرويد حين وصل إلى الولايات المتحدة مع زوجته عام 1943م. وبعد ذلك بسنتين، طلّقها مارك، ومضت إلى نونبرغ طلباً لتحليل آخر. وكما قال مارك لاحقاً، فإن «كل ما أحببته بدا منهاراً، ولذا فقد انهارت هي أيضاً».

وحوالي نهاية حياتها، تطور لدى روث إحصار(**) block حقيقي، هي التي كان لديها على الدوام أنواع معينة من الكفّ فاعلة وشغالة. فهي لم تنشر أبداً بالقدر الذي ظنّ فرويد أو ظنّت هي أنها ستنشر به، الأمر الذي يفسّر جزئياً شهرتها الضئيلة لدى جمهور القرّاء اليوم. ومؤخراً ربط أحد الأطباء النفسانيين الإحصاءات الإبداعية بإشكالية الهوية حيث قال: «إن درجة ما من الإحساس بالهوية الشخصية المستقلة تماماً عن العمل هي ضرورية من أجل إنجاز هذا الأخير على نحو فعّال»[21]. ولعل فرويد قد أفرط في تقديره لمواهبها؛ بيد أن هذا قد نجم، إن

(**) الإحصار: الإعاقة أو الحجز أو الانسداد.

كان صحيحاً، عن جاذبيتها الهائلة التي مارستها عليه، والتي تحتاج بحدّ ذاتها إلى بعض التفسير. فعلى الرغم من حساسية فرويد الزائدة حيال الانتحال بالنسبة لتلاميذه الآخرين، إلا أنه في مرّة على الأقل أصّر على أن يقدّم لروث واحدة من أفكاره بمثابة «هدية»، إذ قال إنه قدّم لها تبصّراً مفاده أن علاقة الطفل بثدي أمه هي ذات أهمية استثنائية بالنسبة لتطور الحسّ الجمالي(***)[22]. ولكن روث لم تفلح في تتبع إيحاء فرويد الذي عبّر في واحدة من أخريات مقالاته عن أمله في أن تنشر مزيداً من المادة المتعلّقة بالرجل الذئب، والذي خضع لعلاجها مرة أخرى[23].

ليس بمقدورنا أن نتحقق مما إذا كانت روث قد اعتبرت انفصالها عن فرويد بمثابة نبذٍ لها، الأمر الذي كان كفيلاً بأن يعزز احتياجها إليه. وفي الحقيقة، فإن فرويد كان قد ملك عليها حياتها في أواخر سني عمره. وهي لم تفقد بموته ذاك الرجل الذي احترمته طوال عمرها وحسب، وإنما مصدراً للإرضاء فيما يتعلّق بتقديرها لذاتها أيضاً. ولعلها قد تحققت آنئذ من أنها لم تكن مبدعة بالقدر الذي ظنته من قبل. وأما موتها المبكر فقد تكفل بألا تنشر إلا أقل بكثير مما نشر بعض معاصريها.

وموت روث لا يمكن تصنيفه من الناحية التقنية بمثابة انتحاراً، بيد أنه كان نتيجة تدمير ذاتي نصف متعمّد على الأقل. فعلى الرغم من ان أمراضها في الأصل هي التي دفعتها إلى العقاقير، إلا أنها كانت في النهاية تشرب صبغة الأفيون الكافورية بالطريقة التي يجرع فيها الكحولّي الويسكي؛ كما كانت تتناول الباربيتورات، فعملت سنوات من تعاطي العقاقير على تقويض صحتها. وعلى الرغم من أنها لم تكن تمر بنوبات أو تبدي أعراضاً أخرى للإدمان، فقد تلقى المكتب الفيدرالي للإدمان على

(***) كان إيراسموس داروين قد سبق فرويد إلى التعبير عن هذه الفكرة[22]. - بول روزن-

المخدرات إجبارية عنها. أما بعد ذلك فقد أصيبت بذات الرئة، وهو مرض يتعرّض المدمنون للإصابة به. وبعد فترة عسيرة، بدا وكأنها تتحسّن؛ لكنها في الليلة التي سبقت وفاتها لم تقو على حضور حفل أقيم على شرف ماري بونابرت، المرأة الأثيرة الأخرى لدى فرويد والتي اندفعت بقوة في أواخر حياته لتنتزع من روث قصب السبق في حلقته الضيقة.

وكان لموت روث في 25 كانون الثاني عام 1946 وقع الصدمة العظيمة على الجميع؛ وخاصة مارك الذي رآها قبل وفاتها بست ساعات. وأُعْلِنَ أن سبب الوفاة هو «هجمة قلبية أثارتها ذات الرئة»[24]. لكن هذا كان ملفقاً. فقد ماتت روث بسبب تناولها كمية كبيرة من الأفيون، الأمر الذي تضافر مع سقوطها في الحمام، حيث ارتطم رأسها بالجدار وكسرت جمجمتها. وكانت روث قد أصيبت بإسهال شديد، وتناولت ا لمورفين لكي توقفه، وسقطت ميتة على أرضية الحمام. ومن المحتمل أن تكون قد تناولت كمية كبيرة من الحبوب المنومة في هذه الليلة الأخيرة من عمرها، ومن ثم سقطت؛ وكانت السقطة التي قتلتها.

وعلى الرغم من أهمية روث بالنسبة لفرويد والتحليل النفسي، فإنه لم يظهر أي نعي لها في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، وذلك بسبب نهايتها المحزنة، حيث لم يشعر أحد أن كتابة ذلك ستسرّه. أما نونبرغ فقد كتب نعياً لإحدى الدوريات الفصلية الأميركية، ولم يشر فيه إلا إلى «موتها المأساوي المفاجيء»[25].

إن أية حياة ينظر إليها بعين العطف يكون اشتمالها على جوانب مأساوية أمراً محتوماً؛ بيد أن الإفراط في الإلحاح على هذا الجانب هو خاطيء شأنه شأن الاستسلام لإغراء المديح. وتبعاً لفرويد، فإن المآثر مشدودة إلى قيود، وحتى أفضل ما نفوز به ندفع ثمنه من النقص البشري. بيد أن الانتحار، أو التدمير الذاتي التدريجي، هو أمر آخر. وبالإضافة إلى موت فيدرن، وستيكل، وتوسك، وسيلبرير، يمكن لنا أن نجد حالات

انتحار أخرى بين أفراد تلك المجموعة الأولى من المحللين النفسانيين: كارين ستيفن، إيوجينيا سوكولنيكا، تاتيانا روزنتال، كارل شروتر، مونرومساير، مارتن بيك، ماكس كاهان، جوهان هونيغر.

لقد سخر جونز من «الأخطار الخرافية للتحليل النفسي، والتي إما أن تسوق البشر إلى الجنون أو ترسلهم إلى حتفهم»[26]. وبصرف النظر عن الفائدة العلاجية المحدودة للتحليل النفسي، فإن مثل هذه الهجمات العنيفة والمبالغ فيها ضدّه هي في غير محلها بالتأكيد. ولكن يبقى أمراً منغصاً أن يكون على هؤلاء المحللين الأوائل أن يقتلوا أنفسهم واحداً تلو الآخر أو أن ينتهوا إلى نهاية سيئة. وفي عام 1911، حين علم فرويد بموت هونيغر، كتب في رسالة إلى يونغ قائلاً: «هل تعلم، إنني أفكر في أننا نهترىء ونتحول إلى قلة قليلة تماماً من الرجال»[27]. ولكن السؤال هو ما إذا كانت هذه المجموعة اكثر اضطراباً من أية مجموعة أخرى من البشر. صحيح أن عدداً من الحيوات تبدو كما لوأنها قُدِّمَتْ قرابين لانتصار عمل فرويد، إلا أن التاريخ البشري عرف أفكاراً عظيمة أخرى تمّ دفع ضريبتها. ولعل العدسة المجهرية الدقيقة التي نسلطها على هذه الجماعة هي السبب في أننا نعرف الكثير من خفاياها. ذلك أننا إذا ما تفحصنا أية حياة بشرية بما يكفي من الاهتمام والتدقيق، فسوف نجد المرض، والألم، والمعاناة، والعذاب الداخلي. ولكن هذا لا يعني أن المأساة هي الخبرة البشرية الوحيدة. ولعل إيجاد الكلمات والمفاهيم التي تصف ما نتحلمه من أخفاقات هو اسهل بكثير من اختراق التوافه والكليشيهات التي نصف بها عادةً تلك الجوانب المحققة من الحياة.

المراجع

(1) مقابلة مع آني كاتان.

(2) حول تاريخ حركة التحلل النفسي»، الطبعة المعيارية، المجلد 14، ص33.

(3) د.و.و ينيكوت، سيرورات النضج والبيئة الميسرة، (لندن، هوغارث; 965)، ص54.

(4) روث ماك برونشفيك، «التطور قبل -الأوديبي من تطور الليبيدو، Psychoanalytic Quarterly»، المجلد 9، العدد2، (1940)، ص293.

(5) «بعض العواقب النفسية للتباين التشريحي بين الجنسين»، الطبعة المعيارية، المجلد 19، ص 256.

(6) «الجنسية النسوية»، الطبعة المعيارية، المجلد 21، ص231

(7) المصدر السابق، ص238.

(8) هيرمان نتبورغ، «في الذاكرة: روث ماك برونشفيك»، Psychoanalytic Quarterly المجلد 15، العدد 2 (1945)، ص142.

(9) «الجنسية النسوية»، ص226.

(10) المصدر السابق، ص230.

(11) «محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي»، الطبعة ا لمعيارية، المجلد 22، ص 130 إنظر روث ماك برونشفيك، «تحليل حالة بارانويا (وهم الغيرة) The Journal of Nrvous and Mental Disease المجلد 70، (1929)، ص 1-22، 155-178.

(12) رسالة من أرنست جونز إلى أ. أ. بريل، 22 كانون الأول 1933، ورسالة من جونز إلى كلارينس أوبيرندورف، 2 كانون الأول 1933 (مخطوطات جونز).

(13) ناثان. غ. هال، فرويد والأميركيون، المجلد 1 (نيويورك: طبعة جامعة أكسفورد 1917م، ص371.

(14) أورده ماكس شور في، فرويد: حياته وموته (نيويورك: مطبعة الجامعات الدولية 1972)، ص62.

(15) مارت روبرت، الثورة التحليلية النفسية، ترجمة كينيث مورغان (نيويورك: هاركورت،.Brace and World; 1966) ص 235

(16) «محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي»، الطبعة المعيارية، المجلد 16، ص449.

(17) مقابلات مع ديفيد برونشفيك.

(18) مقابلات مع مارك برونشفيك.

(19) المصدر السابق.

(20) المصدر السابق.

(21) انطوني ستور، ديناميات الإبداع، (نيويورك: أثينيوم، 1972)، ص222.

(22) هنري. ف. إيلنبيرغر، أكتشاف اللاوعي، (نيويورك Basic Books1970) ، ص504.

(23) « تحليل منته وغير منته»، الطبعة المعيارية، المجلد 23، ص218 يبدو أن ستراتشي لم يكن يعرف أن من المفترض وجود مقالة ثانية لروث ماك برونشفيك حول الرجل -الذئب.

(24) النيويورك تايمز، 26 كانون الثاني 1946، ص13.

(25) لينبرغ، «في الذاكرة».

(26) جونز، سيغموند فرويد، المجلد 3، ص127.

(27) مراسلات فرويد/ يونغ، تحرير ويليام مك غوير، ترجمة رالف مانهايم، و ر.ف.سي هل (مطبعة جامعة برينستون؛ 1974)، ص413.

- 3 -
آنا فرويد
«التحليل النفسي للطفل»

يقف صفاء حياة آنا فرويد في تعارض حاد مع الاضطراب في حياة روث ماك برونشفيك ومع ذلك فقد ارتبطتا بأواصر صداقة حميمة إلى أبعد حد،على الرغم من تنافسهما لبعض الوقت على نيل الحظوة والمكانة لدى فرويد. فآنا فرويد كانت تغار من النساء اللواتي يحظين بأهمية في حياة والدها، وكانت تعتقد أن ذكرياتها عن مشاعر الغيرة تجاه امرأة ماهي وسيلة لقياس أهمية هذه المرأة في حياة فرويد[1]. ولقد سعت الكثيرات من تلميذات فرويد وراء حبه، أما هو فقد استفاد منهن أساساً في نشر التحليل النفسي وتوسيع نطاقه، وهكذا أمكن لآنا فرويد أن تفخر بأن والدها قد أمسك نفسه عنهن جميعاً. ولقد تبنت آنا نزوع والدتها (وجدّتها لأبيها) إلى إنزال فرويد منزلة سامية ، وتماهت مع مارتا ضد النساء الأخريات في حياة والدها. ولم تكن آنا فرويد بحاجة للتنافس مع أمها لأن مارتا كانت مُقصاة أصلاً؛ بيد أنها تنافست مع نساء مثل روث ماك برونشفيك. ولقد اعتقد مارك برونشفيك أن تعلّق فرويد بابنتهما تيللي كان سبباً إضافياً لغيرة آنا من روث؛ ذلك أن آنا لم يمكنها أن تقدم لوالدها سوى الرعاية والتكريس اللذين تقدمهما ابنة عازبة.

ولدت آنا فرويد في عام 1895، وكانت بذلك آخر أطفال فرويد، والتي من الواضح أن أهلها ما كانوا ليرغبون بولادتها. ولعل ممانعة فرويد في إنجاب طفل آخر كانت تعكس ضروب قلقه حيال ما ألم به من اضطرابات قلبية في السنة التي سبقت ولادة آنا؛ أما مارتا فرويد فكانت

خائبة الأمل على نحو واضح عند حصول هذا الحمل[2]. وسُميت الفتاة على اسم صديقة للعائلة، إلا أن آنا كان أيضاً اسم واحدة من أخوات فرويد هي التي كان يحبها أقلّ من البقية. ويبقى أن ممارسة فرويد كانت قد تحسّنت على نحو حاسم في فترة ولادة هذه الطفلة[3].

لم يكن فرويد، بوصفه والداً، نشطاً في رعاية صغاره يوماً فيوم. فهو لم يُرضعهم من الزجاجة أبداً أو يبدّل حفاضاتهم؛ وما كان بمقدورهم أن يخرجوا للنزهة مع «بابا» قبل أن يكتمل تدريبهم على النظافة. ومع ذلك، فقد أفاد فرويد أحياناً في كتاباته من «المادة التي أمدّه بها أطفاله»، وأشار إلى واحد من أحلام آنا في **تفسير الأحلام**[4]. وكانت مارتا فرويد تضع قيوداً على استخدامه لأطفالهما كموضوعات للاستقصاء، إلا أن فرويد كان يتمتع بحرية أوسع في تنشئة الأولاد الأكبر سناً[5]. وكان فرويد مدركاً لما لديه من إشكاليات ضد ــ أوديبية(*) **Counter - Oedipal** ترى ما الذي ظهر أولاً، مشاعر فرويد أم مشاعر ابنته الصغرى؟ لكن حياة آنا فرويد هي بمثابة دليل على مبدأ والدها الذي مفاده أن «العاطفة الأولى لدى البنت هي تجاه والدها. . »[6].

ولقد كبرت آنا فرويد وأصبحت سيدة شابة بعيدة عن المسائل الدنيوية، وكانت تشبه جسدياً طرف أبيها من العائلة. ولقد كتب لها فرويد رسالة عطوفة واحدة على الأقل خلال مراهقتها، حثّها فيها على أن تكون أكثر تساهلاً، نظراً لما كان لديها من ميل إلى القلق حين لا تكون

(*) الضد – أوديبية: هي الشكل أو المنحى المقلوب لعقدة الأوديب. ففي حين تظهر هذه العقدة كما في قصة أوديب الملك، أي رغبة في موت المنافس، وهو الشخص من نفس الجنس، ورغبة جنسية في الشخص من الجنس المقابل، فإن الضد ــ أوديبية تظهر كحب للوالد من نفس الجنس وحقد حسود على الوالد من الجنس المقابل. وفي الواقع يتواجد هذان الشكلان بمقادير متفاوتة في الشكل الكامل لعقدة الأوديب.

مشغولة. وفي رسالته إليها، وكان عمرها سبعة عشر عاماً ولديها فرصة لقضاء الشتاء تحت أشعة الشمس بعد إبلالها من المرض، كتب فرويد ملتمساً:

يمكن لخططك المدرسية أن تنتظر بسهولة إلى أن تتعلمي أخذ فروضك بقدر أقل من الجدية. ولن تهرب منك هذه الفروض. من الأفضل أن تكوني مهملة قليلاً وأن تتمتعي بهذه الشمس البهيجة في منتصف الشتاء. يمكنني أن أخبرك بأننا سُررنا جميعاً برسائلك إلى حد بعيد وكذلك أيضاً بأننا ماكنا لننزعج لو شَعرت بأنك أكسل من أن تكتبي لنا كل يوم.

سوف يأتيك أنتِ أيضاً زمن الكدح والعناء، ولكنك ماتزالين صغيرة تماماً[7]. [(*)8]

مع بناته الثلاث أمكن لفرويد أن يشبِّه نفسه بالملك لير، كما تظهر في كتاباته فكرة تعلّق الأب ببناته وولعه بهن[9]. ولقد أشار صراحةً في رسائله إلى آنا بوصفها انتيجونا الوفية، ابنة أوديب الضرير والعليل[10].

(*) تذكَّرت آنا فرويد لاحقاً... «موقفي الذي ينبع من الماضي البعيد. ففي السن الذي يسبق المطالعة المستقلة، حين يُقرأ القصص للأطفال أو تُحكى لهم، كان اهتمامي يقتصر على تلك القصص التي «قد تكون حقيقية». ولم يكن هذا يعني أن تكون قصصاً حقيقية بالمعنى المألوف للكلمة، بل أن من المفترض بها ألا تحتوي على عناصر تُحول دون حدوثها في الواقع. فحالما كانت الحيوانات تبدأ بالكلام، أو الجنيات والساحرات، أو الأشباح بالظهور - وباختصار أمام أي عنصر غير واقعي أو فوق طبيعي - كان اهتمامي يفتر ويزول. ومايدهشني هو أنني لم أتبدّل كثيراً بهذا الصدد[8]». ومن المحتمل أن خرافات إيسوب أولافونتين كانت أبعد من نطاق إدراكها الطفولي الباكر. - يونغ بروازين -

والحال أنّ آنا التي ظلت عازبة وغير مدركة نسبياً لما يمكن أن تكون عليه الحياة خارج العائلة، أضحت على نحوٍ ما ضحيةً لتكلّف شيخوخة والدها وفخامتها.

كانت آنا فرويد خجولة وجميلة في صباها، ولذلك قيل في فترة ما عن كل عازب في حلقة فرويد إنه كان يسعى للزواج منها. أما بالنسبة لرانك على وجه الخصوص فقد كان ثمة إشاعات عن زواجه من آنا. ولقد زعم فرويد مراراً أنه تبيّن، أثناء تحليله لتلامذته، رغبة بالزواج من إحدى بناته، كما علّق بينسوانجر على «تفسير فرويد لأحد الأحلام...، وهو تفسير لم أجده مقنعاً. وكان يفيد بأن الحلم يشير إلى رغبة بالزواج من ابنته الكبرى ويشتمل، في الوقت ذاته على إنكار **repudation** لهذه الرغبة...»[11] ولقد قدّم فرويد هذا النوع من التفسير حتى مع أحد مرضاه، وهو «الرجل ـ الجرذ».

كل الذين تقدّموا لآنا طالبين يدها حاذوا من خلال والدها واخوتها الأكبر. ولقد قيل إنها وقعت في الحب خلال فترات مختلفة مع ثلاثة من الرجال على الأقل في حلقة فرويد ـ وهؤلاء الرجال هم سيغفريد برنفيلد، وهانز لامبل، وماكس ايتنجن ـ لكن ارتباطها بوالدها قطع الطريق[12]. وفي عام 1935 أشار فرويد إلى «قلقه» بشأنها: «إنها تأخذ الأمور بجدية زائدة. ما الذي ستفعله حين تفقدني؟ هل ستعيش حياة تقشف وزهد؟»[13].

وتوصلت آنا فرويد لأن تكون مدرسة للأطفال الصغار دون أن يكون لديها أي مؤهل علمي (فهي لم تنه الجيمنازيوم(**)). ولقد مارست التعليم في مدرسة ابتدائية لمدة خمسة أعوام[14] لكنها لم تكن تكسب إلا مقداراً زهيداً من المال. وكانت تواظب على محاضرات والدها في الجامعة؛

(**) الجيمنازيوم: مايعادل، في ألمانيا، المدرسة الثانوية.

وتكتب مايمليه عليها وتقوم حياله بواجبات السكرتيرة. كما كانت تحضر لقاءات جمعية فيينا للتحليل النفسي منذ أوائل تشرين الثاني 1918 على الأقل؛ على الرغم من أنها لم تكن عضوافيها. وحين ألقت أمام الجمعية، في 13 حزيران 1922، مقالة بعنوان «الاستيهامات وأحلام اليقظة المتعلقة بالضرب» لم تكن قد قطعت سوى خطوة قصيرة على طريق العضوية؛ وقد تكلمت مثل والدها، دون أن تكون المحاضرة أمامها. أما دخول آنا حقل الممارسة كمحللة فكان قبل وقوع والدها فريسة المرض عام 1923 مباشرةً، وكانت بداية عملها مع الأطفال.

وكان ثمة أسطورة راسخة بين تلاميذ فرويد مفادها أن لو أندرياس ـ سالومي هي التي قامت بتحليل آنا فرويد[15]، ذلك أن فرويد كان متردداً حداً حيال إرسال آنا إلى محلل من محللي فيينا. وفي السنوات اللاحقة صارت لو أندرياس ـ سالومي وآنا فرويد صديقتين حميمتين، كما أملت لو واحداً من كتبها على آنا.[16] وبالنظر إلى النجاحات الشهيرة للو مع الرجال، فلا شك أنها كانت كمحللة مصدر كفّ لآنا المتحولة والمنطوية على نفسها. ويكاد يكون مؤكداً تقريباً أن آنا تنافست مع لو على فرويد نفسه. لكن شاهداً واحداً على الأقل كان واثقاً من أن لو قد قامت بتحليل آنا أثناء إقامتها في شقة فرويد في فيينا[17].

وعلى أية حال، فإنه لم يكن من الممكن للو أن تكون أول من قام بتحليل آنا فرويد؛ فقبل ذلك، وعلى الرغم من قواعد التقنية التحليلية النفسية التي وضعها فرويد لكي يتبعها الآخرون، فقد قام فرويد بتحليل ابنته بنفسه. وامتد هذا التحليل على مدى عدد من الأعوام. ففي بودابست أمضى فرويد شهراً كاملاً عام 1918، وكانت آنا برفقته؛ وكان قد بدأ بتحليلها من قبل[18]. وتذكّر أوليفر، ابن فرويد، أن اخته كانت تذهب إلى مكتب والدها من أجل التحليل في ربيع 1921 [19].
ولقد لعبت حقيقة قيام فرويد بتحليل ابنته آنا دوراً عظيماً في تحليلها هي

لمريض واحد على الأقل[20]. وأخيراً، فإن فرويد كان صريحاً بشأن هذا التحليل، ففي رسالة إلى إدوارد ويس عام 1935، وكان هذا الأخير قد سأله النصيحة بشأن تحليل ولده، ردّ فرويد أن التحليل قد جرى بصورة حسنة مع ابنته ولكن الأمر قد يكون مختلفاً مع الابن:

فيما يتعلق بتحليل ابنك الواعد، فإن ذلك عمل حساس دون شك. ولعل الأمر أن يجري بصورة أسهل مع أخيه الأصغر. ولقد نجحتُ في ذلك نجاحاً حسناً مع ابنتي. أما مع ابن فثمة مصاعب وشكوك خاصة. وهذا لا يعني أنني أحذرك من خطر في الحقيقة؛ فمن الواضح أن كل شيء يتوقف على الشخصين وعلاقة واحدهما بالآخر. أنت تدرك المصاعب. ولن يكون مدهشاً بالنسبة لي لو أنك نجحت على الرغم منها. إن من الصعب على طرف خارجي أن يقرر. ولذا لن أنصحك بالقيام بذلك كما أنني لا أملك الحق بأن أمنعك[21].

ولقد فسر ويس الرسالة على أنها ثني له عن الأمر.

وفي ضوء اضطلاع فرويد بتحليل ابنته، فإن كل النزاعات حول مقوّمات التقنية التحليلية النفسية الملائمة تضاءلت إلى مجرد توافه - هل من الواجب رؤية المريض ثلاث أو أربع أو خمس مرات في الاسبوع، وما إذا كان مسموحاً للمرضى قراءة الأدبيات التحليلية أم لا، وهل يتطلب التحليل استخدام أريكة، ومقدار النشاط المطلوب من قبل المحلل... الخ. ومع ذلك فإن آنا قد اقترحت على جونز حين كان مسافراً إلى أميركا للمشاركة في احتفالات الذكرى المئوية لولادة فرويد أن يناقش العلاقة بين التحليل النفسي والعلاج النفسي، مع التركيز الشديد على هذا الأخير[22].

وبالنظر إلى ماطوّره أتباع فرويد من قواعد تقنية ملائمة ورصينة ومحددة، فإن افتضاح تحليل فرويد لابنته يجعل وضعهم حرجاً نوعاًما. ولقد كان تحليل فرويد لابنته سراً لم يطلّع عليه سوى مجموعة صغيرة من أعضاء حلقة فرويد الضيقة، في حين شكّل صدمة بالنسبة لغيرهم من

المعنيين بتاريخ الحركة؛ فبعض المحللين القدامى في فيينا إما لم يكونوا يعرفون شيئاً عن هذا التحليل أو أنهم لم يكونوا ليرغبون بالسماع حين يُحكى لهم عنه.

أما من وجهة نظر فرويد، فقد كان ثمة أسباب وجيهة لفعله مافعل. فالقواعد التي أرساها في مقالاته لم تكن مُعدة له هو، كما لم يكن يتوقع من تلامذته أن يتبعوها على نحو حَرْفيّ أبداً. ولعل آنا هي التي لم تقبل الذهاب إلى أي محلل آخر. ومن المؤكد أن محللاً آخر كان ليتردد قبل أن يجرؤ على انتزاع آنا من والدها، الأمر الذي كان من المفترض أن يشكّل جزءاً من مهمة التحليل النفسي الصحيح. ولا بد أن فرويد كان خائفاً من أن تتأذى لدى أي محلل آخر. وربما فكّر أن بمقدوره إجراء التحليل على نحو غير محكم، ولأغراض علاجية محدودة، في الوقت الذي يقوم فيه بتعليمها أفضل مالديه. ولقد بلغ به الأمر حد إطّلاع ابنته على كيفية القيام بالأمر، دون أن يأمل بتنقية علاقتها معه، حيث أن ذلك كان مستحيلاً عملياً.

لقد قام فرويد بتحليل نفسه، وربما فكّر أنه قادر على القيام بتحليل ابنته. علاوةً على أن أي محلل آخر يمكن أن يحوّلها إليه كان لديه مسبقاً ضربٌ ما من ضروب العلاقة الانفعالية معها، بوصفها ابنة المعلم، ولذا ربما لم يكن واثقاً مما يمكن أن يحققه أي واحد آخر. وإذا لم يكن بمقدور فرويد أن يأخذ حريته مع التحليل النفسي، فمن بمقدوره إذاً؟ ولعل تحليله لآنا، وخضوعها لهذا التحليل، قد بلغا، في الوقت ذاته، حداً توصل إلى اتفاقية متبادلة بينهما تقضي بأن يبقيها معه. فالتحليل النفسي كان مهماً جداً لكل منهما لدرجة أن كل شيء آخر غدا تافهاً؛ ولعل أول ماوضعاه في حسبانهما هو أن يساعد التحليل على اعدادها كمحللة في المستقبل. إلاأن آنا كانت خائفة من والدها آنئذ إلى درجةٍ أكبر مما كان يعرفه أي منهما.

ولعل بواعث فرويد قد كانت أفضل البواعث على الإطلاق، إلا أن الوضع كان شاذاً سواء من الناحية الطبية أو الانسانية. فهو كمحلل لآنا، كان لا بد أن يثير لديها مشاعر التقييم المفرط على نحو لا يمكن تفاديه، في الوقت الذي ينتهك فيه خصوصية روحها، و هذا ماأضاف إلى علاقتهما انفعالات تحويل جديدة، دون توفّر الإمكانية لحلها بأية صورة، وهكذا فإن العبقري الذي كان بصورة طبيعية شخصية هائلة في حياة ابنته الاستيهامية، عمل بوصفه محللاً لها على ربطها به ربطاً لا فكاك منه.

كان بإمكان فرويد أن ينتقد بحدّة مايقوم به أي محلل آخر من تجاوزات تقنية. وعلى سبيل المثال، فقد كتب مرة إلى ساندور فرنزي(*)، «ما الذي يمكن للمرء أن يفعله إزاء تقنية شخص ينبغي الدفاع عنها علانيةً»[23]. ولا شك أن قيام فرويد بتحليل ابنته قد أرضى رابطة أوديبية لديه؛ كما كان من الخير بالنسبة لحركة التحليل النفسي أن تكسب آنا كمحللة. أما بالنسبة لآنا، فقد ساعد التحليل على الحدّ من إمكانيات وفرص الإرضاء الشخصي، على الرغم من أنها لعبت دوراً في حياة والدها فضلاً عن قيادتها للحركة في النهاية، الأمر الذي كان بمثابة بديل نفسيّ. ولعل علاقتها مع مثل هذا الأب لم تكن علاقة تراجيدية إلا بالمقاييس العادية وحدها وحسب.

(*) ساندورفرنزي (1874-1933) محلل نفساني هنغاري بارز. كان من أوائل المحللين الذين تم تحليلهم، حيث قام بذلك فرويد وإنْ لفترة قصيرة. وفي عام 1910 اقترح فرنزي، بتشجيع من فرويد، تأسيس جمعية دولية للتحليل النفسي يكون لها فروعها في مختلف البلدان. وفي عام 1918 انتخب رئيساً لهذه الجمعية الدولية بعد أن كان قد انتخب عام 1913 رئيساً للجمعية الهنغارية للتحليل النفسي التي عقدت أول اجتماع لها عام 1913. كما كان واحداً من اللجنة السرية التي أسسها فرويد قبل الحرب العالمية الأولى، بعد أن اختلف مع يونغ وأدلر، وقدم لأعضائها خواتماً خاصة.

وعلى أية حال، فإنه لم يكن واضحاً في العشرينات، بل وحتى موت والدها، أن آنا مُقَدَّر لها أن تصبح قائدةً لحركة التحليل النفسي. فحين كانت ماتزال شابة ودون أوراق اعتماد رسمية كان بعض تلاميذ فرويد القدامى يحمونها ويقدمون لها الرعاية.

وبالنسبة لأولئك الذين كانوا متنبهين لحضور آنا فرويد في الحركة، ومقدار مايعنيه ذلك لفرويد، بدا أن دفاعه عن التحليل غير الاختصاصي(*) layanalysis قد كان مُدبراً جزئياً على الأقل من أجل ضمان مستقبل آنا. (قيل إن مُدخرات فرويد قد استنفذت حتى آخرها في التضخم الذي تلا الحرب). إلا أن الأشخاص غير الاختصاصيين، الذين لم يتلقوا تدريباً علمياً، هم أكثر ميلاً إلى التزمّت المفرط؛ ولقد نزعت الحاجة إلى درجة طبية بإتجاه التخلص على الأقل من أولئك الذين أتوا إلى التحليل وهم مستغرقون تماماً في مصاعبهم السيكولوجية الخاصة. كما قام فرويد بتشجيع بعض تلاميذه على دراسة الطب، ليس لأنه كان مهماً بحدّ ذاته، بل لكي يجعل حيواتهم كمحللين أكثر سهولة ويسراً[24].

في فترة الحرب العالمية الأولى، كتب فرويد يقول: «التحليل النفسي هو طريقة في المعالجة الطبية للمرضى العصابيين»[25]، وفي عام 1918 كان مايزال يشير إلى المحلل النفساني بوصفه «الطبيب». بيد أنه في عام 1924 رأى أنه «لم يعد ممكنا حصر ممارسة التحليل النفسي بالأطباء واستبعاد غير الأطباء عنها»[26]. ولقد كان لدى فرويد أسباباً كافية للاستياء من استقباله في عالم الطب: «ليس للأطباء أي حق تاريخي في الامتلاك المنفرد للتحليل. وعلى العكس، فهم من قابله حتى فترة متأخرة بكل مايمكن أن يؤذيه، بدءاً

(*) التحليل غير الاختصاصي هو التحليل الذي يقوم به شخص لم يحصل على شهادة طبية. وقد كان عدد من تلاميذ فرويد البارزين غير أطباء مثل آنا فرويد ابنته، وميلاني كلاين، وثيودور رايك. . . الخ.

بالسخرية الضحلة وانتهاءً بالافتراء الأشدّخطورة[27].

ولقد أمكن لفرويد أن يحتمل النزاع بشأن التحليل غير الاختصاصي، ونوّه إلى ذلك باعتباره دليلاً على أن «اختلافات الرأي مسموح بها حتى في معسكرنا»[28]. بيد أنه كان يغضب إذ يفكر أن الآخرين قد ينكروا عليه حقّه في إعداد ابنته الصغرى كمحللة، واعتبر معارضة التحليل غير الاختصاصي بمثابة هجوم على آنا ونقد ضمني له أيضاً. وفي عام 1926 كتب فرويد: «لقد كرست ابنتي آنا نفسها للتحليل البيداغوجي [التعليمي] للأطفال والمراهقين. ولم أحوّل إليها بعد أية حالة من حالات المرض العصابي الشديد لدى شخص بالغ». (وأضاف على الفور أنه «وبالمصادفة، فإن الحالة الوحيدة ذات الأعراض الشديدة نوعاً ما والواقعة على حدود الأعراض الطبنفسية التي عالجتها إلى الآن قد كوفيء عليها الطبيب الذي حوّلها إليها نظراً لنجاح المعالجة التام»[29]). والكفاءات الطبية ليست ضرورية للعمل مع الأطفال الصغار كما هي ضرورية مع البالغين وذلك على الأقل لأن المرء في الوقت الذي ينهي فيه تدريبه التحليلي يكون قد أصبح كبيراً بما يكفي لأن يتمتع بطول الأناة الكافي لمعالجة الأطفال (كان تحليل الطفل قد أضيف إلى المهارات التحليلية الأساسية).

ولقد نالت آنا فرويد شهرة لها مايبررها من جراء رصدها ومعالجتها للأطفال الصغار. وكانت هيرمين فون هوغ ـ هيلموت (1871 ـ 1924) قد سبقتها في فيينا في هذا الحقل، كما كانت ميلاني كلاين في برلين ولندن قد طوّرت تقنية مختلفة للتعامل مع الأطفال فضلاً عن بنائها لمفاهيم رصينة خاصة بها. وفي فيينا كان أوغست ايشهورن قد اهتم بمعالجة الجانحين، كما ركز كل من بفيستر (في زيوريخ) وبيرنفيلد (في برلين) على المراهقين. ولكن آنا فرويد هي التي تخصصت في الأطفال الصغار، ولا بد أنها قد أثارت غيرة هيرمين فون هوغ ـ هيلموت.

لقد توفيت السيدة الدكتورة هيرمين فون هوغ ـ هيلموت بعد فترة قصيرة من دخول آنا فرويد بصورة رسمية في المشهد التحليلي النفسي. وكانت هوغ ـ هيلموت من حيث المظهر امرأة بالغة الصغر، مشدودة، ممتلئة الجسم، وغير أنيقة؛ وكان من السهل على الآخرين أن يطلقوا النكات عنها، بيد أن عملها كان أصيلاً. وكانت واحدةً من غير اليهود القلائل والنساء القلائل في جمعية فيينا، ولقد أنشأت طريقة العلاج باللعب Play Therapy كوسيلة للاتصال مع الأطفال الصغار. ويبدو أنها كانت واسعة الخيال إلى حدّ بعيد لدرجة أنها لفقت يوميات عن مرحلة فتوتها ماتزال متوفرة إلى اليوم بترجمتها الانجليزية تحت عنوان «يوميات فتاة صغيرة»، مع مقدمة كتبها لها فرويد[30]. ومن المتفق عليه عموماً أن هذا الكتاب كان خداعاً وحيلة، وأحدث ظهوره فضيحة؛ وسُحِبَ من المكتبات في ألمانيا. وحتى لو حكمنا عليه بأشدّ الرفق، فإن فوغ ـ هيلموت قد قامت فيه بتنقيح ذكريات طفولتها على ضوء النظريات التحليلية النفسية في العشرينات؛ وهكذا قدّم كتابها كل ماكان الفرويديون يتعلمونه وقتذاك عن طبيعة الجنسية النسوية.

ولم تكن هوغ ـ هيلموت مقرّبة من فرويد على نحوٍ خاص، إلا أنها كانت تعجبه أشدّ الإعجاب. وقبل حوالي سنة من وفاتها، كانت آنا فرويد قد بدأت بالممارسة. وحالما ابتدأت ابنة فرويد بالعمل مع الأطفال، فإنها سرعان ماألقت ظلاً على مكانة هوغ ـ هيلموت وحجبتها. وكان من الطبيعي أن تشعر هذه الرائدة في مجال التحليل النفسي للطفل بالغيرة تجاه منافستها الجديدة.

وبعد فترة وجيزة من انتهاء مؤتمر سالزبورغ للمحللين النفسانيين الذي انعقد في 9 أيلول عام 1924، قُتِلَت هوغ ـ هيلموت على يد ابن اختها غير الشرعي، والذي كانت قد عملت على تربيته وتنشئته. وفي الظاهر كانا قد اختلفا على المال. وشكّل موتها صدمة عظيمة لجماعة

التحليل النفسي، ونالت محاكمة ابن اختها البالغ من العمر اثني عشر عاماً تغطية صحفية واسعة. وتمت إدانة هذا الفتى وعوقب بالسجن.

وقبل اسبوع واحد من مقتلها، كانت هوغ ـ هيلموت قد طلبت ألا يُنشر أي نعي لها في المنشورات التحليلية النفسية في حال موتها[31]. فهل كانت تتوقع هلاكها؟ يبدو أن علاقتها بابن اختها كانت علاقة مُعالج بمريض أكثر منها علاقة خالة أو أم بديلة. وعندما كان صغيراً كانت تُجري عليه عمليات «رصد ومراقبة»، كما كان يمدّها بمواد توضيحية للنصوص التي تكتبها. ولقد أشار أحد المحللين ـ وهو مقتنع بأن قتل المُعالج على يد المريض يمثّل في العادة نزوة تدميرية ذاتية لدى المُعالج يقوم المريض بتحقيقها ـ إلى أن موت هوغ ـ هيلموت هو بمثابة انتحار.

وقضى الفتى مدة عقوبته في السجن، وحين أُطلق سراحه مضى إلى فيدرن ليطلب مالاً من جمعية فيينا باعتباره ضحية للتحليل النفسي. وأوصى هيتشمان بأن يذهب الفتى إلى هيلين دويتش من أجل معالجته؛ فقد ظنّ أن من الخير له حلّ مشكلته لدى محللة من النساء. وكان الفتى يشعر بمرارة لأن خالته العانس قد استخدمته كمادة مرضيّة، بدلاً من أن تمنحه الحب؛ فهوغ ـ هيلموت لم تكن تكتفي من أجل عملها بملاحظة الوجه العَرَضي لسلوكه، وإنما كانت تجري دراسة منهجية ومنظمة لهذا الطفل. ولعل نزاعهما من أجل النقود لم يكن سوى ذريعة وحسب من أجل القتل، بيد أنه كان مدعاةً لإثارة أعصاب هيلين دويتش أن يتم اقتراحها كمحللة ثانية لهذا المريض الذي كان يطلب المال من المؤسسة التحليلية النفسية التي كانت خالته الراحلة تمثّلها. ولقد تبينت هيلين دويتش في إحالة هيتشمان هذا الشاب إليها ضرباً من عداوة الزمالة تجاهها؛ وكان زوجها شديد الاهتمام بسلامة زوجته لدرجة أنه استأجر بوليساً سريّاً كي يراقب تحركات الفتى.

اتخذ عمل آنا فرويد مع الأطفال شكلاً مميزاً منذ البداية؛ فقد

كانت مهتمة بتكييف التقنية التحليلية النفسية الكلاسيكية مع القدرات والقوى الخاصة لدى الأطفال الصغار، الذين ما كانوا ليستلقون على الأريكة ويتداعون تداعياً طليقاً. ولقد كانت تجربتها التعليمية ذات نفع لها؛ذلك أنها كانت تعتقد أن الأطفال بحاجة إلى توطيد علاقة تربوية مع المعالج قبل أن يتقبلوا تفسيراته وشروحه.

وتبعاً لآنا فرويد، فإن الفارق الأساسي بين تحليل البالغين وتحليل الأطفال هو أن هؤلاء الأخيرين ليسوا قادرين على توطيد ذلك النوع من التحويل الذي يمكن للبالغين توطيده، وذلك لأنهم مايزالون مرتبطين بأهلهم في الحياة اليومية. كما لا يمكن للمحلل، في التحليل النفسي للأطفال، أن يجد سوى ارتكاسات reactions التحويل، وليس عصاب تحويل حقيقي. وبخلاف ميلاني كلاين الأشد تزمتاً من الناحية التحليلية، فإن آنا فرويد أشارت إلى أن ثمة طور تمهيدي ضروري قبل أن يمكن الشروع بالمعالجة التحليلية للطفل. كما اقترحت أن يتم العمل علاجياً وبقدر الإمكان من خلال أهل الطفل (وهو اتجاه في التفكير كان قد سبقها إليه جزئياً على الأقل جوزيف فريدجنغ، طبيب الأطفال في حلقة فرويد: ففي عام 1909 أشار إلى أنه «يكفي في حالات كثيرة وبوساطة تغيير الوسط أو التأثير الذي يمارسه أولئك المحيطون بالطفل من أجل التوصّل إلى زوال الأعراض»[32]).

ولقد أتى بعض المحللين في فيينا بأطفالهم إلى التحليل، على الرغم من أنهم لم يستشيروا فرويد بالضرورة في هذا الشأن. وعلى أية حال، وبخلاف ميلاني كلاين، التي اعتقدت أن تحليل الطفل هو أفضل وقاء ضد العصاب، فإن محللو الطفل في فيينا لم يكونوا مقتنعين عموماً أن كل طفل بحاجة للمعالجة. و لم يكن من غير المعتاد أن يرفض المحلل معالجة طفل على أساس أن الأطفال أسوياء بما فيه الكفاية؛ غير أن حالة طفل يبلغ ثلاث سنوات من العمر، والذي انتحر لاحقاً في بداية بلوغه، لا بد أنها كشفت النقاب عن محدودية المعرفة في هذا المجال.

وكان فرويد فخوراً بأن المحللين قد انتقلوا من دراسة مرحلة الطفولة عبر الذكريات التي يستعيدها المرضى البالغون إلى الرصد المباشر لهذه المرحلة: «لقد بدأنا بالاستدلال على محتوى الطفولة الجنسي من تحليل البالغين.. ومن ثم، شرعنا بتحليل الأطفال أنفسهم،...»[33]. ولكنه ألحّ على أن التحليل النفسي «ليس بديلاً مناسباً للتربية.. على الرغم من أن التربية يمكن أن تستدعيه كوسيلة مساعدة في التعامل مع الطفل... وعلى المرء ألا ينخدع بالقول ـ الذي هو صائب أحياناً ـ إن التحليل النفسي للعصابيّ البالغ يكافىء تربية إضافية أخرى»[34].

ترك فرويد التحليل النفسي للطفل بأكمله لآنا. ولقد شقّت آنا طريقها الخاص. وعلى الرغم من أن فرويد كان يحبّذ السير من خلال الرصد المباشر للأطفال، إلا أنه كان يشكّ في إمكانيات العلاج بالنسبة للأطفال الصغار. وأشار فرويد إلى أنه ليس ثمة أية بيداغوجيا تحليلية، ولم يكن يقدم لمرضاه نصائح بشأن أطفالهم. وكان ذلك معروفاً لدرجة أن كثيراً من مرضاه ماكانوا ليجرؤوا على طلب مثل هذه النصيحة. وبالطبع فإن فرويد كان مدركاً لأهمية «تطبيق التحليل النفسي في التربية، وفي تنشئة الأجيال اللاحقة»، وكتب مضيفاً: «وإنه ليسرّني أنني على الأقل قادر على القول إن ابنتي، آنا فرويد، قد نذرت نفسها لهذه الدراسة وكفّرت بذلك عن إهمالي وإحجامي»[35]. وحين يفكر المرء بعيادة جيمس جاكسون بتنام في بوسطن، أو بجامعة برونوبتلهايم في مدرسة شيكاغو لتحسين النسل، فإنه يتضح إلى أي حدّ تمّ توسيع هذه الجهود الباكرة التي بذلتها آنا فرويد، وزملاؤها والبناء عليها بحيث أمكن معالجة الأطفال الذين بدوا من قبل غير قابلين للتدخل العلاجي التحليلي النفسي.

وعلى الرغم من إنكار فرويد، فقد كانت لديه أفكار محددة بشأن تربية الطفل. وعلى سبيل المثال، فقد سُجل أنه كان يعتقد أن «الجنسية المثلية غالباً ماتتطور لدى الطفل حين تكون الأم مفرطة الحنان تجاه طفلها

ـأي، طفلها الصبي»[36]. وفي إحدى المرات حين كـانت واحـدة مـن كنّاتـه تفرط في احتضان رضيعها، غضب منها فرويد ووبخها على ذلك[37]؛ ولعلـه كان قلقاً بشأن الإغواء الأوديبي المحتمل. وبعد ذلك بسنوات جادلت هـذه الكنّة مدافعة عن نفسها وقالت إن أطباء هذه الأيام يطلبـون منـك العكس (كان رضيعها في ذلك الحين في شهره الثالث أو الرابع، وأصغر بكثير من أن يقوى على الجلوس منتصباً). وعلى الرغم مـن أن فرويـد نـادراً ماكـان يقدم مثل هذه النصيحة بشأن تربية الأطفال، فإنه لم يكن ثقةً يُعَـوَّل عليهـا حين يفعل. وثمة مفارقة هنا: فقد اعـترف بنيامين سـبوك إلى أي حـدّ هـو مدين للتحليل النفسي، وأن كتيّبات فرويد قد كانت عملية وجيدة.

وبقدر ماكان فرويد راغباً عن أن يقول للناس كيف يعيشون، فإنـه كان يلحّ على صوابية تنوير الأطفال من الناحية الجنسية. ولقد أرسل أبناءه إلى طبيب العائلة لكي يتعلموا وقائع الحياة، لكنه اقترح أن يتم هـذا التنوير «تدريجياً ومنذ البداية تماماً. كما يجب التعـامل مـع الحيـاة الجنسية، ومنـذ البداية، دون تكتّم بحضور الأطفـال»[38]. وكـان فرويـد يعتقـد أن «توجيـه الطفل في الحياة هو من بين المسـؤوليات الملقـاة علـى عـاتق المدرسـة، وأن القضايا الجنسية هي جزء هام من هـذا التوجيـه.. وعلى التنوير قبـل كـل شيء أن يوضح لهـم أن هـذه قضيـة أفعـال حنـان...»[39] ذلـك أن «الأذى الأساسي الذي يحدثه تجاهل [تنوير] الأطفال يكمن في حقيقة أن الجنسـية، على مدى الباقي من حياة الطفل، تكون مطبوعـة بطـابع التحريـم ومبتـلاةً به...»[40].

المراجع

(1) رسالة من آنا فرويد إلى أرنست جونز، 14 شباط 1954 (مخطوطات جونز).إضافةً إلى روث برونشفيك، ذكّرت آنا فرويد كل من حيان لامبل - دي غـرو وحوان ريفيير.

(2) مقابلة مع إيفا روزنفيلد/ 17 تشرين الثاني 1966

(3) س. فرويد، أصول التحليل النفسي، تحرير ماري بونابرت، ترجمة إريك موسباتشر وجيمس ستراتشي (لندن: إيماغو؛ 1954)، ص136

(4) «تفسير الأحلام»، الطبعة المعيارية، المجلد 4، صص127، 130، انظر أيضاً «محاضرات تمهيدية»، الطبعة المعيارية، المجلد 15، ص132

(5) مقابلة مع كاتا ليفي، 6 تموز 1965

(6) « تفسير الأحلام»، المجلد 4، ص257

(7) س. فرويد، رسائل، تحرير أرنست فرويد، ترجمة تانيا وجيمس ستيرن (نيويورك : Basic Books، 1960 صص294-295)

(8) آنا فرويد، إشكاليات التدريب السريري، والتشخيص، وتقنية العلاج، المجلد VII من كتابات آنا فرويد، 1966-1970 (نيويورك: مطبعة الجامعات الدولية؛ 1971)، صص73-74

(9) رسالة من فرويد إلى برانسوم (مخطوطات جونز). «موضوعة الصناديق الثلاثة»، الطبعة المعيارية، المجلد 12، صص293، 296، 298، 301؛ الرسائل، ص301

(10) الرسائل، صص382، 424

(11) لودفيغ بينسفاغنر، سيغموند فرويد، ذكريات صداقة، ترجمة نوربرت غوترمان (نيويورك: غرن وستراتون؛ 1957)، ص2

(12) مقابلات مع أبرام كساردنر، 12 تشرين الأول، 1965؛ وهيلين دوتيش، 5-حزيران 1965؛ وإيفاروزنفيلد، 3 تشرين الثاني 1966، انظر ماأملاه أرنست فرويد، 27 تشرين الثاني 1953 (مخطوطات جونز).

(13) سيغموند فرويد ولو أندرياس - سالومي: رسائل، تحرير أرنست بفايفر، ترجمة

ويليام وإيلين روبنسون سكوت (لندن: هوغارت؛ 1972)، ص204

(14) آنا فرويد، «دور المعلم» Harvard Educational، Review، المجلد 22، العدد 4 (خريف 1952)، ص229

(15) رسائل فرويد واندرياس - سالومي، ص231

(16) المصدر السابق، ص233

(17) مقابلة مع بياتسارانلك، 12 شباط 1966 . انظر أيضاً، إيريكا فريمان، تبصّرات:أحاديث مع ثيودور رايك (Englewood Cliffs N؛1971 . J. Prentice-Hall:)، ص82

(18) مقابلة مع كاتا ليغي، 13 تموز 1965

(19) مقابلة مع أوليفر فرويد.

(20) مقابلة مع آني كاتان.

(21) إدواردو ويس، سيغموند فرويد مستشاراً (نيويورك: شركة الكتاب الطبي العابر للقارات؛ 1970)، ص 81

(22) رسالة من آنسا فرويد إلى أرنست جونز، 20 تشرين الأول 1955 (محفوظات جونز).

(23) أورده جونز، سيغموند فرويد، المجلدIII ، ص164

(24) مقابلة مع آني كاتان.

(25) «محاضرات تمهيدية»، المجلد 15، ص15

(26) « دراسة سيرية ذاتية»، الطبعة المعيارية، المجلد 20، ص70

(27) سيغموند فرويد، مسألة التحليل غير الاختصاصي، ترجمة نانسي بروكتور غريغ، و.و. نورتون وشركاه، 1950، ص229

(28) المصدر السابق، ص239

(29) «الدكتور رايك ومسألة التدجيل»، الطبعة المعيارية، المجلد 21، ص247- 248

(30) «رسالة إلى هيرمين فون هوغ - هيلموت»، الطبعة المعيارية، المجلد 14، ص34

(31) مقابلة مع جورج ويلبُر، انظر أيضاً المجلة الدولية للتحليل النفسي، المجلد 6 (1925،ص106)

(32) مَحَاضر جمعية فيينا للتحليل النفسي، تحرير هيرمان نتبرغ وأرنست فيدرن، المجلدII ، ترجمة م. نتبرغ (نيويورك: مطبعة الجامعات الدولية؛ 1967)، ص318

(33) مسألة التحليل غير الاختصاصي»، ص214

(34) مقدمة لكتاب أيشهورن الشباب الجامح،الطبعة المعيارية، المجلد 19، ص274

(35) محاضرات تمهيدية جديدة، صص146--147

(36) سمايلي بلانتون، يوميات تحليلي مع سيغموند فرويد، (نيويورك: هاوثورن؛ 1971)، ص72

(37) مقابلات مع إيسق فرويد.

(38) مَحَاضر جمعية فيينا للتحليل النفسي، المجلدII ، ص15

(39) المصدر السابق، ص230

(40) المصدر السابق، ص236

- 4 -

آنا فرويد

«سيدات في الخدمة»

بعد أن وقع فرويد فريسة المرض في عام 1923، لعبت آنا فرويد دوراً متزايداً بإضطراد بوصفهـا الحـارس الأمـين علـى وقـت والدهـا وصحته.على الرغم من أنه كـان يفضـل كتابة رسـائله كتابةً عادية دون اختزال، فإنها عملت لبعض الوقت بمثابة سكرتيرة خاصة لديه. وكلمـا كان عجز والدها يتفاقم، كانت أهمية موقعهـا تتزايد بوصفهـا الشـخص الأشدّ التصاقاً به[1]. ولقد كانت النساء الأخريات في عائلة فرويد حاضرات أيضاً لحراسته من الغرباء غير المرغوب بهم، بيد أن آنا كانت حساسة على نحو خاص تجاه ضروب الغيرة في جمعية فيينـا والتي نمت وتكـاثرت حـول والدها[2]. فكل امرأة عرفت فرويد قبل مرضه ربمـا كـان لديهـا الآن علاقـة وطيدة معه يمكنها أن تلجأ إليها. أما الوافدات الجدد إلى حلقة فرويـد فقـد جئن إليه من خلال ابنته آنا. وما يثير الانتباه هو أن هؤلاء النساء كـنّ إمـا عازبات أو منفصلات عن أزواجهن، أو أن أزواجهن لم يكونوا ذوي شأن أو سلطة.

وعلى سبيل المثال، فإن إيفا روزنفليد دخلت عالم فرويد في تشرين الثاني من عام 1924 كصديقة لآنا، وفضلاً عن كونهـا إبنة أخـت مغنيـة فرويد المفضلة، إيفيت جيلبير، فإن إيفا روزنفليد كـانت بمثابة ابنـة بـالتبني لدى عائلة فرويد لدرجة أنهم كانوا، مثلاً، يحتفلون بعيد ميلادها. وفي عام 1929 قام فرويد بتحليلها، بتوسط مـن آنـا، ولم يطلـب منهـا أجـراً لقـاء

معالجتها. ولقد استمر هذا التحليل مدة شهرين، ست مرات في الاسبوع. وبعد أن انتهى التحليل، في يوم أحد بعد الظهر، وكانت آنا قد خرجت للنزهة في عربة مع صديقتها دورثي برلنغهام، قام فرويد بتحليل إيفا مرة أخرى؛ وفي إحدى المرات أشار فرويد في تحليلها إلى السيدة برلنغهام بوصفها «غريمتك»، وبدا له أن جوهر تحليلها كان التغلب على ضروب الغيرة والمنافسة.

وأثناء العطل الصيفية كان فرويد يحلل إيفا روزنفليد كل يوم. وبالمقابل، كانت إيفا تساعده في ترتيب أماكن سكنى عائلة فرويد في الأصياف. ويبدو أن زوجها لم يكن يمتعض من اهتمامها بفرويد. ومع أن إيفا أصبحت محللة نفسانية في السنوات اللاحقة؛ إلا أن مكانتها في بلاط فرويد كانت مكانة شخصية أساساً. ولقد أعجب فرويد بالطريقة التي تغلبت فيها بشجاعة على مأساة خاصة. ولكن فرويد، وبعد ذهاب إيفا إلى ميلاني كلاين من أجل أن تقوم بتحليلها، لم يبق معها سوى يوم واحد فقط؛ لأنه اعتبر ذلك إهانة لصديقتها القديمة آنا فرويد.

أما جيان لامبل دي غرو فكانت طبيبة نفسانية هولندية (مسيحية) غنية ومثقفة مخطوبة لعضو في الهيئة التدريسية في فاغنر جوريغ(*) . ومن ثم فسخت خطوبتها هذه لتتزوج من هانز لامبل، الذي ظل واحداً من أفراد حلقة فرويد لعدّة سنوات بوصفه صديقاً لابنه مارتن. ولكن هانز لامبل ثار في النهاية على ارتباط زوجته الحميم بفرويد؛ فهو كان يريد زوجة، أما بالنسبة لها فإن فرويد كان مركز الأشياء جميعاً. وعندما احتج هانز لامبل بعنف على هذا الوضع، قررت الحلقة المحيطة بآنا فرويد أنه مصاب

(*) عيادة فاغنر جورنغ: عيادة للطب النفسي في جامعة فيينا أسسها زميل دراسة فرويد. يوليوس فاغنر فون جوريغ، كانت معادية جداً للتحليل النفسي، وكان جورنغ شديد الهزء من فرويد وأفكاره.

بالبارانويا(**) ويتعين عليه أن يجد من يحلله. لكن المحلل انتهى إلى أن حالته هي حالة غيرة عادية، ومع انه لم يكن رجلاً لامعاً، فقد كان يعرف متى يفرض على الآخرين الاعتراف بحقوقه أو مكانته، وإلا لكان التفاني في سبيل فرويد قدحرمه من زوجته.

وثمة ماريان كريس ، ابنة أوسكار راي، والتي قبلت في حلقة فرويد بصورة طبيعية. وكانت ماريان أصغر بكثير من أن تمارس تأثيراً على قضايا التحليل النفسي، لكن آنا فرويد رتبت لها أمر قيام فرويد بتحليلها مجاناً. وظل فرويد يعالجها على مدى سنوات ولبضعة أسابيع في كل مرة. وكان فرويد مولعاً بها كثيراً؛ وقامت آنا فرويد بتحليل زوجها أرنست، كما سُمِّيَتْ ابنة ماريان وأرنست على اسم آنا.

وكان والد ماريان كريس، وهو طبيب أطفال، يعالج أطفال فرويد مجاناً، كما كان ايضاً عضواً مواظباً في رباعي لعب الورق مع فرويد، هذا الرباعي الذي ظل طوال سنوات يلتقي في عشيات السبت. وكان فرويد يكن معزّة لهؤلاء الأصدقاء الذين لاعلاقة لهم بالتحليل ، والذين، بخلاف المرضى السابقين، لم يكونوا عبئاً عليه. وواحد من هؤلاء كان لودفيغ روزنبرغ، زوج إحدى شقيقات أوسكار راي وكانت عائلته تقضي الأصياف مع آل فرويد؛ أما ابنة روزنبرغ، آني كاتان، فقد أصبحت محللة نفسانية. وفي هذه الحالة، لم ترتب آنا فرويد أمر قيام والدها بتحليل آني كاتان، وإنما قامت بتحليلها بنفسها، على الرغم من أنها كانت وآني كاتان صديقتين منذ الطفولة.

(**) البارانويا: كلمة يونانية تعني الجنون واختلال الذهن. وهي ذهان مزمن متفاوت في درجة انتظامه، ويغلب عليه التأويل، مع غياب ضعف القوى العقلية، وعدم تطوره عموماً بإتجاه التدهور.

ويُدرج فرويد ضمن البارانويا هذيان الاضطهاد والعظمة، وكذلك العشق والغيرة.

ومن بين اللواتي أتين إلى فرويد والتحليل النفسي من خلال صداقتهن الحميمة مع آنا فرويد كانت دورثي برلنغهام. ولقد رحلت دورثي برلنغهام مع أطفالها الأربعة إلى فيينا قادمة من أمريكا، تاركة هناك زوجها المضطرب. وفي البداية قام ثيودور ايك(*) بتحليلها، ثم تلاه فرويد. كما كانت قريبتها أيضاً في فيينا مع أولادها من أجل التحليل. وباعتبارها أحد أفراد عائلة تيفاني، فإن دورثي برلنغهام كان بمقدورها تحمل دفع تكاليف العلاج عن كامل عائلتها، ولقد كان أطفالها من بين أوائل المرضى عند آنا فرويد.

ولقد سُرَّ فرويد لصداقة آنا مع دورثي، فبالنسبة له كان ذلك يعني أنها كانت الآن في أيد أمينة. وفي عام 1929 كتب فرويد: «إن تعايشنا مع عائلة أميركية (دون زوج)، والتي تعمل ابنتي على تربية أطفالها من الوجهة التحليلية بيدٍ ثابتة، ينمو ويقوى باضطراد، وهكذا فإننا نتقاسم معهم حاجاتنا الخاصة بالصيف»[3]. وفي عام 1932 لاحظ فرويد أن آنا و«صديقتها الأمريكية (التي تملك سيارة) اشترتا وأثثتا كوخاً لقضاء عطلة نهاية الاسبوع»[4]. وكانت آنا فرويد تحب الكلاب، وكان فرويد في شيخوخته «يلعب معهم كما اعتاد أن يلعب بخاتمه»[5] وكانت دورثي، هي

(*)ثيودور رايك (1888-1969) محلل نفساني من تلامذة فرويد. لم يكن طبيباً وإنما درس الفلسفة وقدم أطروحة عن التحليل النفسي. وكانت لديه معرفة واسعة بالأديان. وكانت الدعوى التي أقامها ضده أحد مرضاه ذريعة لكتاب فرويد "مسائل في مزاولة التحليل النفسي" الذي يدافع فيه عن التحليل غير الاختصاصي. ولقد كان رايك شديد التعصب لفرويد وشديد التقليد لأساليب فرويد في مختلف المناحي، ومع ذلك فقد ابتعد لاحقاً عن أفكاره واختلف معه. [انظر كتاب "سيكولوجيا العلاقات الجنسية"، ترجمة ثائر ديب، والذي صدر عن الحوار في جزئين، "الدافع الجنسي" و"الحب بين الشهوة والأنا"].

خلال قريب لها يعيش في باريس ويربي الكلاب الصينية الأصل، هي المصدر الأساسي ليس لكلاب فرويد وحسب، وإنما أيضاً للكلاب الصينية التي أخذها أعضاء آخرون في حلقة فرويد، مثل آل لامبل، والهولنديون، وإديث جاكسون . ولقد كان لدورثي كثيراً من التماس غيرالتحليلي مع فرويد وعائلته، ولكن دخول دورثي برلنغهام إليهم، وبخلاف دخول روث برونشفيك المباشر، أتى من خلال صداقتهما مع آنا فرويد. ولقد أضحت آنا أماً ثانية لأطفال دورثي، كما كانت دورثي واحدة ممن تلقين خواتم فرويد.

لم تكن أي من النساء المحيطات بفرويد أنيقة أو عصرية. إن تفانيهن بلا حدود في سبيل التحليل النفسي بدا وكأنه يستنفد طاقاتهن. وعندما يجتمعن معاً في المطاعم كن يرتدين ثياباً غير «أنيقة» على نحو لافت للأنظار لدرجة أن خدم المطاعم كانوا يعرفون أنهن ينتمين معاً إلى جماعة واحدة. ولقد نزع فرويد إلى الاتكال على حكم آنا على هؤلاء النساء. كما بقي متحفظاً وحذراً، محاولاً ألا ينهمك مع إحداهن في قيل وقال عن الأخرى.

وبصرف النظر عن آنا فرويد، فإن الأميرة ماري بونابرت (1882-1962) كانت، في أواخر حياة فرويد، هي الأشد اهمية بين تلميذاته النساء. وفرويد الذي لم يكن ليحلل في العادة أكثر من خمسة مرضى، ما كان إلا ليفسح مجالاً لماري بونابرت (شأن ماريان كريس أو روث برونشفيك) كلما أسعفه الوقت. وكانت ماري بونابرت معروفة في حلقة فرويد باسم «الأميرة» وحسب؛ فقد كانت سليلة مباشرة للوسيان أخ نابليون. وبالإضافة إلى ذلك، كانت ماري بونابرت، ومن خلال الزواج، واحدة من أفراد العوائل الملكية الأشد احتراماً في أوروبا، فزوجها ، الأمير جورج، كان أخاً لملك اليونان الراحل وكذلك واحداً من أفراد العائلة المالكة في الدنمارك. وكانت ماري قد أرادت، في شبابها، أن تصبح طبيبة،

لكن والدها، الجغرافي والانثربولوجي، حرمها من ذلك في حينه على أساس أنه لايليق بابنة عائلة من الأمراء.

أما زوجها، البسيط وغير المثقف، فكان أكبر منها بكثير، وتعامل مع انخراطها في التحليل النفسي وكأنه نوع من اللهو وتمضية الوقت؛ إلا أنه في الوقت ذاته كان يكن احتراماً عميقاً لفرويد. وعلى الرغم من علاقة ماري وزوجها المتسمة بالولع والتعلق فقد كانا متباعدين، وغالباً ماعاشا منفصلين. ولقد كان لدى فرويد شيئاً مما نجده لدى النفاج(*) ، كما استساغ البقية في حلقته احتمال التعرّف الذي لم يتم أبداً على أشخاص قد يلتقونهم عند الأميرة ـ ملك النروج، ربما، أو أفراد آخرين من النبلاء. (كان لدى التحليل النفسي أميرة أخرى، هي زوجة جوسيب دي لامبيدوزا مؤلف النمر) . وإذا ما كان فرويد يكن احتراماً شديداً للمال والأغنياء، فإن ذلك مرده إلى اهتمامه بالحركة التي كان يقودها.

كانت ماري بونابرت شخصية رفيعة ذات أخطاء مدهشة بقدر إدهاش فضائلها. ولقد أتت إلى فرويد لأول مرة عام 1925 ؛ وكما قالت: "لقد ذهبت إلى فيينا في عام 1925 لكي أخضع للتحليل على يد البروفسور فرويد. . . وهكذا سنحت لي الفرصة للتعرف على عائلته"[6]. وخلال الأشهر الثلاثة الأولى كانت ماري تكتب وصفاً لتحليلها، لكن فرويد طلب منها أن تكفّ عن ذلك . وكانت ماري بمثابة فرصة طيبة بالنسبة لفرويد، ذلك أنه أعاد بناء مشهد باكر من حياتها لم تستطع أن تتذكره لكنها تمكنت من إثباته والتأكد منه عن طريق شهود عيان أحياء[7].

وفي عام 1926، ومن خلال ماري، أرسل فرويد مبادرته لتأسيس

(*)النفّاج: هو الشخص الذي يحاول إقامة الروابط مع عليّة القوم ويزدري من ينتمون إلى المراتب الاجتماعية الدنيا. وهو الشخص الذي يشعر بأنه أرفع من الآخرين ويبدي الغرور فيما يتعلق بذوقه واهتماماته.

جمعية فرنسية للتحليل النفسي. ولقد كان لماري نفوذ واسع بوصفها نصيرة لفرويد، مع أنها كانت هي بالذات عرضة للهجوم. فعلى الرغم من كونها ثرية واميرة، إلا إنها كانت إمرأة و لم تحصل على درجة طبية. اما في عالمها الخاص، عالم الارستقراطية الدولية، فقد تضررت مكانتها بحقيقة أن جدها لأمها كان المؤسس (اليهودي) لكازينو مونت كارلو للعب القمار. وعلى الرغم من زواجها، فقد تم توبيخها في محكمة في أثينا بسبب الأموال التي من المفترض أنها "ملوثة". وفي حين كانت معروفة جيداً في المجتمع الباريسي، إلا أنها كانت منبوذة نوعاً ما بين الارستقراطية الأوربية؛ وهكذا عزمت على الالتحاق بحركة كاملة من المنبوذين، أي بالمحللين النفسانيين، والتي كانت ماري في نظرهم ذات منزلة اجتماعية لا تضاهى. ولقد شعرت هي والمحللون على حدّ سواء بتقدير متزايد للذات من جرّاء انخراطها في التحليل النفسي[8].

كان ثمة في فرنسا أطباء نفسانيون ممتازون وتقليد محلي في العلاج النفسي؛ ولذا لم يكن للجهود التنظيمية التي بذلتها ماري تأثيرٌ كبيرٌ أبداً. وعلى الرغم من مكانة فرويد، إلا أن الفرنسيين نظروا إليه في البدء على انه نوع من النفوذ الألماني، وبالتالي الغريب، وبخلاف البريطانيين، فقد اهتموا في السنوات اللاحقة بالجانب الميتافيزيقي من مذهب فرويد أكثر من اهتمامهم بالجانب السريري. بيد أن التحليل النفسي، وعلى أية حال، لم يؤخذ في فرنسا على محمل الجد حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية. ومن بين المحليين الاوائل في فرنسا لم يكن هناك سوى قلة قليلة ممن يعدون فرنسيين حقاً، ومن المعروف أن فرنسا وطنية حين يتعلق الأمر بتقبلها للأفكار الجديدة. وكان المحللون الأوائل فيها (كما في انجلترا) من الأجانب معظمهم - سويسريون، أو بولنديون، أو إلزاسيون. وعلاوةً، فإنّ عائلة الأميرة ماري بونابرت كانت تعتبر عائلة دولية أكثر منها فرنسية على وجه الخصوص.

ولقد أصبحت ماري، شأن هانز ساكس(*) ، مريدةً لفرويد نـذرت نفسها كلياً لهذا الأمر. وتخلّت عن كل شيء من أجل التحليـل النفسـي – اهتمامها بالأدب، وحياتها كأميرة – وبالمقابل فقد رفعها ارتباطها بفرويـد إلى موقع أرفع بكثير من مستواها الفكري الطبيعي. وعلى الرغـم مـن أن انخراطها مع فرويد قد فاق أي اهتمام آخر لديها، إلا أنـه قـد هـيّء لها في الوقت ذاته مدخلاً لفهم علم ا لنفس.

و لم تكن ماري قادرة على مجاراة بعض تلامذة فرويد الآخريـن في مجال الكتابة أو الفكر؛ وكـان «من الواضـح أنهـا غـير قـادرة علـى لعب دورها على الصعيد العلمي»[9]. إلا أنها كتبت دراسة مطوّلة عن إدغار آلـن بو، وصدرت لها مع تقديم بقلم فرويد. وبالنسبة لفرويد فقد ظلت أساسـاً «أميرتنا» ومحسنة على قضيته. ذلك أنها موّلت بعثة أنثروبولوجية قـام بهـا جيزا روهايم إلى استراليا، على الرغم من أن فرويد قـد خـاب أمله لنتـائج العمل الميداني. كما كانت أيضاً تسعف الطباعة التحليلية النفسية كلمـا وقعت في ضائقة مالية.

لقد شجّع فرويد ما كان قـد بـدأ لـدى مـاري مـن تحويـل تجاهـه. وكانت ماري من ذلك الصنف من النساء الجميلات والنرجسيات اللواتـي بدا لهن فرويد ذا سحر خاص ومميّز[10]. كما كـانت مـاري جذابـة ومغريـة، وذات مزاج حيوي، وبلغ الأمر حدّ القول إنهـا كـانت ذات مـرّة عشيقة

(*)هانز ساكس (1881-1947): محلل نفساني من فيينا. هجر القـانون وقـرر ممارسـة التحليل النفسـي مع أنه لم يكن طبيباً. وما أن فعل ذلك حتى أصبح عـالم فرويـد مركـز حياته. ولقد كرس نفسه بالدرجة الأولى لتحليل محللي المستقبل ومـن بـين هـؤلاء كـان إريك فروم وكارين هورني. وهو عضو في اللجنة السرية التي أسسها فرويد. وكان مـن مؤسسي مجلة "إيماغو" ومحرراً فيها. وربمـا كـان تعامله مـع التحليـل النفسـي أقـرب إلى اعتباره نوعاً من الدين.

ارستيدبريان. أما في الحلقة الضيقة المحيطة بفرويد، فكانت الأميرة ماري واحدة من الشخصيات الأولى. وكانت مع روث برونشفيك الأكثر قرباً من فرويد؛ وحين كانت ماري في فيينا، كانت تقيم في بيت روث، كما قامت روث ومعها مارك بزيارتها في باريس. وغالباً جداً ما كانت ماري وروث تستأجران معاً فيلا لقضاء الصيف. وخلال الأصياف كانت هؤلاء النساء – ماري بونابرت، روث برونشفيك، دورثي برلنغهام، إيفا روزنفيلد – يشكّلن ما يشبه المستعمرة التي تحيط بفرويد. وفي إحدى المرات قمن باستئجار خمس بيوت معاً – واحد لكل من ماري، وروث، ودورثي، وإيفا، والخامس لآل فرويد.

كان لآنا على الدوام موقعها الخاص بوصفها ابنة فرويد. كما كان ثمة تباعد غريب بينهما في نقاط عديدة. وعلى سبيل المثال، فإن فرويد لم يناقش معها أبداً مسألة التحويل الفكري Thought- Transference أو التخاطر. بيد أنه كان ثمة نوع من المقايضة بين فرويد وابنته الصغرى، فإذا ما كان أحد ما مهماً بالنسبة لآنا مثل سيغفريد بيرنفيلد، فإن ذلك كان كافياً لإقامته علاقة مع فرويد.

وكانت آنا معجبة أيما إعجاب بسيغفريد بيرنفيلد؛ وحين بدأت بإلقاء محاضراتها لأول مرة، كانت تتطلع إلى تشجيعه ومؤازرته. وعلى الرغم من أنه كان متزوجاً وأكبر سناً من آنا بكثير، إلا أنها عملت على إدخاله إلى حلقة فرويد الضيقة. كما أصبح واحداً من أفراد عائلة فرويد الواسعة بفضل تقديم آنا له. ومثل هانز لامبل، كان بيرنفيلد بمثابة الأخ الأكبر لآنا؛ بيد أنه، وبخلاف لامبل، كان ذا عقل من الطراز الأول، كما قيل عن وجهه أنه كان يشبه وجه سافونا رولا[*] في حدة ملامحه وقوتها.

---

[*] جوورلامو فونارولا (1452-1498): راهب ومصلح ديني ايطالي. شنّ حملة على الفساد الأخلاقي الذي عرفته الكنسية في عصره.

ولم تكن آنا لتبدو سلسةً مع الرجال إلا في البيت. بيد أن تأثيرها وأسلوبها الفخم كانا كفيلين بزرع القلق في صدر أي رجل تقريباً. وكان بيرنفيلد، الذي طلق زوجته، يفضّل نمطاً من النساء أكثر إثارة، وتزوج من مريضة سابقة من مريضات فرويد. وعلى الرغم من أن بيرنفيلد لم يباشر مزاولة التحليل قبل عام 1921، إلا أنه كان يحضر اجتماعات جمعية فيينا منذ عام 1913م. بيد أن خيبة أمل فرويد منه قد تنامت، ولعل خيبة الأمل هذه كانت تعكس جزئياً على الأقل مشاعر آنا فرويد الخاصة. ومع ذلك، فقد قدّم بيرنفيلد إسهامات تاريخية ملفتة للانتباه فيما يتعلق بفهمنا لمجرى حياة فرويد الباكرة[11].

وعلى الرغم من أن آنا قد دخلت إلى الساحة متأخرة عن بعضهم، وعلى الرغم من منافسيها الكثر، وخاصة بين النساء في حلقة فرويد، إلا أنها أزاحت الجميع في نهاية المطاف. ولقد أصبحت محللة نفسانية قبل فترة وجيزة من بدء الصراع بين فرويد ورانك، وعملت على سدّ الثغرة التي خلفها هذا الأخير. وفي النهاية صارت تؤدي كل ما يمكن لبديل رانك أن يؤديه من وظائف. وكما كان غوته يستخدم ابنه ليمثله في المناسبات الرسمية، هكذا كان فرويد يرسل آنا لتلقي الكلمات وتلقي الحفاوة والتكريم. ونظراً لمرضه فإن فرويد كان يجد الكلام أمام الجمهور صعباً، ولذا لم تكن آنا تلقي خطاباته في المراسم وحسب وإنما كانت أيضاً تقرأ مقالاته في المؤتمرات التحليلية النفسية في عام 1925، و1927، ومن ثم في عام 1938 أيضاً. وشعر فرويد أن آنا ستكون مضطرةً بعد موته لأن تكسب عيشها، ولقد تمّ التخطيط، جزئياً على الأقل، لإحلالها محله من أجل أن تأخذ سبيلها إلى الثروة بحكم حقها الشخصي.

ويشتمل دور آنا أيضاً على عملها كممرضة خاصة لفرويد. فقد خضع فرويد لعمليات جراحية متكررة، وواظبت آنا على العناية به ورعايته. ولقد كانت عوناً له في معاناته؛ ومن دونها ما كان ليعيش ستين

سنة منذ إصابته بالسرطان. وها هو يكتب في آخر سنة من عمره: «إن اعتمادي عليها يتزايد أكثر فأكثر في حين يقل اعتمادي على ذاتي»[12].

وفي ذلك الحين كانت آنا هي التي ترافق فرويد في نزهاته. وذلك بدلاً من مينا أخت زوجته، تلك المعجبة به دون انتقاد، والتي كانت تصغي جيداً لأفكاره؛ وغالباً ما كان يناقش معها حالات مرضاه. ولقد اضطلعت آنا بالوظائف التي كانت مينا تؤديها، ماعدا دورها كشريك فرويد في لعب الورق. بيدأن ماقبلته زوجة فرويد من أختها أصبح مصدراً لخصومة بين الأم وابنتها؛ ولقد اعتادت زوجة البروفسور أن تقول عن آنا إنها «إبنة حنونة»، لكن ذلك لم يَحُلْ دون بروز مالديها من قسوة. أما آنا فكانت مستاءة من أن أمها قد ألقت مثل هذا العبء على عاتق ابنتها ولم تكن قادرة على تلبية احتياجات فرويد. وكلما كانت مارتا تزداد عجزاً، كان يتعزز لدى آنا الشعور بأنها ابنة غير مرغوب بها لدى أمها، وبالتالي كانت تتزايد أهمية والدها بالنسبة لها.

كان فرويد فخوراً بعمل ابنته محللة نفسانية للأطفال. وفي عام 1926 عبّر فرويد عن اعتقاده أن التحليل النفسي للطفل «وسيلة ممتازة للوقاية من المرض»[13]. وهكذا فقد اعتبر فرويد أن من الملائم تدريب عدد آخر من المحللين النفسانيين للأطفال، في حين كانت آنا فرويد تنتقل أيضاً وبالتدريج إلى تحليل البالغين. وفي عام 1935 كتب فرويد في إحدى رسائله أن «إحدى النقاط المضيئة في حياتي هي نجاح عمل آنا»[14]. وعند رحيل فرويد إلى لندن، كانت آنا هي المسؤولة عن النفقات، على الأقل حين صارت هذه المسألة واحدة من المسائل العائلية الحساسة(*).

ولقد كان عمل آنا فرويد متعارضاً بمعنى المعاني مع ما يمكن أن

(*)عندما تركت إيستي فرويد زوجها مارتن، كانت آنا فرويد ترسل لها النقود من لندن. بول روازين.

ندعوه حياتها الخصوصية. فآنا التي كانت تنأى بنفسها عن الملابس الأنيقة العصرية، صارت عانساً متقدّمة وهي ترتدي ثياباً سوداء، واسعة وطويلة إلى الكاحلين؛ وكانت تقّص شعرها قصيراً؛ أما رياضتها المفضلة فكانت ركوب الخيل. ولقد حرمتها علاقتها بوالدها مما في الحياة من امتلاء كما تعارف عليه الناس. ولقد أمكن لآنا أن تكون فاتنة إلى أبعد حدّ، لكن الاحتشام المفرط الذي تشرّبته لم يسمح لها أبداً بتخطي حاجز الخوف الأخير فيما يتعلق بالرجال. وآنا التي شاركت والدها اهتماماته، كانت متحدة معه روحياً إلى درجة كبيرة. وعلى الرغم من أنها عاشت حياتها على هذا النحو، فإنها لم تكن تطيق أن يكون والدها مجرد رجل وحسب. ووحدها عبقرية فرويد يمكن أن تبرر تلك التضحية التي قدمتها آنا.

المراجع

(1) ماكس شور، «تاريخ فرويد الطبي»، ص11 .

(2) رسالة من آنا فرويد إلى أرنست جونز، 8 تموز 1935 (محفوظات جونز).

(3) أوردها بينسفاغنر، فرويد، ص88 .

(4) رسائل سيغموند فرويد وأرنولد زفايغ، تحرير آرنست فرويد، ترجمة إيلين ووليام روبسون - سكوت (نيويورك، Harcourt، Brace & World ، 1970)، ص39 .

(5) هانز ساكس، فرويد، معلماً وصديقاً (لندن، إيماغو، 1945)، ص169 .

(6) ماري بونابرت، «تقديم»، في مارتن فرويدReflected Glory لندن : Angus & Robertson، 1957)،ص6 .

(7) ماري بونابرت، «ملاحظات حول الاكتشاف التحليلي لمشهد أولي»، الدراسة التحليلية النفسية للطفل، المجلد 1، تحرير روث إيسلر (نيويورك: مطبعة الجامعات الدولية؛ 1945)، ص119-125 .

(8) مقابلة مع إيريك فروم، 5 كانون الثاني 1966 .

(9) فلاديمير غرانوف وفيكتور سميرنوف «تاريخ التحليل النفسي في فرنسا»، صIII مخطوط».

(10) «في النرجسية»، الطبعة المعيارية، المجلد 14، ص 89 . انظر أيضاً رسالة من ماكس شور إلى آرنست جونز، 30 أيلول 1955.

(11) انظر «شذرة سيرية ذاتية مجهولة لفرويد"The American Imago، المجلد 4، العدد 1 (آب 1946) ص 3-19، نظريات فرويد الباكرة ومدرسة هلمهولتز"، Psychoanalytic Quraterly، المجلد 13، العدد 3 (1944)، ص341-362؛ مع سوزان كاسيرر بيرنفيلد، «طفولة فرويد الأولى"Bulletin Of The Menninger Clinic، المجلد 8 (1944)، ص 107-115؛ «بدايات فرويد العلمية»، في الكتاب السنوي للتحليل النفسي، المجلد 6، تحرير ساندرور لوراند (نيويورك: مطبعة الجامعات الدولية؛ 1951)، ص 24-50؛ «دراسات فرويد في الكوكائين، 1884-1887»، مجلة الجمعية الأميركية للتحليل النفسي، المجلد 1، العدد 4 (تشرين الأول 1953)،

ص581-613؛ «سيغموند فرويد، طبيباً»، المجلة الدولية للتحليل النفسي» المجلد 32 (1951)، ص204-217 .

(12) أورده جونز، سيغموند فرويد، المجلد 3، ص241 .

(13) مسألة التحليل غير الاختصاصي»، ص 249 .

(14) أورده جونز، سيغموند فرويد، المجلد 3، ص195 .

- 5 -

آنا فرويد

«سيكولوجيا الأنا»

من الواضح أن قرار فرويد في الهجرة إلى انجلترا بدلاً من اميركا في عام 1938 كان مسألة تتعلق براحته هو، وليس براحة آنا ابنته. ذلك أن انجلترا كانت موطن المدرسة الوحيدة المنافسة في التحليل النفسي للطفل، أي مدرسة ميلاني كلاين. وعلى الرغم من أن آنا كانت مسالمة نسبياً بالمقارنة مع قتاليّة ميلاني كلاين، إلا أن الحزازة قديمة العهد بين المرأتين كانت تنذر في فترة مابانشقاق جمعية التحليل النفسي الانجليزية.

وقبل مغادرته فيينا في ربيع عام 1938، عبّر فرويد عن أمله في أن آنا «ستكون قادرة في انجلترا أيضاً على فعل الكثير من أجل التحليل، وأنها لن تتطفّل على أحد»[1]. وبالفعل، فقد أسست آنا بعد الحرب العالمية الثانية، ومع دورثي برلنغهام، عيادة هامستد لعلاج الأطفال، والمؤلفة في غالبيتها من مجموعة من العاملين الذين لم يحصلوا على تأهيل طبي والمنهمكين في مراقبة ومعالجة الأطفال. وإنه لمن الصعب أن نتخيّل فرويد قائداً لمثل هذه العيادة أو متعاوناً معها، حيث كان مرتهناً لممارسة العلاج الفردي. في حين أن خلفية آنا فرويد كمعلمة مكّنتها من تشريب عيادتها بالجوّ البيداغوجي الذي أثبت نجاعته. وكانت المؤتمرات تباشر أعمالها في مواعيدها الدقيقة شأن الاجتماعات التي كان فرويد يعقدها في فيينا. وفي عام 1956، وبمناسبة الذكرى المئوية لمولد فرويد، ازدادت الأموال التي تمّ التبرع بها على شرف فرويد، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية،

وعبّرت هذه الأموال الأقنية حتى وصلت إلى عيادة آنا فرويد، الأمر الـذي أثار استياء قادة أخرين في الجمعية البريطانية للتحليل النفسي.

في حياة فرويد لم تكن آنا أبداً قـائدة في حركـة التحليـل النفسـي بحكم حقها الشخصي، أما الآن فقد ورثت عرش فرويـد. كمـا استمدّت أيضاً سلطة خاصة من حيازتها رسائل فرويـد ومخطوطاتـه (حيـث تدبّـرت هذا الأمر بمساعدة أخيها أرنست، فضلاً عن النصيحـة الـتي أسـداها إليهـا المحللون القادة). وعلاوةً، فقد كانت آنا، شأن والدها، تلـك المُعالجـة الـتي تحوّل المحللون النفسانيون الآخرون البارزون إلى مشكلة شخصية بالنسبة لها مع مرور الزمن؛ فهي لم تحلـل أناسـاً مثـل روبـرت وايلـدر وحسـب، بـل عالجت أيضاً أطفال بعض المحللين ذوي الشهرة.

وعلى الرغم من إبقاء آنا فرويد قضية التحليـل غـير الاختصاصي حيّة، فإنها لم تثر أية نزاعات كـبرى مـن مستوى تلـك الـتي انخـرط فيهـا والدها ذات مرة. ولعلها قد نفرت من إحـدى مقـالات إريكسـون(*) عـن والدها أو احتقرت ثيـودور رايـك بكـل مـا في الكلمـة مـن معنـى، إلا أن مشاعرها [2] لم تؤدِ إلى الشروع في نزاعات علنية جديدة في حركة بلغ تعداد المحللين فيها مايربو على الألفين مـن ذوي الأهليـة الكاملـة. ولكنهـا ظلّـت تشارك والدها ذلك العداء الذي كان يكنّه تجاه تلاميذه المرتدّين. وبدلاً من أن ترى في خسارة أدلر يونغ نوعاً من الطالع السيء الـذي أفقـر التحليـل،

(*) إريك إريكسون: كان رساماً في الأصل، وحين بـدأ بالتحليل النفسـي للأطفـال لم يكن يحمل أية درجة أكاديمية رسمية. ومع ذلك فإن أعمال إريكسون اللاحقـة مثـال لمـا يمكن أن يقدمه المحللون النفسانيون من غير الأطباء. قامت آنا فرويـد بتحليلـه. وفي عـام 1933 تخرج من معهـد التحليـل النفسـي في فيينـا وأصبـح كـامل العضويـة في الجمعيـة التحليلية النفسية. ومن ثم هاجر إلى أمريكا ومن هناك عارض فرويد بقوة. ويُعَدّ مفهوم "قوة الأنا" واحداً من المفاهيم الأساسية التي قدمها واستخدمها في وقوفه ضد فرويد.

فقد فضّلت،وهي تقرأ عرض جونز لتلك النزاعات الباكرة، أن تجد متعة بالغة في ماعتبرته ضراوة «المقاومة» ضدّ والدها[3].

ولقد أبدت آنا فرويد نوعاً من الاستياء تجاه كثير من المحللين القدامى الذين ارتبطوا بوالدها بروابط متينة لم تمتد لتطالها هي نفسها. والواقع هو أن وجهات النظر تجاه آنا كانت تختلف باختلاف أجيال المحللين. وبوجه عام، فإن أولئك الذين عرفوا فرويد قبل نهاية الحرب العالمية الأولى كانوا أقل ميلاً إلى إبداء الولاء ذاته تجاه آنا فرويد قياساً بأولئك الذين قَدِموا إلى التحليل النفسي في العشرينات والثلاثينات.

ولقد فهمت آنا، شأنها شأن فرويد نفسه، ما للتقليد من سلطة; ولذا سافرت إلى جامعة كلارك المغمورة في ووركستر، التابعة لولاية ماساشوسيتس، لنيل درجة فخرية، ذلك أن هذه الجامعة ذاتها كانت قد منحت والدها درجة فخرية مماثلة قبل ذلك بنصف قرن. (وبعد ذلك تلقّت آنا جائزة دوللي ماديسون التابعة لمركز هيلكريست للأطفال عام 1965 وفي البيت الأبيض، فضلاً عن درجات فخرية من جامعة يال، وجامعة شيكاغو، وجامعة فيينا). ومثل والدها،كانت آنا تبدي استحسانها وموافقتها على أعمال تلاميذ أثيرين لديها فتكتب مقدّمات لمقالاتهم وكتبهم، كما كانت تهدي صورها الفوتوغرافية الشخصية كعلامة على استحسانها الشخصي. وبلغ الأمر في شيخوختها حدّ اكتسابها لحركات وإيماءات فرويد المميزة.

وعلى الرغم من أن آنا فرويد لم تحظ بعبقرية والدها، فقد ورثت بعضاً من موهبته اللغوية، ووضوح فكره وتعبيره، وقدرته على الارتجال، وكأن كلاهما ذا عزم وطيد ويشعر أنه صاحب رسالة، كما دفع كل منهما جانباً بكل ماكان يهدد باعتراض سبيله.

ولقد تحولت آنا، تحت ثقل المركز القيادي الذي تبوأته، من تلك الفتاة الشابة الخجولة واللطيفة إلى سيدة مشهورة.ولقد تبنى المحللون

الأميركيون خاصةً طبعة أعمالها الكاملة، وراحوا يقتبسون منها ويستشهدون بها على نحو يكاد يكون طقوسياً. وتتميّز آنا فرويد بدفء أقل من دفء والدها، وتعبّر عن نفسها بألفاظ أكثر تكلّفاً لدرجة تجعل لغتها متأنقةً ببلاغتها. وعلى الرغم مما في أسلوبها من عذوبة مسرفة،فقد كانت قادرة على التلاؤم مع دورها كزعيمة محاربة لحركة متهيأةٍ للصراع.

كان مركز عمل آنا فرويد هو 20 ماريسفيلد غاردنز، في هامستد، لندن، وهو البيت الذي توفي فيه فرويد. والبيوت التي تُكَرَّس بصورة رسمية للرجال العظماء لا تنطوي في الغالب إلا على علاقة عَرَضية مع أهميتها في حياة هؤلاء الرجال. ولقد اكتسب هذا البيت أهمية عظيمة على الرغم من أن فرويد لم يعش هناك إلا مايقارب عاماً واحداً؛ في حين لم تُعتبر شقته في فيينا موقعاً تاريخياً إلا مؤخراً، وحتى ذلك الحين كان نصفها مؤجراً لبعض العائلات للسكن بينما كان القسم الآخر محلاً للخياطة. وكانت آنا فرويد في هذه الأثناء قد حوّلت بيته في ماريسفيلد غاردنز إلى مزار إحياءً لذكرى والدها.

وفضلاً عن إسهاماتها العيادية، فإن الإسهامات النظرية التي قدمتها آنا فرويد تتسم بأهمية خاصة. فعلى الرغم من ترددها في البداية حيال مفاهيم هينز هارتمان(*) ، وارتيابها الشديد حيال كتابات تلميذها السابق إريك إريكسون، فقد كانت ضمن التحليل النفسي الأرثوذكسي واحدة من تلك القوى الباكرة، وشديدة التأثير دون شك، التي شددت على مايتمتع به الأنا ego من قدرات دفاعية. وكان فرويد في البداية قد ألح على الدوافع الغريزة instinctual drives ؛ وبدأ في العشرينات

(*)هينز هارتمان (1894-1970) واحد من المنظرين البارزين في التحليل النفسي الأرثوذكسي. ركّز على "التكيّف" بوصفه الفكرة المركزية بدلاً من "الصراع" عند فرويد، وبالتالي فقد ركّز على أن "الأنا" مستقل عن الصراعات الداخلية.

بتوصيف الإواليات mechanisms التي تستخدمها النفس في التغلّب ليس على المخاطر الداخلية وحسب بل وعلى التهديدات الواردة من الخارج أيضاً. وعلى الرغم من أن فرويد وغيره من المحللين الآخرين، وخاصة رايش(*) ، كانوا قد سبقوها إلى العمل على بنية الطبع character structure قبل أن تقدّم إسهامها الخاص في هذا المجال، إلا أنها في كتابها الأكثر شهرة **الأنا وإواليات الدفاع**، الذي أهدته إلى والدها في عيد ميلاده الثمانين، قامت بتنسيق وتنظيم كل ما كان معروفاً في التحليل النفسي آنذاك عن سيكولوجيا الأنا. ولقد ناقشت في هذا الكتاب ظواهر النكوص regression، والكبت repression، والتكوين العكسي reaction - formation، والعَزْل isolation، والإلغاء الرجعي undoing، والإسقاط projection، والإستدماج introjection، والانقلاب على الذات turning against the self، والإنكار denial، والتماهي بالمعتدي identification with the aggressor وكل ذلك من وجهة نظر الكيفية التي يمكن فيها لأنا شخص ما أن يلجأ

(*) ويلهام رايش (1897-1957): واحد من تلامذة فرويد الشباب الأشد موهبة، على الرغم من أنه لم يتحمل البقاء ضمن الإطار التحليلي النفسي الارثوذكسي. حاول أن يبيّن أن المسألة الأساسية التي ينبغي دراستها ومعالجتها ليست الأعراض المرضية وإنما الشخصية بكاملها. دافع عن الإشباع الجنسي الحرّ والكامل. وكان ماركسياً وواحداً من المحللين القلائل في أيامه الذين كانوا قادرين على بناء الجسور بين التحليل النفسي وعلم الاجتماع. واقترح منع نشوء المشاكل الأوديبية وعدم الإكتفاء بمعالجتها وحسب. وكان يعتقد أن المفتاح لتخفيف للمعاناة البشرية هو تغيير بنية العائلة الغربية التقليدية. طُردَ من الجمعية الدولية للتحليل النفسي ومن المنظمات الماركسية. وفي أواخر حياته سيطر عليه الاضطراب الذهني وانتهت حياته في أحد السجون الأميركية. وأتلفت الحكومة الأميركية كتبه.

إلى مثل هذه الوسائل كي يمكنه الثبات والاحتمال.

وبوجه عام، فإن فرويد كان قد اعتبر سيكولوجيا الأنا بمثابة مُسلمّة. وحين حاولت آنا فرويد أن تجمع على نحو منسجم بين ماقيل عن الأنا اللاواعي، فقد اعتبرت أن الإعلاء أو التصعيد sublimation ذاته هو بمثابة إحدى الإواليات الدفاعية لدى العقل[4]. ومن منظور اليوم، فإن الدفاع هو إوالية عصابية. وربما كان على المرء أن يفكر بالإعلاء كبديل للعصاب من حيث المبدأ. إلا أن آنا فرويد كانت ماتزال محتفظة بكثير من الاهتمام التحليلي الباكر بالشذوذ والمرض بحيث صنفت الإعلاء بين قائمة الإواليات الدفاعية.

وخلال الحرب العالمية الثانية، أدارت آنا فرويد مع دورثي برلنغهام حضانة للأطفال الذين لم يكن بمكن لأهلهم أن يتواجدوا معهم. وبما أن هؤلاء الأطفال كانوا أسوياء، فقد كانت حدود التفكير التحليلي النفسي الباكر تشكّل تحدياً لآنا وصديقتها، مثل آخرين سبقوهما. فحالما كان الأطفال ينفصلون عن امهاتهم، كانت تنطلق ضروب من كفّ التطور وينكص هؤلاء الأطفال. وكان هذا مثال على أن البيئة تؤثر على الحياة الغريزية، بتوسّط أناوات egos الأطفال؛ ذلك أنه حالما كانت تتوطد علاقة ثابتة مع أم بديلة من تلك النساء المشتغلات في العيادة، كانت العلامات والأعراض الظاهرة تختفي و«يبدأ الأطفال بالتطور بسرعة فائقة»[5]. واستنتجت آنا لاحقاً أنه «بنمو علاقات جيدة مع الموضوع، أضحت العدوانية مقيّدة وتضاءلت تجلياتها حتى وصلت إلى مقادير سويّة»[6]. وقد يبدو استخدام تعبير مثل «العلاقات مع الموضوع» بمثابة طريقة باردة جداً وخالية من الشعور في وصف التفاعلات البشرية الحميمة، بيد أن الإلحاح على «العلاقات مع الموضوع»، والذي تمّ تطويره جزئياً في عيادة تافيستوك في لندن، خطا خطوة واسعة بعيداً عن التركيز على المشاكل الأوديبية الكلاسيكية. وبفضل عملهما أثناء الحرب العالمية

الثانية،توصلت آنا فرويد ودوروثي برلنغهام أخيراً، ودون أن تشيرا إلى اختلافهما مع فرويد، إلى استنتاج مفاده أن «علاقة الرضيع الانفعالية بأبيه تبدأ في فترة من الحياة تالية لعلاقته بأمه...»[7].

ولقد انطوى اهتمام آنا فرويد بسيرورات الأنا على تضمينات تتعلق بنظرتها إلى التقنية التحليلية النفسية. فقد بدت أقلّ تشدداً من فرويد في توصياته التي سبقت الحرب العالمية الأولى والتي أوصى بها محللي المستقبل، وذلك على الرغم من أن آنا لم تتخل عن انسجامها مع الممارسة العيادية الفيينية السائدة:

بقدر مايكون المريض محتفظاً بجزء سليم من شخصيته، فإن علاقته الواقعية بالمحلّل لا تحتجب كلياً أبداً. وعلى الرغم من احترامي الشديد والواجب لإجراء التحليل الصارم والضروري، فإني ما أزال أشعر بأننا ينبغي أن نغادر الغرفة إلى مكان ما لنتحقق من أن المُحلل والمريض هما أيضاً شخصان واقعيان، وراشدان كلاهما، وتربط واحدهما بالآخر علاقة شخصية واقعية[8].

وفي مقاربتها معالجة الأطفال، رفضت آنا فرويد، بخلاف ميلاني كلاين، التعويل المفرط على اللعب كتقنية. وكانت تعتقد أن اللعب، شأنه شأن التفسيرات الرمزية الأخرى للسلوك، أصلب بكثير من أن يتسع للتنوع الشديد في عقل الطفل. ووصف آنا فرويد للنشاطات الذهنية لدى الأطفال الصغار هو وصف بارع، ودليل على الاحترام الذي أفصحت عنه تعاليم فرويد تجاه السيكولوجيا البشرية.

ولقد حثّ عمل آنا فرويد آخرين من العاملين في السيكولوجيا العيادية ودفعهم إلى التفكير في تلك الأجزاء من النفس والتي هي أجزاء تكيفيّة adaptive أكثر منها مجرد أعراض مرضية. وعلى الرغم من تركّز مقاربتها البدئية للأنا على وظائفه الدفاعية، إلا أن عملها مع الأطفال كان قد جعلها في عام 1960 حسّاسة تجاه «التنوع المذهل في التجليات

المرضية، أو التي تبدو مرضية في الظاهر» والتي بدا لها أنها «تستدعي تصنيفات تشخيصية جديدة لا تقوم على مبحث الأعراض بل على اعتبارات تطورية»[9] وراحت آنا تلحّ بصورة متزايدة على فهم ماقد يكون متوافقاً لدى الطفل مع مستوى معين من السن، بحيث يصبح التمييز ممكناً بين المشاكل العصابية الخطيرة واضطرابات يمكن اعتبارها مجرد أطوار تطورية عابرة[10].

وانسجاماً مع اتجاه في التحليل النفسي كان اتجاهاً رئيساً منذ موت فرويد، حاولت آنا فرويد في أعمالها توسيع نطاق التفكير العيادي القديم، بحيث أمكن للأداء السيكولوجي السويّ نيل حصته المناسبة من الإهتمام. وحتى في معالجتها للعدوان، توصلت آنا فرويد إلى استنتاج مفاده أن «المكابدات الانفعالية، إذا ماالتحمت بطريقة سويّة مع المكابدات الليبيدية، تشكّل تأثيرات مُجَتْمِعَة socializing ، وليس العكس، فهي تقدّم القوة والعناد البدئيين اللذين يبلغ بهما الطفل عالم الموضوع ويواصل فيه تقدمه». وعلى الرغم من محاولتها في عام 1965 إثبات أن «ليس ثمة أي تناقضٍ بين التطور والدفاع...» وأن «كل إواليات الدفاع تخدم في آن واحد كلاً من تقييدات الدافع الداخلي والتكيّف الخارجي، واللذين هما مجرد وجهين للصورة ذاتها»[11]، إلا أنه كان هنالك تبدّل في المزاج لا يمكن نكرانه، فيما يتعلق بالتحليل النفسي للطفل، من الثلاثينات الى الستينات، والذي تمكن رؤية تجلياته في مقاربة آنا فرويد.

ففي حين لم تكن المزايا الشخصية للأم تلعب في المرحلة الأولى سوى دور بسيط في فهم الديناميات النفسية للطفل، لم يمضِ وقت طويل حتى اتضح أن من المتعذر الدفاع عن مثل هذه المقاربة. وعندها ألحّ التحليل النفسي بعد الفرويدي على الأم النابذة rejecting mother بقدر ما ألحّ فرويد من قبل على الأب الخاصي castrating father. وحذّرت آنا فرويد من أن «ثمة مرحلة انتقالية قد وُجدت، وماتزال موجودة جزئياً،

في منظومة الخدمات الاجتماعية حيث اللوم كله، والذي كان في الماضي البعيد (قبل التحليل النفسي) يقع على الأطفال السيئين، يُلقى الآن على الأم الرديئة»[12]. بيد أنها عوّلت هي نفسها أكثر من أي واحد آخر قبلها على الأخذ بيد الطفل عن طريق تشجيع تغييرات في السلوك الأمومي؛ وكتبت عام 1960 .

لا أصدق أن الأمهات يشعرن بضرورة تغيير شخصياتهن إلا بعد أن يتمكّن من تغيير التعامل مع أطفالهن.،. فالأمهات، في تنشئتهن لأطفالهن، لا توجههن الغريزة وتضللهن التأثيرات الشخصية المشوّهة وحسب، وإنما يعتمدن إلى حد بعيد أيضاً على التقليد والرأي العام، وكلاهما عرضة للتغيير[13].

وفي حين يتعامل محلّلو البالغين مع العالم الداخلي للمريض، ويكون بالتالي «مؤمناً إيماناً راسخاً بالواقع النفسي،بوصفه معاكساً للواقع الخارجي»، «فإن كل المؤشرات، بالنسبة لمحلل الأطفال تشير إلى الاتجاه المقابل، وتلفت الأنظار إلى التأثيرات القوية للبيئة»[14].

وعلى الرغم من اتخاذ آنا فرويد بعض الخطوات باتجاه المراجعة الفرويدية الجديدة new-Freudian revisionism، فإنها تبقى اليوم واحدة من المدافعين المفوّهين عن الأرثوذكسية التحليلية النفسية. فقد ساجلت، مثلاً، وبصرامةٍ ماكان والدها ليبديها، أن «منهج العلاج متطابق مع منهج الاستقصاء في التحليل النفسي»[15]. كما واصلت مامارسه والدها من معارضة للمتاجرة بأفكار التحليل النفسي، واستقامتها في هذه القضايا شديدة الشبه باستقامته. كما كان لديها أيضاً تلك الآمال العريضة بما يمكن للعلاج التحليلي أن يحققه: «إن ماالديهم [أي المحللين] ليقدمونه يتسم بالفرادة، إنه التغييرات الشخصية الشاملة مقارنةً بالأدوية التي تعالج الأعراض السطحية الظاهرة»[16]. وظلت تصيخ السمع إلى «الإلهامات التحليلية النفسية»[17] الأصلية. وكانت قادرة على تقديم الوصفات

الأخلاقية لعصابيّ نزويّ بالغ: «يكون التحليل محضاً بقدر ماتتحمل طبيعة هذا المريض. بينما نجري له تحليل الطفل في بقية الحالات، فهو لا يستحق أي شيء أفضل من ذلك نظراً لطبيعته الطفلية تماماً»[18].

وعلى الرغم من إقامة آنا فرويد في لندن منذ 1938، فإنها لم تَنَلْ ماتستحقه من تقدير في انجلترا، شأنها شأن أرنست جونز قبلها. وإذا ما أخذنا في الحسبان مشاعرها الخاصة تجاه أميركا ـ والتي كانت شبيهة بمشاعر والدها فإن الأمر الذي ينطوي على مفارقة هو أنها تلقت في أميركا من الدعم والاحتفاء ما لم تتلقه في أي مكان آخر من العالم. ويبقى أن العلاقة بين التحليل النفسي والقانون كانت واحدة من اهتماماتها الخاصة، وساعدت خلال بضع سنوات في إدارة حلقة دراسية في مدرسة يال للقانون. وفي مسح أميركي جرى مؤخراً بين الأطباء النفسانيين والمحللين النفسانيين طُلِبَ منهم تحديد من يعتبرونه أبرز ممارس حيّ بين أصحاب حرفتهم، وكانت آنا فرويد في رأس القائمة لدى كلا مجموعتي المستجوبين[19].

المراجع:

(1) س. فرويد، رسائل، ص444

(2) رسائل من آنا فرويد إلى أرنست جونز، 25 كانون الأول 1952، 5 نيسان 1955، و10 كانون الثاني 1956 (مخطوطات جونز).

(3) رسالة من آنا فرويد إلى أرنست جونز، 6 حزيران 1954 (مخطوطات جونز)

(4) آنا فرويد، الأنا وآواليات الدفاع (لندن:هوغارث; 1954)، ص56

(5) آنا فرويد ودوروثي ت.برلنغهام، الحرب والأطفال (نيويورك Foster : Parents Plan for War 1943; Children)، ص160

(6) آنا فرويد، «ملاحظات في تطور الطفل»، الدراسة التحليلية النفسية للطفل، المجلد VI ، تحرير روث إيسلر (نيويورك: مطبعة الجامعات الدولية; 1951)، ص24

(7) آنا فرويد ودوروثي برلنغهام، أطفال دون عوائل (نيويورك: مطبعة الجامعات الدولية; 1944)، ص103

(8) آنا فرويد، «إشارات واسعة المنظور بصدد التحليل النفسي»، مجلة الجمعية الأميركية للتحليل النفسي، المجلد 2 (1954)، ص618

(9) آنا فرويد، «عيادة توجيه الطفل كمركز للوقاية والتنوير»، في تطورات جديدة في العلاج التحليلي النفسي للطفل، تحرير جوزيف وايتريب (نيويورك: مطبعة الجامعات الدولية؛ 1960) ص37

(10) آنا فرويد، السواء والمرض في الطفولة (نيويورك: مطبعة الجامعات الدولية: 1965)، ص119

(11) المصدر السابق، صص180، 177

(12) فرويد، «أسئلة أطباء الأطفال وإجاباتهم» في الجوانب النفسية الجسدية في طب الأطفال، تحرير رونالدماك كيث وجوزيف ساندلر (لندن: بيرغامون; 1961)، ص39

(13) آنا فرويد «عيادة توجيه الطفل»، ص37

(14) آنا فرويد، السواء والمرض في الطفولة، ص50

(15) آنا فرويد، «دراسات سريرية في التحليل النفسي»، **الدراسة التحليلية النفسية للطفل**، المجلدXIV ، تحرير روث إيسلر (نيويورك: مطبعة الجامعات الدولية; 1959)، ص123

(16) آنا فرويد، **صعوبات في طريق التحليل النفسي** (نيويورك: مطبعة الجامعات الدولية; 1969)، ص17

(17) المصدر السابق، ص21

(18) أورده روبرت وايلدر، **النظرية الأساسية للتحليل النفسي** (نيويورك: مطبعة الجامعات الدولية; 1960) ،ص232

(19) أرنولد روجو، **الأطباء النفسانيون** (نيويورك: أبناء غ.ب.بوتنام; 1970)، ص109

- 6 -

هيلين دويتش

«نادي القط الأسود للعب الورق»

هيلين دويتش هي المرأة الأخرى التي كانت جديرة بغيرة آنا فرويد. فقد وفدت هيلين دويتش، والتي كانت تكبر آنا باثني عشر عاماً، إلى التحليل النفسي قادمة من الطب النفسي الفييني، وهو عالم لم يكن فيه لآنا أي صيت. وأقدم ذكرى لدى آنا فرويد عن هيلين دويتش هي ذكرى قدومها من عيادة فاغنر ـ جوريغ إلى إحدى محاضرات فرويد مباشرة، وهي ماتزال برداء الطبيبة النفسانية الأبيض.

وهيلين دويتش هي واحدة من أوائل اتباع فرويد النساء اللواتي قام بتحليلهن شخصياً. وقد ولدت هيلين دويتش عام 1884 في بلدة بولونية تدعى (برزيميسل) تابعة لهنغاريا النمساوية، وهكذا ترعرعت في جزء نامٍ من الامبراطورية قبل أن تنتقل سعياً وراء حياتها المهنية. وكانت تُعرف بين أصدقائها المقرّبين باسم التصغير البولوني «هالا». ولقد ظل تمكّنها من اللغة الألمانية مفرطاً في حساسيته شأنه شأن لغتها الانجليزية في السنوات اللاحقة في أميركا؛ لكن قصورها في كلا اللغتين مكّنها من تحقيق نوع من الأثر الشعري.

أرادت هيلين دويتش في البداية أن تصبح حقوقية مثل والدها، وكانت تعتبر نفسها قائدة في حركة تحرر النساء. وعندما اختارت مهنة الطب كانت هذه المهنة ماتزال حقلاً استثنائياً بالنسبة لامرأة. وفي عام 1912، وقبل أن تنهي دراستها الطبية بقليل، تزوجت هيلين من فيليكس

دويتش، طبيب الأمراض الباطنية. وفي أواخر عام 1917، أنجبت منه ولدها، الذي أسمته مارتن، ولعلها حسبت أن فرويد سيُسَرّ لتسمية ابنها باسم ولده البكر[1]، على الرغم من أنها لم تكن قد دخلت بعد إلى حلقة فرويد بصورة رسمية. (وبالمناسبة فقد كان زوجها فيليكس منخرطاً مع مارتن فرويد في إحدى المنظمات الصهيونية).

لم يكن مألوفاً آنذاك أن تكون امرأة طبيبة نفسانية، لكن النساء لم يكن يفقدن مهنتهن إذا ما انضممن إلى فرويد قياساً بزملائهن الرجال. ولم يكن من المحتمل أن تحقق امرأة الكثير في الطب النفسي الأكاديمي، أما في حقل جديد مثل التحليل النفسي فلم يكن هنالك أية حواجز كتلك الموجودة في الطب الرسمي. وفي ربيع عام 1918 حاولت هيلين أن ترتّب مع فرويد أمر تحليلها؛ كانت قد قرأت، في عام 1911، كتاب فرويد **تفسير الأحلام**، وحضرت محاضراته في جامعة فيينا بل وذهبت إلى اجتماعات جمعية فيينا للتحليل النفسي. ومن الواضح أنها كانت كَسْباً مهماً لحركة فرويد، نظراً لما كانت تتمتع به من مواهب أصيلة؛ علاوةً على أن زوجها كان أستاذاً محاضراً في الجامعة. ومع ذلك، فقد سأل فرويد هيلين دويتش عمّا ستفعله لو أشار عليها بالتحليل عند غيره؛ وعندما أجابت بأنها لن تذهب إلى أحد قِبَلَ فرويد أن يقوم بتحليلها في الخريف المقبل.

كان جوّ عيادة فاغنر ـ جوريغ معادياً جداً لفرويد بحيث شعرت هيلين دويتش أن مامن خيار أمامها سوى التخلي عن موقعها هناك، كجزء من تحويل ولاءها الكامل تجاه فرويد. فعلى الرغم من أن فرويد كان يريد لتعاليمه أن تخترق عيادة فاغنر ـ جوريغ، إلا أنه كان يعتقد أن مامن أحد يمكنه خدمة سيدين في وقت واحد. ونظراً لإستيائه من نبذ العيادة له، فقد أقام فرويد نوعاً من العَزْل بينه وبين الطب النفسي الفييني؛ لكنه كان يأمل بتغيير الموقف الرسمي من عمله. وأثناء تحليله هيلين دويتش، والذي بدأ في

خريف 1918 ودام مايقارب العام، كان ثمة أشياء عدائية قيلت عن فرويد في العيادة. ومن أجل ألا تكرر على مسامع فرويد أثناء تحليله لها تعليقات وملاحظات قيلت عن التحليل النفسي، فقد أعلمت هيلين دويتش المسؤولين عن العيادة أنها قد بدأت تحليلها مع فرويد. وعندما أشارت في واحدة من جلسات التحليل إلى واقعة أنها لم تحكِ أبداً قصصاً مزعجة عن فرويد في تداعياتها الطليقة، ردّ فرويد ببساطة: «ذلك لأنك مهذبة جداً». وهكذا أمكن لفرويد أن يكون مُجاملاً، ولم يلجأ إلى ذلك النوع من التفسير الذي يمكن لمن أتوا بعده من المحللين أن يلجأوا إليه، كالقول إن هيلين دويتش كانت في لا وعيها معادية جداً بحيث لم تحتمل في وعيها أن تكون عدوانية تجاه فرويد.

ولقد تطور لدى هيلين دويتش تحويل انفعالي هائل تجاه فرويد لدرجة أنها لم تمتعض حين غلبه النعاس مرتين أثناء جلسات التحليل؛ وكانت علاقتهما ودّية وسهلة بحيث حوّلا نوم فرويد إلى نوع من النكتة. (ولكن في عام 1937 قيل أن فرويد قد أنكر أن يكون النعاس قد غلبه في أية جلسة تحليلية[2]). وفي مرة تركت هيلين حقيبة يدها على الأريكة؛ وعندما صافحها فرويد، كعادته بعد كل جلسة تحليل، أطال المصافحة وحدّق في عينيها، إلى أن أدركت هيلين أنها ارتكبت مايعتبره فرويد فعلاً أعراضياً Symptomatic act . فنسيان حقيبة اليد يمثل، بالنسبة لفرويد، دعوة جنسية رمزية. ومن جهة أخرى، فقد شعرت هيلين بأن ثمة شيء من التطلع والتوق يبدو في سلوك فرويد تجاهها. وكان فرويد ولوعاً بالنساء الجذابات، أما هي فقد استجابت بكل ما لدى المريد المفتون من تكريس وتفانٍ.

وفي السنوات القليلة التي تلت ذلك وصلت هيلين دويتش إلى ذروة علاقتها بفرويد، واعتبرت لاحقاً أن العقد الذي تلا تحليلها يمثل أوج عطائها . ومنذ أوائل العشرينات كانت هيلين تُلقّب باسم هيلين طروادة،

الجميلة المتألقة والغالية على قلب فرويد[3]. وكانت برلين في ذلك الحين تبدو بالنسبة لطلاب التحليل النفسي الشباب مكاناً أفضل للتدريب إذا ماقورنت بفيينا. ذلك أن العقول العلمية المحيطة بفرويد، من أمثال نونبيرغ، كانت تميل لأن تكون فاترة أو سريعة الغضب، في حين كان الأشخاص الأكثر إثارة، من أمثال شتيكل(*)، متقلبين وغير أرثوذكسيين.

وربما كان الزوجان هيلين وفيليكس دويتش هما الأشد حيوية في حلقة فيينا للتحليل النفسي. ولقد واظب البعض على تذكّر الحلقات الدراسية التي أدارتها هيلين بوصفها تجارب لا تنسى[4]. فقد كانت هيلين واحدة من أفضل المعلمين في التحليل النفسي، وكانت صفوفها تلفت الأنظار وتثير الفضول حقاً، وبلغ تعدادها مايزيد على تعداد صفوف برلين. وكان بمقدور هيلين أن تصغي طوال ساعات لعَرض حالة ما، ومن ثم أن تجمع معاً كل الخيوط، متذكرة كل التفاصيل التي سجّلها المحلل. كما كان بمقدورها، بعد نهار كامل من الممارسة التحليلية، أن تدير حلقة دراسية حتى وقت متأخر من الليل بصبر وقدرة على تجديد طاقاتها والانتقال إلى حالة جديدة. .

ولقد أمكن لهيلين دويتش تثقيف جيل كامل من المحللين الشباب في العشرينات. فنظراً لكونها قد «أوصلت» نفسها من قبل، كان بإمكانها أن

(*) ويلهام شتيكل (1867-1940): كان طبيباً ممارساً في فيينا ناجحاً جداً، كما كان ذا موهبة في الكتابة والشعر والموسيقى. لكن كتاباته التحليلية ظلت أقرب إلى الصحفية، وظل اهتمامه بالجنسية أقرب إلى البورنوغرافيا. تميّز بأبحاثه في رمزية الأحلام واللاوعي ودافع الموت "ثاناتوس". اختلف مع فرويد في الفترة ذاتها التي اختلف فيها معه كل من أدلر ويونغ. وفيما بعد حاول شتيكل مصالحة فرويد مرات عديدة. كان يعاني من السكري وجنون الاضطهاد الذي تركز على النازية، وفي النهاية مات منتحراً. ويعد واحداً من المحللين الأقل انضباطاً في حركة التحليل النفسي.

ترعى غيرها وتهتم بهم. ولقد أسست مجموعة كانت تلتقي في بيتها مرةً كل سبت، وأطلقت على هذه المجموعة اسم **نادي القط الأسود للعب الورق**.. وكانت هذه المجموعة تضمّ كلاًمن آل بيبرنغ، وآل هارتمان، وآل هوفر، وآل كريس، وآل وايلدر، وجميعهم أصغر سناً من هيلين دويتش بحوالي عشر سنين وكان من نصيبهم أن يصبحوا محللين أرثوذكسيين في السنوات اللاحقة. ولقد كانت لهيلين سمعتها الراسخة و«نفوذها» لدى فرويد. وعلى الرغم من بقائها حيّة بعد وفاة أكثر من نصف هؤلاء، إلا أنها تبقى مدينة بقسط وافر من منزلتها لما كان لها من أهمية في الحيوات المهنية الباكرة لأولئك الذين أداروا مدرسة فرويد بعد وفاته.

كانت هيلين تدّخر كل ليلة سبت للعشاء والمناقشات. وكان هذا النادي يجتمع من أجل لعب الورق في الظاهر، لكنهم كانوا قادرين على مناقشة قضايا التحليل النفسي بصورة مركّزة وهم يلعبون الورق. ولعل الوجه الأشدّ إثارة للانتباه في هذه المجموعة هو خلوّها من بعض المحللين الأكبر سناً، مثل هيتشمان وفيديرن. ذلك أن هيلين لم تكن لتنسجم مع أي منهما، بصرف النظر عن رأي فرويد بشأن قدراتهما. وكان فيديرن يفضل النساء الأمهات على النساء من النمط ذي التوّجه المهني. أما هيتشمان فكان ممتعضاً منها إلى حد بعيد، واتهمها في سيرته الذاتية التي كتبها لاحقاً بممارسة «الديكتاتورية»[5] على جمعية بوسطن للتحليل النفسي وبأنها المسؤولة عن إقصائه عن اللجنة الإدارية هناك. والحال أن المحللين الأصغر سناً في فيينا لم تكن لديهم الرغبة باللقاءات مع المحللين الأكبر سناً وكانوا يشعرون أن فرويد ملتصق بهم لأنهم ساندوه في المراحل الأولى.

بيد أن رضا فرويد عن هيلين دويتش لم يَحُل دون ارتيابه في واحد على الأقل من إسهاماتها. ففي اجتماع للجمعية عُقد في 9 تشرين الثاني عام 1921، قدّمت هيلين دويتش «رصداً» أجرته على اثنين من أبناء اختها. وكان هذان الولدان من نمطين مختلفين تماماً من الناحية الجسدية،

وكان الأكبر بينهما مدلّلاً وأثيراً لدى أمه. وقد قُتل في الحرب، وألمّ بأمه الحزن من جرّاء ذلك؛ ومن ثم، وتبعاً لهيلين دويتش، فقد بدأ الأخر الأصغر يتغير جسدياً، حيث نما بسرعة ودكن لونه أيضاً، إلى أن أصبح شبيهاً بأخيه الراحل. وتبعاً لمحاضر جلسات جمعية فيينا فقد تم تسجيل الحالة كما يلي.

شقيقان مختلفان تماماً واحدهما عن الآخر، يموت الأكبر بينهما. ولاحقاً يصبح الأخ الأصغر شبيهاًجسدياً وذهنياً بأخيه الراحل وعلى نحو ملحوظ تماماً: لقد تمنّى أن يحتل المكانة التي احتلها الأخ الأكبر في تقييم أمه، وكان هذا هو الباعث الأوضح على تحوّله[6].

ولقد عبر فرويد عن ارتيابه بأقصى مايمكنه من اللباقة، وعلّق قائلاً: «لو لم تكن الدكتورة دويتش هي التي سجّلت هذا ماكنا لنصدقه»[7]. ومضى يقول إنه من الممكن، على أية حال، أن يكون الأخ الأكبر قد حجب الأخ الأصغر عن شمس أمه، وحين زالت الشجرة الوارفة الظليلة عمل حب أمه على تحويله. وهذا التعبير عن سيرورة سيكولوجية من خلال مثل هذه الصورة البصرية كان من الصفات المميزة لفرويد، شأن معلمه شاركو(*) .

بيد أن هيلين دويتش لم تبق أثيرة لدى فرويد ومُقربة منه إلا لبضع سنين في أوائل العشرينات، ذلك أن زوجها بدأ بالوقوف بينها وبين المعلم. فعندما أصيب فرويد بالسرطان أول مرة عام 1923، كان فيليكس دويتش طبيبه الخاص وارتأى أن يخفي عنه طبيعة مرضه الخبيث. ولقد ألحى فرويد باللائمة على فيليكس لأنه لم يخبره الحقيقة كاملة، وكفّ فيليكس عن

(*) جان مارتن شاركو: طبيب فرنسي شهير. عمل فرويد في مستشفاه الشهير والمسمّى Salpetriere وكان شاركو بمثابة معلم له وخلّف لديه أثراً عظيماً. ولقد تناول شاركو الأمراض العصابية من وجهة علمية، وربطها بالوراثة وأمراض الأهل. وكان يستخدم التنويم المغناطيسي في العلاج.

كونه طبيب فرويد. وفي الجوّ المحيط بفرويد كان ثمة كثير من القلق فضلاً عن الإعجاب بحيث شعرت هيلين دويتش أنها بحاجة إلى تحليل آخر. ونصحها فرويد في البداية أن تذهب إلى فرنزي في بودابست، لكنها ردّت أن ذلك غير وارد نظراً للمصاعب التي قد يلاقيها ابنها بشأن اللغة المنغارية؛ وعندئذ اقترح عليها فرويد الذهاب إلى ساكس، لكن خيارها وقع على ابراهام بدلاً من ساكس. وعلى الرغم من أن تركها لزوجها في فيينا وذهابها إلى برلين كان أساساً بسبب الإشكالات الناشئة بينه وبين فرويد، إلا أن آل دويتش نادراً ماتحدثوا عن هذا الأمر؛ فقد كان زواجهما، شأن آل رانك، من ذلك النوع الذي لا يناقش فيه الزوج والزوجة بعض الجوانب الأشد حساسية في حياتهما. وعلاوة، فإن هيلين كانت تأمل أن تتعرف على الكيفية التي أُنشِيءَ بها معهد التحليل النفسي في برلين، وذلك لكي تتعلم كيفية تنظيم التدريب الذي كان عليها أن تشرف عليه في فيينا..

كانت هيلين غاضبة من فرويد بسبب حديثه المستمر عن تصرف زوجها، كما كانت في الوقت ذاته حانقة على زوجها لأنه كان سبب التباعد بينها وبين فرويد. (في الحقيقة، لقد كانت هي نفسها مشاركةً إلى حدّما في قرار زوجها إخفاء حقيقة مرض فرويد). وإذا ماكان كل من فيليكس وهيلين قد رعيا علاقتهما بفرويد بكل عناية واهتمام، إلا أنها هي التي كانت قد باشرت انخراطهما في التحليل النفسي، وكان فرويد مهما بالنسبة لها إلى حدّ هائل؛ ومن هنا فقد بدا لها وكأن زوجها يفسد كل شيء بصورة أو بأخرى. وعلى أية حال فقد سوّى فرويد لاحقاً خلافه مع فيليكس دويتش وقام بما أمكنه من أجله ومن أجل هيلين كزوج وزوجة. فعندما كان ابراهام يقوم بتحليل هيلين أراها رسالة من فرويد تقول إنه لا ينبغي للتحليل أن يؤدي إلى تمزيق زواجها وفصم عراه[8]. ولقد ألقى الشقاق بين فيليكس دويتش وفرويد عبئاً ثقيلاً على هذا الزواج، ومع ذلك فإن هيلين كانت في برلين بمثابة ضيفة رسمية ومميَّزة، بوصفها شخصاً موثوقاً

لدى فرويد. وشعرت هيلين أنه لم يتطور لديها أي تحويل تجاه ابراهام وأنه بعد قيام فرويد بتحليلها لا يمكن إجراء أي تحليل آخر. ومع ذلك فإن التوصية التي تلقّاها ابراهام من فرويد، والتي ترقى إلى مرتبة الأمر عملياً، كان لها وقعها الكبير لدى هيلين دويتش؛ وحافظ الزوجان على علاقتهما الزوجية حتى وفاة فيليكس في عام 1964 .

وبينما كانت هيلين في برلين من أجل التحليل (ثمة مرضى سافروا معها من فيينا بين 1923-1924)، كان بيرنفيلد يقوم بتحليل زوجها في فيينا. لكن شهرة فيليكس دويتش لم تكن كشهرة زوجته. ففي حين كان يعتقد الكثيرون من أعضاء حلقة فرويد أن هيلين دويتش استطاعت التوصل إلى لعب دور شبيه بدور المغنية الأولى في الأوبرا وأن من الصعب مضاهاتها، كان الجميع يعتبرون زوجها شخصاً لطيفاً وعملياً، وعلى الرغم من كونه رقيقاً وعاطفياً، فإنه كان يبدي نوعاً من الأوتوقراطية. وكان فيليكس يشفي مرضاه بأسرع مما تفعل هيلين مع مرضاها، إذ كان الأكثر قدرة على الإفادة من شخصيته الخاصة في سبيل القيام بكشف تشخيصي أو تحقيق تحسّن علاجي. أما هيلين فكانت أكثر تماهياً مع فرويد؛ وكانت لترضى بمقالة تكتبها حتى لو لم يكن فيها أي شيء جديد، مادامت تعكس فيها أفكار فرويد.

بيد أن هيلين كانت أكثر تميّزاً بكثير كمحللة نفسانية كما كانت كاتبة أفضل. في حين كان فيليكس طبيباً للأمراض الباطنية، واشتهر بتشخيصه حالات طبية صعبة ومعقدة، ولم يكن يُعتبر مفكراً أو كاتباً ألمعياً في دوائر التحليل النفسي. وفي الواقع، فقد خسر هيبته في الأوساط الطبية الفيينية بسبب صلته مع جماعة فرويد. ولكنه ما أن برز كقائد لجمعية بوسطن للتحليل النفسي حتى أصبح شهيراً كمحلل سوفللك في حقل الطب النفسي الجسدي Psychosomatic الجديد. وإذا ماكان مفتقراً لما لدى زوجته من ضبط للنفس، إلا أن مداه الانفعالي ومرونته ربما كانا أوسع وأكبر.

وعلى الرغم من أن هيلين دويتش ابتعدت عن فرويد بعد الخلاف بينه وبين زوجها، فقد ظلّت تشعر بالغيرة من أولئك الذين كانوا يرتفعون في سماء فرويد؛ وكانت روث برونشفيك في مقدمة أولئك الذين لم يروقوا لها. وكان مريض فرويد المعروف باسم الرجل ـ الذئب واحداً من أسباب النزاع بينهما. ففي عام 1919 كان فرويد قد أنهى تحليل هيلين دويتش، على الرغم من اعتراضاتها، معلناً فجأة أنه بحاجة للوقت الذي يقوم خلاله بتحليلها[9]. ذلك أن الرجل ـ الذئب كان قد عاد إلى فيينا طلباً للعون، وأبلغ فرويد هيلين دويتش بأنها قد تلقّت تحليلاً كافياً. وكان فرويد مفتوناً بالرجل ـ الذئب، في حين كان واضحاً أنه لم يكن مهتماً بحالتها على نحو خاص، على الرغم من تقديره لها كواحدة من أعضاء حلقته. وفي ذلك الوقت لم يكن لدى هيلين أية التياعسات(*) واعية، وبعد تحليلها كان ثمة بعض التعويض بالنسبة لها؛ فهناك الصلة الاجتماعية المتنامية مع فرويد، فضلاً عن إرساله لها مزيداً من المرضى. بيد أنها أصيبت بالهمود(**) depressionفي عام 1923 لأول مرة،وذلك من جراء الاضطراب في علاقتها مع فرويد.

وربما كان فرويد ليُصلح الموقف مع هيلين دويتش لو أنه أرسل إليها الرجل ـ الذئب، عندما كان هذا الأخير بحاجة للعلاج مرة أخرى عام 1926; ذلك أنها كانت تعتبر إرسال فرويد مريضاً لها بمثابة إفصاح عن عاطفته تجاهها. ولكنه بدا وكأنه يضاعف من إساءته إليها بعد أن قدّم هذا

(*) الالتياع (regre): شعور مزعج، مع رجوع إلى خبرة سابقة أو فعل سابق، مترافق مع الرغبة بأدائه أو عوضه على نحوٍ آخر أو وضع حدٍّ له.

(**) الهمود: موقف عاطفي أو اتجاه انفعالي، يتخذ في بعض الأحيان شكلاً مرضياً واضحاً، وينطوي على شعور بالقصور وعدم الكفاية واليأس، بحيث يطغى هذا الشعور ويصاحبه انخفاض عام في النشاط النفسي والعضوي.

المريض بمثابة هبة لروث برونشفيك.

كانت هيلين دويتش تنظر إلى روث برونشفيك بوصفها منافسة لها على الحظوة لدى فرويد؛ وفي حين كانت روث تتقرّب من فرويد أكثر فأكثر، كانت هيلين تتراجع وتقف في الخلف، ولعل عقل دويتش كان هو الأفضل قياساً بعقل روث برونشفيك، كما أن زواجها كان أكثر استقراراً. وكان من الممكن الاعتراف بها بسهولة كمنافسة لإمرأة مثل لو اندرياس ـ سالومي، التي كانت تتمتع بجمال عظيم وعشاق مشهورين، أو ماري بونابرت، الأميرة سليلة الملوك؛ لكنها كانت تشعر بالإزدراء تجاه نساء أقل بروزاً مثل روث برونشفيك، أو جيان لامبل ـ دي غسرو، اللواتي طورن تجاه فرويد، بوصفهن عضوات في حاشيته، ما اعتبرته هيلين دويتش تحويلات عصابية تشبثية neurotic clinging transferrences . ولعل عزلتها قد كانت حاضرة في ذهنها إلى حدّ ما حين كتبت لاحقاً عن تلاميذ فرويد:

في حين عبّر الأقل موهبة من بينهم عن تجاذبهم الوجداني بتبعية متزايدة وبإفراط في تقييمهم للتحليل... فقد أنكر الأكثر موهبة هذه التبعية بشكل مباشر ولكنه علمي وابتعدوا عن المجموعة إما بطريقة صاخبة وعدائية أو بطريقة مبطنة وغير صريحة[10].

ولقد راقبت هيلين دويتش عن بعد كيف كانت روث برونشفيك تتقرب من فرويد شخصياً، بطريقة لا تختلف كثيراً عن طريقة فيكتور توسك(*) قبلها. وإذا ماكانت هيلين دويتش تبدو باردة ومتحفظة بالمقارنة

(*) فيكتور توسك (1879-1919) محلل نفسي كرواتي. كان واحداً من أنصار فرويد الأشد موهبة وشخصية بارزة جداً بين المحللين النفسانيين قبل الحرب العالمية الأولى، على الرغم من أنه أصبح منسياً تماماً فيما بعد. كان عشيقاً للو أندرياس سالومي (فضلاً عن

مع زوجها، فإنها كانت تبدو قبالة روث برونشفيك على أنها معالجة(**) أكثر منها مراقبة سيكولوجية[11]. وكانت روث برونشفيك تدرك أن فرويد ليس معجباً بعزاجية هيلين دويتش، لكن عملها العملي كان محترماً للغاية بحيث كان ثمة أسس لغيرة كلا المرأتين واحدتهما من الأخرى. فحين كتبت هيلين دويتش مقالة تحليلية عن دون كيشوت، سُر فرويد وابتهج كما لو أن أحداً قدّم له هدية، وأراد أن يعرف كيف حصل أن اهتمت بهذا الموضوع[12]. لكن روث برونشفيك هي التي تلقّت خاتماً من فرويد، على الرغم من بقاء هيلين دويتش بعدها أكثر من خمسة وعشرين عاماً كواحدة من أعظم الأساتذة في التحليل النفسي.

لقد كان عداء رجال مثل فيديرن وهيتشمان هو السبب، جزئياً، في جعل هيلين تشعر أن عليها رفض العَرض الذي قدمه لها فرويد كي تتولى منصب نائب رئيس جمعية فيينا عندما تقاعد هو بسبب مرضه؛ وهو المنصب الذي شغله فيديرن بدلاً منها. وعلى الرغم من كبرياء هيلين وتحفظها، كانت تشارك في الاحتفال بأعياد ميلاد فرويد؛ وكانت، وزوجها، ترسل الهدايا وبرقية في السادس من أيار. (تُلقى محاضرات فرويد في جمعية نيويورك للتحليل النفسي سنوياً في هذا التاريخ). وعندما سافر ولدهما الوحيد البالغ من العمر سبعة عشر عاماً للدراسة في سويسرا، اعتبرا أن من اللائق بالنسبة له أن يذهب مع والده لزيارة فرويد مُقدماً؛

نيتشه وريلكه وغيرهما). مات منتحراً بعد خلافه مع فرويد. انظر الفصل الخاص بعلاقته مع لو أندرياس سالومي.

(**) تذكرت هيلين دويتش أنها شعرت بالضيق حين أظهر نونبرغ عدم اكتراثه حيال معاناة امرأة سوداوية melancholic في عيادة فاغنر ت جوريغ. وعندها، فإن نونبرغ، الذي كان مهتماً بالنظرية أكثر من اهتمامه بالواقع العيادي، تساءل صارخاً: "ولكن أين الليبيدو لديها؟" [بول روازين].

وأعطى فرويد منظاراً للفتى وكتب شيئاً ما على كتاب قدّمه له[13]. وبعد ذلك كتب فرويد لهيلين دويتش عن نشاطات ولدها في سويسرا استناداً إلى ما سمعه خلال واحد من تحليلاته[14].

لقد اعتبرت هيلين دويتش أن عدم الانغماس في ذلك النوع من الهيام المُستفحل بفرويد، والذي انغمست فيه روث برونشفيك، مسألة شرف شخصي. وإضافة إلى ذلك فإن ما لديها من قدرة على حفظ ذاتها قد حال دون تعرضها للانجراح مثل غريمتها. وعلى الرغم من أن هيلين دويتش قد كرّست نفسها لنصرة قضية فرويد، فإنها لم تكن تريد أن تكون مثل الآخرين. ولقد أمكن لها أن تقيم مزيداً من الصلة الشخصية المباشرة مع فرويد في سنواته الأخيرة وهذا ما كانت ترغب به إلى حد بعيد.

المراجع

(1) ربما كانت مقالتها «حب أول لصبي بعمر السنتين ينتهي إلى مأساة»، والتي قيل إن فرويد «شجعها على نشرها»، ربما كانت قد كُتبت عن ابنها. انظر ساري،هـ. بريل، «هيلين دويتش» في روّاد التحليل النفسي، تحرير فرانز الكسندر، صموئيل إيزنشتين ومارتن غروتجان (نيويورك Basic Books 1966) ص286; وهيلين دويتش، العُصابات وأنماط الطبع (نيويورك:مطبعة الجامعات الدولية; 1965)، صص195، 1964، وأيضاً مواجهات مع نفسي (نيويورك: نورتون; 1973)، صص123-124

(2) بلانتون، يوميات تحليلي مع سيغموند فرويد،ص91

(3) مقابلة مع أبرام كاردينر، 12 تشرين الأول 1965

(4) مقابلات مع إيفيز هيندريك، ريتشارد وستيربا، وإرماريتا بوتنام.

(5) إدوار دهيتشمان، « ملاحظات سيرية ذاتية».

6) المجلة الدولية للتحليل النفسي، المجلد 3 (1922)، ص135

(7) مقابلات مع هيلين دويتش، 22 أيار 1965،و18 تشرين الثاني 1967، انظر أيضاً دويتش، مواجهات مع نفسي، صص60-61، 140

(8) مقابلة مع هيلين دويتش، 23 أيلول 1967

(9) مقابلة مع هيلين دويتش، 30 أيلول 1967

(10) هيلين دويتش، «فرويد وتلاميذه «Psychoanalytic Quarterly، المجلد 9، العدد 1 (1940) ، ص192

(11) مقابلة مع روبرت حوكل

(12) مقابلة مع هيلين دويتش، 16 نيسان 1966،انظر «دون كيشوت والدون كيشوتية»، في دويتش، العُصابات وأنماط الطبع، صص218-225

(13) مقابلة مع هيلين دويتش، 14 أيار 1966

(14) مقابلة مع هيلين دويتش، 30 آذار 1965

- 7 -
هيلين دويتش(*)
«نظرية الأنوثة»

تجلّى إسهام هيلين دويتش الخاص في ميدان سيكولوجيا النساء. واعترف فرويد بأنها، مثل روث برونشفيك، كانت من بين أولئك المحللات النساء اللواتي تمكّنَّ، من خلال دورهن كبديلات للأم في التحويلات التحليلية، من اكتشاف التماهي الباكر للبنت الصغيرة مع أمها. وعلى سبيل المثال، فقد تعاملت هيلين دويتش مع أفعال الأمومة acts of mothering وتلقّي الرعاية الأمومية beeing motherd بوصفها لبّ العلاقة الجنسية المثلية النسوية لدى البالغات، واعتبرت الجنسية المثلية النسوية مشكلة نابعة من رابطة فموية قبل أوديبية Oral pre-odipal Tie مع الأم[1]. بينما كان قد سبق لفرويد أن اعتبر الجنسية المثلية النسوية بمثابة نتيجة لتماهي المرأة مع أبيها.

بيد أن حياة هيلين دويتش كمحللة نفسانية بدت متناقضة مع أفكارها عن الأنوثة. فتبعاً لنظريات فرويد، والتي فعلت هيلين الكثير في

(*) الأنوثة Femininity: في التعامل مع المفردتين Female و Male نرى أن الأولى تشير إلى مايتميز به جنس النساء وحده، بعكس الثانية التي تميّز جنس الرجال حصراً، ولذا نترجمهما بـ«نسوي» و«رجولي» على التوالي. أما كلمة Feminine وكلمة Masculine فتشيران إلى ماهو أنثوي وذكري على التوالي دون أن يكون محصوراً بجنس واحد على نحو مطلق. ومن هنا ترجمة كلمة Femininity بـ«أنوثة».

سبيل ترصينها، فإن المرأة الأنوثية تكـون متشبثة بزوجها ومعتمـدةً عليه، بخلاف المثال الفاعل والمستقل الذي دافعت عنه سيمون دوبوفوار بعد ذلك بكثير. في حين حققت هيلين دويتش، نظراً لـبروز النساء التقليدي في العوائل اليهودية من جهة، وأيضاً بسبب المواهب الحدسية الخاصة لـدى النساء حين يعملن في مجال السيكولوجيا، نوعـاً من الاكتفاء الذاتي في حياتها المهنية التي نزعت إلى تكذيب تصورها عن النسوية.

ونظراً للنفوذ والانتشار الذي حققته دراستها ذات المجلدين، سيكولوجيا النساء، والتي نُشِرَتْ في الأصل عام 1944 و1945 وأعيدت طباعتها عدداً من المرات بعد ذلك (كما تمت ترجمتها إلى ثماني لغات وظهرت في كثير من البلدان)، فإن أفكار هيلين دويتش تعرّضت للنقد على نطاق واسع. وبدا عملها، بالنسبة للكثيرين، بمثابة تبرير لمنزلة النساء الاجتماعية في الماضي، كما انهال عليها كتّاب تحرر النساء باللوم والتوبيخ(*) [2]. فقد كان هدفها هو حثّ البشر على «التخلي عن الوهم بشأن التكافؤ في الفعل الجنسي بين الجنسين»[3]؛ ولـذا فإن من المفهوم أن تكون بعض السمات التي تميّزت بها آراؤها قد أغضبت النقّاد الأنوثيين. وعلى سبيل المثال، فقد بدا أنها تنتقص من قيمة ما حققته النساء من قبل: «إن الكثيرات من النساء المثقفات لسن عملياً سوى مجرد آبقات، بانفعالات مجدبة عقيمة... وكقاعده فإن هؤلاء النساء هن متثاقفات أكثر منهن مثقفات»[4].

وقناعات هيلين دويتش منسجمة مع مقاربة فرويد. فقد اعتبر

(*) هل يمكن أن نردّ نجاح النساء المحلّلات (وقد قيل إن الطلب عليهن هو في العادة أكثر بكثير من زملائهن الذكور) إلى طبيعة مجتمعنا الرجعي فيما يتعلق بالمسائل الجنسية، والذي أخضع النساء لتربية جعلتهن حساسات تجاه الفروق الانفعالية الدقيقة، وجعل الرجال حساسين تجاه العالم السلطة الخارجي؟ [بول روازين].

فرويد أن «الليبيدو ذو طبيعة ذكرية حتماً وبالضرورة، سواء أكان لدى الرجال أو النساء وبصرف النظر عما إذا كان موضوعه رجلاً أو امرأة»[5]. وحين عدّل فرويد لاحقاً موقفه هذا بقوله إن «ثمة ليبيدو واحد فقط، يقوم بخدمة كل من الوظيفتين الجنسيتين الذكرية والأنثوية. ولا يمكن أن نعزو إليه بحد ذاته أي جنس...»، تابع ليسحب تراجعه الواضح: «ومع ذلك فإن الجمع بين الكلمتين في عبارة (الليبيدو الأنثوي) ليس له أي مبرر»[6].

وينبغي تقييم مواقف فرويد تجاه النساء على ضوء زمنه وعصره. لقد فتح ذراعيه للنساء القياديات في حركته. وفي حين كان آخرون، مثل سادجر(*)، يعارضون قبول النساء في جمعية فيينا، فقد سجّل لفرويد قوله إنه «يعتبر إقصاء النساء من حيث المبدأ... أمراً بعيداً عن المنطق تماماً»[7]. وكان فرويد رجلاً من الطراز القديم، فعلى الرغم من اعتقاده أن مكان النساء هو البيت، كان يعاملهن باحترام في مهنته؛ نظراً لتمتعهن بمشاعر أرهف من مشاعر الرجال، وينظر إليهن كمخلوقات ضعيفة تحتاج إلى الحماية.

وكان فرويد معجباً بما لدى النساء من إخلاص، وعلى الرغم من أنه كان يستسيغ القصص عن النساء الغادرات فإنه لم يكن ليحتملها في عائلته. كما أنه لم يكن يستطيع أن يتصور امرأة نداً له. ولقد نجح أيما نجاح في إبقاء النساء في علاقة تبعية له واعتماد عليه، وكان معجباً بتلميذاته. ومع ذلك فقد كانت هؤلاء النساء متحررات إلى حد بعيد تبعاً لمقاييس ذلك العهد.

إن ذلك النوع من النرجسية الرجولية الذي يمكننا أن نجده في

(*) أسادور سادجر: محلل نفساني من فيينا. كان واحداً من أتباع فرويد منذ ماقبل الحرب العالمية الأولى. اختلف مع فرويد لاحقاً. وهو المحلل النفساني الوحيد الذي طالته أيدي النازيين وقتلته.

نظريات فرويد عن النساء هو واضح أيضاً في كتابات المحللين الآخرين الأوائل. ذلك أن الثقافة الغربية في مطلع القرن العشرين كانت بوجه عام تنظر نظرة دونية إلى النساء، وتفترض بهن أن يكّن مكرسات لإرضاء الرجل في المقام الأول، فيحملن بأطفاله، ويرعين شؤون بيته. وفي مثل هذا الوسط كان من السهل فصل الحب عن الجنس. بيد أن بعض المحللين النفسانيين ـ وخاصة كارين هورني وكلارا تومسون ـ راحوا يتخذون تدريجياً خطاً آخر مختلفاً عن خط فرويد؛ فحاولوا إقامة تفريق بين نماذج السلوك المحددة بيولوجياً ونماذج السلوك المكرّسة اجتماعياً. وبدا هذا، بالنسبة للبعض مثل جونز، وكذلك بالنسبة لفرويد، بمثابة إحلال لسوسيولوجيا «علم اجتماع» زائفة محلّ التحليل النفسي[8].

ولقد أضحت أفكار فرويد ذات نفوذ وتأثير عظيمين بحيث كان عليه أن يتحمل قدراً كبيراً من النقد الأنوثي في أيامنا هذه. وإن ما قام به من جمع لنوادر(*) سمسار الزواج اليهودي[9] (Shadchen) يعكس المنزلة الاجتماعية التي تتسم بالتبعية الشديدة بالنسبة للمرأة اليهودية التقليدية.

(*) هاهنا مثالان من هذه القصص: «كان السمسار يدافع عن الفتاة التي اقترحها ويردّ على اعتراضات الشاب. قال هذا الأخير: «إن أمها سيئة الطبع وغبية» ـ «وهل ستتزوج حماتك. إن ماتريده هو ابنتها». «أجل، لكنها مُسِنة، وقبيحة أيضاً» ـ «ليس مهماً، فحين تكون مسنة وقبيحة تكون أشدّ إخلاصاً لك». ـ «وهي لا تملك المال الكثير». «وماذَخْل المال؟ هل تتزوج المال إذاً؟ إن ماتريده في النهاية هو زوجة». ـ «ولكنها حدباء أيضاً». ـ «حسنٌ، ماالذي تريده؟ ألا يكون لديها حتى عيب واحد؟».

حين قُدِّمت العروس إلى العريس، صُعِقَ هذا الأخير وانتحى بالسمسار جانباً وراح يهمس له باعتراضاته: «لماذا جئت بي إلى هنا؟» سأله لائماً. «إنها قبيحة وكبيرة السن، حولاء وأسنانها منخورة وبصرها شحيح...» ـ «ولماذا تخفض صوتك» قاطعه السمسار، «إنها صمّاء أيضاً»[9].

وعلى الرغم من اعتراف فرويد في أواخر حياته بأنه «يتعين علينا أن نحترس... من الإستخفاف بتأثير الطقوس الاجتماعية، التي... تدفع النساء إلى وضعيات سلبية منفعلة»[10]، فقد ظلّ عملياً يعتبر النساء أقل جنسية من الرجال. وكان يعتقد أن المرأة المتزوجة لا تحتاج الجنس إلا لمدة عشرين عاماً[11]. (وربما كان مستنداً في قوله هذا على تجربته مع زوجته مارتا).

وكان فرويد يعتقد أن نشاط المرأة الجنسي «هو من طبيعة سلبية منفعلة أساساً»، وكان يرى بوجه عام أن «ماهو فعّال ينطبق على ما هو ذكري، بينما ينطبق المنفعل على ما هو أنثوي»[12]. وحين نعرف مشاعر فرويد الشخصية النافرة من الضعف والسلبية، يكون من الصعب ألا نجد نظرته إلى النساء نظرة إحسان وشفقة. وعلى الرغم من تعديله اللاحق لموقفه[13]، فقد ظل مقتنعاً بأن المرأة هي رجل ناقص. كما شكّل حسد القضيب **Penis envy** بالنسبة له واحداً من المكونات الأساسية للسيكولوجيا النسوية، الأمر الذي يعني أن الفرج ليس مُرْضياً تماماً؛ وهكذا كتب عن حسد القضيب بوصفه المكافيء الأنثوي لخوف الرجل من أذية أعضائه التناسلية، أو «عقدة الخصاء»[14] **Castration Complex** وقد فترض أن الخطوة التطورية الحاسمة تحصل «عندما تكتشف البنت الصغيرة ما لديها من نقص... من جراء رؤيتها أعضاء الرجل...»[15]. وردّ فرويد الوظيفة التناسلية لدى المرأة إلى البحث عن طفل كتعويض عن قضيب مفتقد.

ولاحظ فرويد أن النساء يمتلكن «فهماً أكثر دقة للسيرورات الذهنية اللاواعية» وأنهن ضحية نزوع الحضارة إلى تسفيه «كل ما في الغريزة الجنسية النسوية من فرملة وعرقلة مصطنعتين»[16]. وكان يعتقد أن النساء أكثر عرضة للعصاب من الرجال، وخاصة الهستيريا[17]. كما كان يعتبر النساء عامة «كائنات أدنى فكرياً»[18]، ذلك أن افتقارهن إلى الليبيدو الكامل لدى الرجال يجعل قدرتهن على التصعيد أضعف:

لا شك أن واقعة وجوب النظر إلى النساء بوصفهن حائزات على إحساس ضعيف بالعدل مرتبطة بهيمنة الحسد في حياتهن الذهنية؛ ذلك أن العدل يحتاج إلى تحكّم بالحسد وتعيين للشرط الذاتي الذي يمكن فيه للمرء أن يضع الحسد جانباً. كما أننا نعتبر النساء أيضاً أضعف في غرائزهن الاجتماعية من الرجال وأقل قدرة على تصعيد غرائزهن[19].

وكان فرويد يعتقد أن «النساء لم يسهمن إلا بقسط ضئيل في الاكتشافات والاختراعات التي شهدها تاريخ الحضارة...»[20] بل وكتب أيضاً أن «تقبّل النساء للفكاهة وإعجابهن بها أندر بكثير مما يبديه الرجال»[21].

وقال فرويد إن حبّ رجل لإمرأة، أو ما دعاه (تقييماً جنسياً فائقاً "Sexual over - evaluation"، لا ينبثق بكامل قوته إلا في علاقة مع امرأة تتمنّع وتنكر جنسيتها)[22]. كما أن التطور الأخلاقي لدى النساء هو أضعف منه لدى الرجال، (فالأنا الأعلى Supergo لديهن رخوٌ وواهن، وليس متجرداً عمّا هو شخصي، ولا مستقلاً عن جذوره الانفعاليه على النحو الذي نريده أن يكون عليه لدى الرجال)[23]. وقد أمكن لفرويد أن يكتب عن الأطفال أن «مسلكهم لا يختلف عن مسلك المرأة العادية غير المثقفة التي نجد لديها الاستعداد للانحراف متعدد الصور ذاته»[24]. ووجهة نظر فرويد الضمنية هي أن «المرأة صنف مختلف عن الرجل وأدنى منه»[25]. ولقد كان واحداً من أسباب بغضه لأميركا أن النساء هناك كن أقل خضوعاً، في حين لم يكن يروق لفرويد أن يتخلى عن تصور العالم القديم للعلاقة بين الجنسين. كما كان فرويد واحداً من أواخر المدافعين عن المعيار الجنسي المزدوج Sexual Double Standard (يتعين علينا هنا أن نتذكر أن وسائل منع الحمل لم تكن متوفرة في أيامه).

وفي سعيه خلف حل لإشكاليات الموسيقى، والدين، والأنوثة،

واجه فرويد العوائق ذاتها، ذلك أن هذه الميادين جميعاً كانت مرتبطةً في فكره بما هو بدائي ولا عقلاني. وقد اعترف صراحةً ذات مرة أن «الجانب النسوي» من مشكلة محددة كان «مستغلقاً عليه بصورة استثنائية»؛ واعتبر أن حياة النساء الإيروسية «ما برحت... يكتنفها ظلام حالك، وذلك بسبب تأثير الشروط الحضارية غير المواتي من جهة، وميلهن التقليدي إلى التستر والتمويه من جهة أخرى»[26]. وبدا وكأنه يشكو[27] من تعذّر توصل بحثه إلى كشف سر الأنوثة؛ ذلك أن «الحياة الجنسية للنساء البالغات» ظلت «قارة مظلمة بالنسبة للسيكولوجيا»، و«لغزاً» لم يتمكن فرويد من حله[28]. وفي عام 1932 ختم واحدة من مقالاته القليلة في الأنوثة بأكبر قدر من الاحتراس:

إن هذا هو كل ما تعيّن علي قوله لكم بصدد الأنوثة. ولامراء في أنه ناقص ومجزء ولا يبدو دوماً على نحو يوقع الرضا والبهجة في النفس. ولكن لا تنسوا أنني اقتصرت على وصف النساء بقدر ما تكون طبيعتهن متحددة بوظيفتهن الجنسية. وصحيح أن ذلك التأثير يمتد بعيداً جداً؛ لكننا لم نتخطّ واقعة أن المرأة كفرد هي كائن بشري في جوانب أخرى إضافية. وإذا ما أردتم معرفة المزيد عن الأنوثة، فتحرروا من تجاربكم الحياتية الخاصة، أو توجهوا بالسؤال إلى الشعراء، أو انتظروا إلى أن يتمكن العلم من تزويدكم بمعلومات أعمق وأشد تماسكاً[29].

كان فرويد ينزع إلى إعتبار نفسه مستقلاً ومكتفياً بذاته ويرفض التأثيرات الخارجية؛ ومن جهة اخرى، فقد تملكه الاستياء في بعض الأحيان حيال فقدان الاتجاه، كما في نقده لوالده(*) . ولكنه بقدر ما كان يقاوم

(*) إضافة إلى خيبة أمل فرويد بأبيه أثناء طفولته إذْ أظهر جبناً وضعفاً أمام مجموعة اضطهدته لأنه يهودي، فقد اتهم فرويد أباه أيضاً بالتساهل معه إلى حد مفرط وبعد

البدع الصادرة عن تلاميذه من الرجال، كان يتأثر بمريداته من النساء؛ وهكذا فقد تفهم «ما قبل تاريخ عقدة أوديب»، واعترف بأن الأم هي موضوع الحب الأصلي بالنسبة للرجال والنساء على حد سواء[30]. وأمكن عندها تفسير نزوع المرأة إلى العصاب بواقعة أن عليها التحول من أمها إلى أبيها من أجل قيام عقدة أوديب.

وكان ثمة اعتقاد متزمت لدى فرويد أنه «مع التحول إلى الأنوثة، يتعين على البظر أن يتخلى للمهبل عن حساسيته كلياً أو جزئياً، وكذلك عن أهميته في الوقت ذاته. وهذا واحدة من المهمتين اللتين ينبغي على المرأة إنجازهما في مجرى نموها وتطورها...»[31](*)[32] ولقد نفى البحث اللاحق الذي أجراه كل من ماسترز وجونسون وجود الرعشة المهبلية المفترضة؛ في حين أن تقليل فرويد من قيمة الإحساسات البظرية بإعطائه الأولوية لمفهوم الرعشة المهبلية كان يؤكد على اعتماد المرأة الفريد على الرجل. وكما عبّرت هيلين دويتش، فإن «حثّ المهبل على الأداء الكامل لوظيفته الجنسية يعتمد كلياً على نشاط الرجل...»[33].

لقد أمل فرويد أن يتم حل لغز الأنوثة من خلال «تطور الارتباط قبل - الأوديبي للنساء بأمهاتهن»[34]. وكان النمط الأصلي **Proto type** بالنسبة له ذكرياً على الدوام: «إن الفارق بين تطور الرجال الجنسي وتطور النساء الجنسي... يتماشى مع الفارق بين خصاء تمّ وخصاء هو

توجيهه. انظر، سيغموند فرويد، حياتي والتحليل النفسي، ترجمة مصطفى زيور وعبد المنعم المليجي، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية 1967، ص14، 16.

(*) لقد عبّر ثيودور رايك عن هذا النوع من التزمّت فيما يتعلق بالرجال: «متى يحصل الرجل على رعشته، وأين يكمن الإحساس؟ ذلك كان سؤالي لهم في المقابلة الثانية أو الثالثة. أفي قمة القضيب أم قرب الخصيتين؟ لا بد أنه في قمة القضيب»[32]. [بول روازين]

بمثابة تهديد وحسب»[35]. ففي حين ينكر الصبي مكابدته الأوديبية تحت التهديد، فإن «عقدة أوديب لدى النساء هي النتيجة النهائية لتطور طويل نوعاً ما. فهي لا تُدَمَّر، بل تُخلَق، بتأثير الخصاء...»[36]. ذلك أن البنات «يعتبرن أمهاتهن مسؤولات عن افتقارهن للقضيب ولا يغفرن لهن كونهن هكذا في وضعٍ غير مؤاتٍ، ويتحولن من ثم إلى آبائهن بدلاً من أمهاتهن[37]. وبفضل مريداته من النساء أقر فرويد أنه:

يتعين علينا كما يبدو أن نسحب صفة الشمول عن الأطروحة التي مفادها أن عقدة أوديب هي نواة العصاب. ولكن... يمكننا توسيع محتوى عقدة أوديب بحيث تشتمل على جميع علاقات الطفل بكلا والديه؛... ويمكننا تقديم عرض وافٍ لمكتشفاتنا الجديدة بالقول إن المرأة لا تبلغ الوضعية الأوديبية الإيجابية السوية إلا بعد أن تجتاز فترة سابقة لها ومحكومة بالعقدة السلبية[38].

ويمكن اعتبار نظريات فرويد المتعلقة بالنساء بمثابة دفاع ضد استسلامه لهن. ويمكن رد الكثير من قلقه إلى اعتماده الضمني على أمه، والذي قام بتحويله ليس إلى مارتا وحسب وإنما إلى بعض تلميذاته أيضاً. و«لو لم يكن فرويد، كزوج، مستاءً لغياب ذلك النوع من العزاء أو السلوان الأكثر نضجاً مما تسبغه الأم على ابنها، فإنه ما كان ليقوى أبداً على قول ما قاله عن النساء في شيخوخته»[39]. ويمكن لنا أن نقرأ خوف فرويد ورعبه من أعضاء المرأة التناسلية في عرضه لحياته الحلمية. ولقد رأى فرويد أن للنساء طبيعة شرهة. وقال مرة لماري بونابرت: «إن السؤال الكبير الذي لم تتم الإجابة عليه أبداً والذي لست قادراً بعد على الإجابة عليه، على الرغم من ثلاثين سنة من البحث في النفس الأنثوية، هو «ماالذي تريده ا لمرأة؟»[40]، حيث كان فرويد يعتقد أن النساء يفلحن في كتمان سرّهن وعدم إفشائه، الأمر الذي ربما كان طريقة للتعبير عن قلقه تجاههن.

لقد تعامل فرويد مع الأنوثة لديه بنوع من الفتور وتحاشاه جانباً؛ كما رسم في بعض كتاباته خطوطاً قاطعة وحاسمة بين الرجال والنساء، وهي خطوط نرى اليوم أنها مشروطة ثقافياً أكثر منها حقائق سيكو ـ بيولوجية أبدية. وبوجه عام، فإن فرويد كان يخشى السلبية إلى أبعد حد. وكان يكره أن يفقد قدرته على الضبط والتحكم، وعلى سبيل المثال، فقد أحجم عن تعاطي الويسكي والأسبرين. بيد أنه كان قادراً في الوقت ذاته، وفي ممارسته العيادية، على الربط بين الأنوثة والإبداع؛ إذ قال لواحد من مرضاه الرجال وكان ذا ذوق فني رفيع: «أنت أنثوي إلى حد لا يمكنك معه التخلص من ذلك». وكان فرويد يقصد بذلك الإطراء والمديح وليس العكس.

وفي آخر جلسة تحليلية لهيلين دويتش مع فرويد، شجعها فرويد على المحافظة على تماهيها مع والدها، الأمر الذي اعتبره نافعاً لها. وكان ردّ والديها من حِرَفيّة Professionalism إلى مثل هذا التماهي يجد من الدعم والسند ما لا تجده رؤية هذه الحرفية على ضوء ثنائية الجنس Bisexuality، أو الحسد. ولقد ظلت هيلين دويتش حتى أواخر شيخوختها تعتبر أمها امرأة مزعجة[41]. «ثمة مجال للشك بأن فرويد والمحللين الأوائل كانوا يفكرون بعقدة أوديب لدى المرأة بوصفها مجرد حب لوالدها وكراهية لأمها، على الرغم من الصقل والترصين الذي أدخلوه لاحقاً على فكرتهم هذه». ولقد كانت هيلين دويتش هي الأصغر بين أربعة أطفال، وكانت قد ولدت بعد عشرة سنوات تقريباً من ولادة أختها الأكبر منها مباشرة، ولذا كانت قرّة عين والدها، مثل طفل وحيد، بوصفها البنت الأصغر والثالثة.

وظلت هيلين دويتش على قيد الحياة بعد وفاة الكثير من رواد التحليل النفسي بحيث ساقها تماهيها مع فرويد إلى رؤية نفسها بوصفها «شبح فرويد». وحاولت هيلين أن تتماهى مع روح مذهب فرويد وليس

مع التحليل النفسي كحركة بيروقراطية. وفي سنواتها الأخيرة راودتها الشكوك حيال نجاعة المعالجة التحليلية النفسية المديدة، وخابت آمالها في التحليل النفسي كطريقة علاجية لأنه كثيراً ما بدا وكأنه يخدم حاجات نكوصية(*) لدى المرضى[42]. ويبدو أن بعضاً من أفضل تحليلاتها قد أثمرت أشد النتائج العلاجية سوءاً في حين أن بعضاً من أفضل التغييرات العلاجية التي أدخلتها قد تلت أسوأ تحليلاتها. واستخلصت هيلين دويتش، كما استخلص فرويد من قبل بالنسبة لتقنية التنويم المغناطيسي، أن عمق التحليل ليس له إلا علاقة واهية مع أثره العلاجي. وعلى الرغم من الاتجاهات الحديثة في النظرية التحليلية النفسية، فإن الإلحاح على سيكولوجيا الأنا لم يَرُقْ لهيلين دويتش[43] وكانت تميل إلى إنكار ماقال به هارتمان من وجود مجالات للصراع الحر Conflict - free spheres .

وعلى الرغم من العلاقة الشخصية الممتازة بين هيلين دويتش وفرويد، فإن مسألة الأسبقية قد أثيرت بينهما ذات مرة. ففي منتصف العشرينات كانت قد أرسلت مقالة من مقالاتها إلى النشر، ومن ثم ناقشا في مكتبه عملها الصادر حديثاً في سيكولوجيا المرأة. وكانت مقالتها تُقارب إشكالية تطورية خاصة لدى البنات الصغيرات ـــ انفكاك الليبيدو عن الموضوع الأولي (الأم) من أجل التوصل إلى اختيار موضوع للحب من الجنس المغاير. وأوضح لها فرويد أنه قد كان لديه هو أيضاً بعض من هذه الأفكار، قبل قراءة مقالتها، والتي تحدد موعد نشرها قبل موعد نشر مقالته هو[44]. واعتبرت هيلين أن اخفاقها في التأكيد على أنها قد توصلت إلى أفكارها بصورة مستقلة هو بمثابة تنازل عن حقها.

وفي عام 1925، أصيبت هيلين دويتش بخيبة أمل مريرة حين قرأت

(*) النكوص: عملية نفسية تشتمل على عودة في اتجاه معاكس من نقطة تم الوصول إليها إلى نقطة تقع قبلها، مثل عودة الشخص إلى مراحل سبق له أن تجاوزها في نموه.

آنا فرويد مقالة والدها «بعض العواقب النفسية للاختلاف التشريحي بين الجنسين» ولم يكن فيها أية إشارة إلى عملها الأسبق[45]. وكانت مقالتها قد ظهرت في موعدها، ولذا فقد عزت عدم وجود أية إشارة إليها إلى غيرة آنا فرويد[46]. وبالفعل فقد كان في النسخة المنشورة من مقالة فرويد هذه فقرة ختامية، من الواضح أن آنا فرويد لم تقرأها، حيث يعترف فرويد بأعمال قام بها آخرون في هذا الميدان. وإذا ماكنا نعلم مقدار قلق فرويد الباكر حيال اقتباس الآخرين منه دون أن يشيروا إلى ذلك، فإن بمقدورنا رؤية كيف أن المعارك الكبيرة قد خبت الآن:

في الدراسات القيّمة والشاملة حول الذكورة وعقدة الخصاء لدى النساء التي قام بها أبراهام (1921)، وهورني (1923) وهيلين دويتش (1925) ثمة كثيرمما يمس تماماً ما كتبته دون أن يتطابق معه تطابقاً تاماً، ولذا فإنني أشعر بوجود مبرر لنشر هذه المقالة هنا أيضاً[47].

إنه لمن الصعب أن نعرف إلى أي حد كان استياء هيلين دويتش من فرويد محقّاً، ولعل لومها لآنا فرويد لم يكن مبرراً، ذلك أن فقرة فرويد الأخيرة ربما لم تكن قد كُتبت بعد حين تلت آنا المقالة في أحد المؤتمرات. ولكن دويتش لم يرق لها أن يَرِدَ اسمها مع اسمين آخرين، على الرغم من احترامها لكليهما كندّين على الأقل. (ولقد استاءت أيضاً لأن فرويد قد اقتبس منها بالتتالي مع جيان لامبل دي غرو وروث ماك برونشفيك)[48]. وكان الحدث مشحوناً بالإنفعال بحيث خامرها شعور بأن فرويد قد تجاهل إسهامها الأسبق الذي ناقشه معها في مكتبه[49] على الرغم من اقتباسه مقطعاً منها. ولقد شعر تلاميذ آخرون لدى فرويد في سنواته الأخيرة، مثل إدوارد ويس، أن فرويد قد انتحل مفاهيم لهم دون إقرار بذلك[50].

بيد أن هؤلاء التلاميذ كانوا جدّ قريبين من فرويد بحيث كان من السهل تماماً بالنسبة لهم أن يخلطوا بين أفكاره وأفكارهم. وفي نص نشر بعد وفاة فرويد، ختمت هيلين دويتش بكلام عن «نادرة حقيقية تماماً»

تتعلق بسيكولوجيا الجراحة:

في صباح من صباحات أوائل الصيف ومنذ سنوات عديدة، اكتشف سكان بلدة ألمانية فيها جامعة صغيرة اكتشافاً مذهلاً... وهو أن الكلاب التي كانت تعدو طليقة خلال الليل في جزء معين من البلدة قد فقدت أذنابها. وعلموا أن طلاب كلية الطب كانوا قد أقاموا حفلة شراب في تلك الليلة وأنهم حين غادروا الحفلة هبط على أحدهم إلهام هزلي رفيع بأن يقطع أذناب الكلاب. وقد أصبح هذا الشاب لاحقاً واحداً من أشهر الجراحين في ا لعالم[51].

ولكنها نسيت أن فرويد كان قد استعان بهذه النادرة أمام لفيف من تلاميذه لكي يوضح لهم مفهوم الإعلاء أو التصعيد[52]. (وكان هايني أيضاً قد روى النادرة ذاتها، والتي من المفترض أن يكون فرويد قد أعاد روايتها؛ حيث سجّل أنه كان قد سمعها في طفولته).

ولقد ظلت هيلين دويتش سلبية ومتلقية تجاه فرويد ومفاهيمه، على الرغم من أنها نعمت بسيرة مهنية حافلة كطبيبة نفسانية ومحللة نفسانية. وحين أوجزت جيرمين غرير وجهة نظر دويتش التي مفادها أن المرأة «ليس لها أهمية إلا بدالّة وجود رجل إلى جانبها، تعتمد عليه اعتماداً مطلقاً»[53]، لم تدرك أن نموذج دويتش المتعلّق بكيفية تحقيق المرأة لذاتها كان علاقتها ليس بزوجها، وإنما بفرويد. وقد عبرت هيلين دويتش عن ذلك بقولها:

إن الشرط النرجسي الأساسي لهذا التماهي هو الألفة السيكولوجية، وتشابه الأناوين. وتقع على عاتق المرأة الحصة الأكبر من عملية تحقيق التوافق: فعليها أن تترك المبادرة للرجل وتتخلى عن الأصالة خارج احتياجها الخاص، معبّرة عن نفسها من خلال التماهي. وبعض هؤلاء النساء يحتجن إلى إفراط في تقييم موضوعاتهن، ويمكن التعبير عن طريقتهن النرجسية في جعل الرجل سعيداً بالصيغة التالية: «إنه مدهش وأنا جزء منه».

وهؤلاء النساء لسن مجرد شريكات حياة مثاليات للرجال؛ فعندما يمتلكن درجة كبيرة من ملكة الحدس النسوية، يكنّ معاونات مثاليات غالباً مايلهمن رجالهن ويشعرن من جانبهن بأشد السعادة لهذا الدور. ويبدو أن هؤلاء النساء قابلات للتأثر بسهولة، ويتكيفن مع شركائهن ويتفهمنهم. فهن الرفيقات الأقرب إلى النفس والأبعد عن العدائية ويردن البقاء في هذا الدور، فلا يتشددن في الإلحاح على حقوقهن الخاصة ـ بل على العكس تماماً. إنهن يسلسن قيادهن على كل وجه ـ لمجرد ان يحبهن المرء...

وإذا ماكُنّ موهوبات في اي مجال من المجالات، فإنهن يحافظن على قدرتهن لكونهن أصيلات ومنتجات، ولكن دون الدخول في صراعات تنافسية. وهن على استعداد دائم للتخلي عن إنجازاتهن الخاصة دون الشعور بأنهن يضحين بأي شيء ويستمتعن بإنجازات شركائهن، والتي غالباً ما يكن قد ألهمنها. كما يشعرن بحاجة فائقة للدعم عندما ينهمكن في أي نشاط «موجه نحو الخارج»، لكنهن مستقلات تماماً في كل تفكير أو شعور متعلق بحياتهن الداخلية، أي بـ نشاطهن الموجه نحو الداخل. وقدرتهن على التماهي ليست تعبيراً عن فقر داخلي بل عن ثراء داخلي»[54][(*)][55].

وحين كان فرويد يذهب إلى حفلة موسيقية فإن هيلين دويتش كانت تذهب إليها أيضاً، ولكنها كانت تجلس مع زوجها بعيداً عن النساء المتحلقات حول البروفسور. فهيلين لم تكن متماهية مع فرويد إلى الحدّ الذي تفقد عنده قدرتها على استخدام محاكمتها الخاصة. وفي إحدى المرات تم تحويل حالة صرع إلى هيلين دويتش، وخشي فرويد من أن يأخذ

(*) إن واحداً من أشهر الإسهامات العيادية لهيلين دويتش متعلق بتقلبات التماهي لدى الشخصيات «المُنتَحِلَة» والمحتالين[55]. ـ بول روزن ـ

عليه خصومه أن التحليل النفسي يدّعي القدرة على مداواة ما يتعدى الجانب العصابي في هذا الداء؛ وأصغت هيلين دويتش لما قاله فرويد بهذا الشأن، لكنها قررت أن تتولى الأمر مع ذلك. وتتوافق المرحلة الإبداعية الخصبة لدى هيلين دويتش مع فترة تماسها الوثيق مع فرويد، ويمكن الزعم على هذا الأساس أن حضور فرويد قد كان له أثر تحفيزي على عمل هيلين دويتش.

وحين أصيبت هيلين بحالة همود واكتئاب من جراء علاقتها بفرويد، إثر خلافه مع زوجها، كتب إليها محللها الثاني، أبراهام، في عام 1924 أنها عملت على تضخيم نبذ فرويد لها انطلاقاً من مشاعرها المازوخية النسوية تجاه والدها؛ ونصحها بأن تكون أكثر فاعلية تجاه فرويد، الذي كان آنئذ في سياق خسارته لأوتورانـك وكان لديه بالتالي، وبمصطلحات تلك الأيام، فائض من الليبيدو يمكن توجيهه نحو موضوعات جديدة في حياته. وعلى الرغم من أن هيلين لم تتمكن أبداً من تجاوز صدمة سوء التفاهم مع فرويد بشأن إصابته بالسرطان، إلا أن قدرتها كانت تضاهي قدرة فرويد على العمل الشاق. كانت تبدأ العمل في السابعة صباحاً، وترى أحد عشر أو اثني عشر مريضاً يومياً، طوال ستة أيام في الأسبوع. وفي ذلك الوقت لم يكن المحلل يأمل برؤية الكثير من الحالات خلال حياته المهنية كلها، ولذا كان بحاجة لرؤية تشكيلة من الحالات؛ فضلاً عن أنه لم يكن واضحاً آنذاك أن التحليل النفسي سوف يصمد ويبقى، ولذا كان يتعيّن على المحلل قبول الحالات كيفما أتت.

وفي أواخر عام 1924 أصبحت هيلين دويتش مديرةً لمعهد التدريب في جمعية فيينا للتحليل النفسي. ولم يكن ذلك خيار فرويد بقدر ما كان خيار الجمعية. وكانت هيلين تتصل بفرويد عن طريق الرسائل بصورة أساسية، ولم تتصل به أبداً عن طريق الهاتف؛ كما كان ثمة لقاءات لمناقشة وترتيب أمور المرشحين والمرضى. ولقد عملت هيلين طوال عشر

سنين بكل قدراتهـا الوظيفية دون أن تحتاج إلى أية حواجز بيروقراطية. وعندما سافرت إلى الولايات المتحدة في عام 1934 كتب لها خلفاؤهـا في فيينا أنهم لم يجدوا السجلات؛ بيد أنه لم يكن هناك أية سجلات على الإطلاق. ولقد جعلتها سمعتها في فيينا محللة ومدربـة بـارزة بالنسبة للأميركيين الذين وصلوا إلى فيينا؛ وكانت هي الأفضل برأي الكثيرين، طالما لم تكن هناك إمكانية للتدريب التحليلي على يدي فرويد بالذات.

وفي عام 1930 سافرت هيلين دويتش إلى أميركا لحضور مؤتمر حول الصحة العقلية. وأعطاها فرويد مالاً من عنده لشراء هدية وتقديمها لبريل[*] باسم فرويد؛ فاشترت تمثالاً فضياً وقدمته، مدركةً أن تقديم هدية عبر وسيط معناه أن بريل لم يكن في الحقيقة ذا حظوة خاصة لدى فرويد. وسافرت هيلين على نفقة المؤتمر، وعندما وصلت إلى الولايات المتحدة، تخلّف لديها انطباع عن الحياة الأميركية شبيه بالانطباع الذي تخلّفه هوليوود. ونشر ويتلز مقالاً عنها في إحدى الصحف، ووصفها، كما تذكر، بأنها حسناء ألمانية شقراء، طويلة (بينما كانت قصيرة، كستنائية الشعر، ويهودية من اصل بولوني)، وبأنها سفيرة من بلاط فرويد. وحين عادت إلى فيينا أخذت معها علبتَي سيجار، واحدة لزوجها والأخرى لفرويد، ووجدت نفسها في ورطة عندما سُرِقَتْ إحداهما، لكن زوجها طلب منها أن تعطي العلبة الباقية لفرويد.

في الثلاثينات كان ثلثي مرضى هيلين دويتش من الأميركيين.

(*) أبراهام. أ. بريل (1884-1948) محلل نفساني هنغاري الأصل هاجر إلى أميركا وعمره خمسة عشر عاماً كتب الكثير من المقالات في شرح التحليل النفسي وتفسيره، وهو من أوائل من ترجموا فرويد إلى الانجليزية على الرغم مما أثارته ترجمته من ملاحظات واعتراضات. أسس جمعية نيويورك للتحليل النفسي عام 1911 وكان رئيسها.

وكانت الهجرة إلى الولايات المتحدة تغري تلاميذ فرويد، سواء طلباً للأمان السياسي أو الضمان الاقتصادي. وفي عام 1934 دعاها ستانلي كوب، والذي كان مهتماً بالطب التحليلي ـ النفسي، إلى بوسطن. وفي خريف 1934 وصلت إلى كيمبردج، في ولاية ماساشوسيتس، ترافقها بطانة كبيرة من المرضى. ومن الضفة الأخرى للأطلسي أمكن لهيلين رؤية الخطر النازي بمزيد من الوضوح، وأقنعت زوجها في أوائل عام 1935 باللحاق بها. ومثل غيرها من الأطباء القادمين، تعين على هيلين أن تؤدي فحوصها الطبية من جديد؛ وبسبب عملها مع النساء فقد اهتمت ببحث الغدد الصماء، لكن اجتيازها الاختبارات استغرق سنتين من التحضير.

قبل أن تقرر هيلين دويتش في النهاية مغادرة فيينا، كانت قد تشاورت مع فرويد. وترك فيليكس دويتش القرار لها، على الرغم من تفضيله البقاء، حيث كانت أمامه فرصة تسلم رئاسة عيادة طبية هامة. كما أن فرويد لم يكن يريدها أن ترحل، لكنه لم يُشِرْ إلى أن بقاءها هو بمثابة حاجة شخصية بالنسبة له، الأمر الذي كان سيشكل نوعاً من الالتماس الذي تصبوا إليه. وعوضاً عن ذلك فقد ناقش فرويد المسألة من منطلق مهني، مشيراً إلى أن الجماعة التحليلية النفسية في فيينا سوف تعاني من جراء فقدانها. وعلى الرغم من أن ذلك قد بدا لها بمثابة أمر بعدم السفر إلى أميركا، إلا أنها غادرت مكتب فرويد كسيرة الفؤاد وأكثر تصميماً على الهجرة من أي وقت مضى[56].

المراجع

(1) انظر، هيلين دويتش، في العصابات وأنماط الطبع، ص 165-189(2) . كاتي ميليت، السياسة الجنسية، (نيويورك Doubleday 1970: ص 176-228، وجيرمين غرير، المرأة المخصيّة (نيويورك McGraw : 1971)

(3) هيلين دويتش، سيكولوجيا النساء، المجلد 2، (نيويورك Grune & Stratton؛ 1945) ص 84.

(4) المصدر السابق، ص 275 . انظر، دويتش، مواجهات مع نفسي، ص 75، 209.

(5) «ثلاث مقالات في نظرية الجنسية»، الطبعة المعيارية، المجلد 7، ص 219.

(6) «محاضرات تمهيدية جديدة»، ص 131.

(7) محاضر جمعية فيينا للتحليل النفسي، المجلد II، ص 477.

(8) رسالة من آرنست جونز إلى آنا فرويد، 19 كانون الأول 1934 (مخطوطات جونز).

(9) سيغموند فرويد، النكتة وعلاقتها باللاوعي، ترجمة جيمس ستراتشي، نورتن وشركاه 1960، ص 61، 64.

(10) «محاضرات تمهيدية جديدة»، ص 116.

(11) رسالة من إدوارد هيتشمان إلى آرنست جونز، 26 آذار 1954 (مخطوطات جونز).

(12) «محاضرات تمهيدية»، المجلد 16، ص 402، و«من تاريخ عصاب طفلي»، الطبعة المعيارية، المجلد 17، ص 47.

(13) «الحضارة ومنغصاتها»، الطبعة المعيارية، المجلد 21 ، ص 106؛ «موجز التحليل النفسي»، الطبعة المعيارية، المجلد 23، ص 188.

(14) «تابو العذرية»، الطبعة المعيارية، المجلد 2، ص 204.

(15) «الجنسية النسوية»، الطبعة المعيارية، المجلد 21، ص 233 .

(16) «علم النفس المرضي للحياة اليومية»، الطبعة المعيارية، المجلد 6، ص 156؛ «الحضارة ومنغصاتها»، الطبعة المعيارية، المجلد 21، ص 103؛ «في الأسس التي يقوم عليها فصل متلازمة محددة عن النوراستانيا الموصوفة (عصاب القلق)، الطبعة المعيارية، المجلد 3، ص 109 .

(17) «ثلاث مقالات في نظرية الجنسية»، ص 191.

(18) «الأخلاق الجنسية «المتحضرة»، والاعتلال العصابي الحديث»، الطبعة المعيارية، ص 199.

(19) المصدر السابق، ص 195، 199؛ و«محاضرات تمهيدية جديدة»، ص 134.

(20) «محاضرات تمهيدية جديدة»، ص 132.

(21) رسائل فرويد وأندرياس سالومي، ص 172.

(22) «ثلاث مقالات في نظرية الجنسية»، ص 221.

(23) «بعض العواقب النفسية للتباين التشريحي بين الجنسين»، ص 257.

(24) «ثلاث مقالات في نظرية الجنسية»، ص 191.

(25) هيلين ووكريوزر، فرويد، حياته وفكره (نيويورك: هويل، سوسكين؛ 1947)، ص 285.

(26) حوار تحليلي نفسي: رسائل سيغموند فرويد وكارل ابراهام، تحرير هيلدا أبراهام وأرنست فرويد، ترجمة برنارد مارش [اسم غير حقيقي] وهيلدا أبراهام (نيويورك: بازيك بوكس؛ 1965)، ص 376؛ و«ثلاث مقالات في نظرية الجنسية»، ص 151.

(27) جيمس ستراتشي، «ملاحظة من المحرر»، الطبعة المعيارية، المجلد 19، ص 243.

(28) «مسألة التحليل غير الاختصاصي»، ص 212؛ و«محاضرات تمهيدية جديدة»، ص 113.

(29) «محاضرات تمهيدية جديدة»، ص 135.

(30) «بعض العواقب النفسية للتباين التشريحي بين الجنسين»، ص 251.

(31) «محاضرات تمهيدية جديدة»، ص 118.

(32) فريدان، تبصرات، ص 47.

(33) دويتش، سيكولوجيا النساء، المجلد 1، ص 233.

(34) «محاضرات تمهيدية جديدة»، ص 119.

(35) «بعض العواقب النفسية للتباين التشريحي بين الجنسين»، ص 257.

(36) «الجنسية النسوية»، ص 230.

(37) «محاضرات تمهيدية جديدة»، ص 124.

(38) «الجنسية النسوية»، ص 226.

(39) بونر، فرويد، ص 288.

(40) رد ذلك في «ملاحظة المحرر»، الطبعة المعيارية، المجلد 19، ص 244.

(41) مقابلة مع هيلين دويتش، 30 تشرين الثاني 1967؛ وماري بريهل، «هيلين دويتش» في رواد التحليل النفسي، ص 283 . انظر أيضاً دويتش، مواجهات مع نفسي، ص 62–69، 30–37.

(42) قابلة مع هيلين دويتش، 18 حزيران و2 تموز 1966.

(43) مقابلة مع هيلين دويتش، 19 شباط 1966.

(44) مقابلة مع هيلين دويتش، 5 شباط و4 أيار 1966.

(45) مقابلة مع هيلين دويتش، 3 حزيران 1967.

(46) مقابلة مع هيلين دويتش، 31 كانون الأول 1966.

(47) «بعض العواقب النفسية للتباين التشريحي بين الجنسين»، ص 258.

(48) «الجنسية النسوية»، ص 226ـ227؛ و«محاضرات تمهيدية جديدة»، ص 130–131؛ ومقابلة مع هيلين دويتش، 13 تشرين الثاني 1965 . انظر أيضاً دويتش، مواجهات مع نفسي، ص 138.

(49) هيلين دويتش، «سيكولوجيا النساء بالعلاقة مع وظيفة التكاثر»، المجلة الدولية للتحليل النفسي، المجلد 6، الجزء 4 (تشرين الأول 1925)، ص 405ـ418.

(50) إدوارد ويس، رهاب الساح في ضوء سيكولوجيا الأنا، (نيويورك: Grune & Stratton، 1964)، ص 119.

(51) دويتش، العصاب وأنماط الطبع، ص 304.

(52) مقابلة مع ويلي هوفر.

(53) عرير، المرأة المخصية، ص 94ـ95.

(54) دويتش، سيكولوجيا النساء، المجلد I، ص 191ـ192.

(55) دويتش، العصاب وأنماط الطبع، ص 262ـ281، 319ـ338

(56) مقابلة مع هيلين دويتش، 5 آذار 1966.

- 8 -

لو أندرياس - سالومي وفيكتور توسك

«حب وانتحار»

فيكتورتوسك (1879-1919) واحد من أنصار فرويد الأوائل والأشد موهبة. وعلى الرغم من أنه كان شخصية بارزة ومتفوقة جداً بين المحللين النفسانيين قبل الحرب العالمية الأولى، فقد أصبح منسياً تماماً. وإذا ماكانت بعض أعماله معروفة بين أولئك المهتمين بالمقالات التحليلية النفسية الباكرة بدافع الاختصاص[1]، فإن المكانة التي يحتلها توسك في التاريخ غالباً ماترتبط أساساً بأنه كان واحداً من عشاق لو أندرياس - سالومي (1861-1937).

فقد قامت بينهما علاقة قصيرة الأجل في فيينا، أثناء مكوثهما هناك 1912-1913 . وقبل ذلك لسنوات كان نيتشه(*) قد طلب يدها، ثم

(*) فريدريك نيتشه (1844-1900): فيلسوف وشاعر ألماني. تخصص في الفلسفة الكلاسيكية في جامعتي بون ولايبزغ، وأصبح استاذ اليونانية في جامعة بال عام 1869 ثم استقال من منصبه لسوء صحته بعد عشر سنوات. عاش حياة عزلة وعانى من انهيار عقلي كامل لم يشف منه بقية حياته. من مؤلفاته «ولادة المأساة»، «هكذا تكلم زرادشت»، «أصل الأخلاق وفصلها»... الخ.

أقامت علاقة حميمة مع ريلكه(**) . وحين انضمّت إلى حلقة فرويد بهدف تعلّم التحليل النفسي، لم تستطع لو أندرياس ـ سالومي الحصول على فرويد ذاته؛ لكنها حصلت على توسك، صاحب الموهبة البارزة والمكانة والحظوة لدى فرويد، والذي كان بالنسبة لها ثاني أفضل الخيارات بعد فرويد. ونجد في اليوميات التي كتبتها عن فرويد تعليقات تخصّ طبع توسك وشخصيته هي التعليقات الأشدّ تبصّراً ونفاذاً.

ولقد كتب فرويد بنفسه النعي الرسمي لتوسك حين مات. وقال في هذا النعي إنّ «ما من أحد كان يستطيع الإفلات من الإنطباع الذي مفاده أن هذا الرجل ذو أهمية». أما حكم فرويد النهائي فهو أن توسك قد خلّف «بالتأكيد ذكرى عطرةً في تاريخ التحليل النفسي وصراعاته الباكرة»[2]. بيد أن الأمر كان بحاجة إلى نصف قرن من الزمن كي تظهر المصاعب بين فرويد وتوسك إلى العلن كاملةً. وليس مدهشاً أن مريدي فرويد في فيينا قد احتفظوا بهذه القصة لأنفسهم. وعلينا أن نتذكر أنهم كانوا يجلّون فرويد، فضلاً عن شعورهم بالذنب تجاه المنافس الخاسر. وإذا ماكان الانتحار في أي حال من الأحوال فعلاً مخيفاً، فإنه حين يأتي بعد عراك مع فرويد مثل انتحارُ توسك، يساعد في إضفاء معنى واقعي على القوى السحرية التي عزاها تلاميذ فرويد لقائدهم.

نشأ توسك في كرواتيا، التي كانت آنذاك مقاطعة واقعة على أطراف الامبراطورية النمساوية ـ الهنغارية. وكان حنوناً تجاه أمه وراعياً لحاجاتها، هي التي تفانت وكرّست نفسها لزوجها العدواني بل الطاغية. ويبدو أنها كانت جميلة، لكن القلق المتواصل وحاجات الأطفال تركتها

(**) راينر ماريا ريلكه (1865-1926): شاعر ألماني قضى معظم حياته في الأسفار. من أعماله «قصص الله»، «كتاب الساعات»، «الجناز»، «أغاني لأورفيوس»... الخ. ويُعَدّ ريلكه من أبرز شعراء مطلع هذا القرن.

متعبة وحزينة، فزوجها لم يكن مخلصاً؛ كما كان جذاباً بل وفاتنا بالنسبة للنساء.

كانت علاقة توسك بأبيه متوترة وعدائية. ولقد كتب لاحقاً أنه كان يرتبك إذا ماناداه أحد باسم أبيه. ونظراً لما يتمتع به توسك من ذكاء وإحساس بالعدل فقد أحبه رفاقه التلاميذ وجعلوه قائداً بينهم. ومما يُذكر له أنه تصادم مع استاذ الدين الذي لم يرُق له إلحاد توسك؛ بل وقاد إضراباً ضد الدين قبل تخرجه من المدرسة. وفي البداية كان توسك يرغب بدراسة الطب، لكنه اتجه إلى دراسة أخرى أقل كلفة هي المحاماة لأن عائلته لم تكن تقوى على تأمين مايلزم لدراسة الطب.

وفي عام 1897 مضى توسك إلى جامعة فيينا؛ وفي العام التالي التقى زوجته المقبلة مارتا. وكانت علاقته مع حميه المقبل نسخة طبق الأصل لعلاقته العدائية بوالده؛ فكانا يكرهان أحدهما الآخر كل الكره. بيد أن مارتا كانت تحب فيكتور حباً جماً، وحملت منه، وتزوجا في عام 1900 ومضيا معاً إلى يوغوسلافيا،حيث توفي الطفل أثناء الولادة.

وتابع توسك تدّربه كمحامي، في سيراجيفو أولاً ومن ثم في موستار، بينما أنجبت زوجته ولدين. وفي أواخر الربيع من عام 1905 قرر توسك ومارتا الانفصال، ومضت هي إلى فيينا مع الطفلين بينما استقر توسك في برلين. ونظراً لبقائه سنوات عديدة في المقاطعات، فإن توسك البالغ السادسة والعشرين عاماً من عمره كان مايزال طموحاً على نحو لا يعرف السكينة أو الهدوء. وراح ينشر بعض القصائد الشعبية الغنائية الصربية بعد أن ترجمها إلى الألمانية، ويكتب قصصاً قصيرة وأشعار، كما كتب مسرحيات، ونشر بعض النقد الأدبي[3].

وفي برلين، كان توسك قادراً على المباشرة في تغيير مجرى حياته. ولقد مارس العزف على الكمان، والرسم بالفحم، وإخراج المسرحيات. كما دفعته ضرورة العيش إلى الكتابة الصحفية، الأمر الذي بدا له مُذِلاً

ومهيناً. ونجد في رسائله مايدل على جهوده في كسب المال، وتوقه للعمل الإبداعي الخلاّق، فضلاًعن عنايته بأطفاله.

لم تكن دراسة القانون بالنسبة لتوسك سوى تلك الدراسة الأكاديمية الأقصر والأرخص التي تفضي في النهاية إلى لقب مهني. وحين أصبح محامياً شعر أنه قد خدع ذاته الحقيقية وراح يتصرف على نحو سيء انطلاقاً من كراهيته لنفسه، مما أسهم في مفاقمة مشاكله المتعلقة بزواجه. وعلاوةً على هذا، يبدو أن توسك كان عاجزاً عن تحمّل حب زوجته التابع؛حيث لم تكن مكتفية بذاتها بما يكفي لجعله مرتاحاً معها. ولقد كتب مرةً إليها: «لا أحب سوى البشر الأحرار، أولئك المستقلين عني.. والطريقة التي أحيا بها الآن هي الطريقة الأفضل حقاً...: مستقل لأن لا أحد معتمد عليّ وتابع لي، وليس ثمة عبد لأنه ليس ثمة سيد». ومن الجدير بالقول إن أسباب إخفاق زواج توسك تلقي بعض الضوء على الارتباط المستقبلي مع فرويد.

كان توسك يدرك ما في قدرته العظيمة على الحب من عنصر تدميري. وكلما أحبّ أكثر، كلما أصبح أكثر اعتماداً وتبعية، وبالتالي كلما أصبح أكثر قسوة بسبب المنطق الغريب لانفعالاته. وكان توسك معطاءً،وطيّب القلب، ومتفانياً، ومخلصاً، لكنه حين كان يدرك فجأةً أنه أصبح مُستَعبَداً، كان يقطع العلاقة، وتبدأ الحلقة بكاملها من جديد مع أحد ما آخر.

وفي برلين، كانت صحة توسك تسوء بالتدريج. ولقد أُحبطت جهوده في كسب حب امرأة محددة وأصيب باضطراب رئوي، وكان يشكو من الوهن ونقص التركيز. وتمكّن من تأمين مكان شاغر في مشفى ألماني للمصدورين مقابل وعد بأن يكتب عنه مقالات تقريظية. وكان تشخيص حالته هو الإعياء الذهني والجسدي، وتردّت حالته بشكل غير متوقّع وبسرعة؛ وانزلق إلى حالة همود شديد. كان يتوق لمهنة وبيت، ولم

يحظ بأي منهما. ومع ذلك فإنه كان يعمل بشكل يثير الإعجاب ككاتب، واصفاً في رسائل إلى زوجته مايعنيه القعاد بلا عمل. ومثلما كان انهيار توسك مفاجئاً، فإن شفاءه جاء سريعاً وعفوياً، بيد أن الانفعالات الهمودية، عادت لإنزال البلاء به، على الرغم من أنها لم تكن منهكة هذه المرّة.

وعلى الرغم من هذا الانهيار الرهيب، فقد أستطاع توسك إمساك نفسه ومحاولة القيام بشيء ماجديد. ومن بؤسه هذا خرج وتوجّه إلى فرويد والتحليل النفسي. وكان يلتمس لدى فرويد ما افتقر إليه أشد الافتقار من توجيه وإرشاد. وهكذا رد توسك على إحدى مقالات فرويد برسالة، وظن فرويد أن توسك طبيباً وشجّعه على القدوم إلى فيينا لدراسة التحليل النفسي. وفي خريف عام 1908 انتقل توسك إلى فيينا لدراسة الطب؛ وكان قد خطط من قبل لأن يصبح محللاً. لكنه قبل أن يبدأ حياة جديدة، قرر أن يضع حداً لجزء من حياته السابقة: فعلى الرغم من انفصاله وزوجته منذ تشرين الأول 1905، إلا أنهما لم يُتما طلاقهما إلى حين عودته إلى فيينا في تشرين الأول 1908 .

ولقد حظي توسك بدعم فرويد الشخصي، كما فعل بقية أفراد المجموعة التحليلية النفسية في فيينا مابوسعهم كي يُعبّدوا له الطريق؛ ذلك أن قدراته المتفوقة سرعان ماأتضحت لهم. وإلى جانب مايتمتع به توسك من تبصّر بما يجب القيام به، فإن اختياره أن يصبح محللاً ربما يبدو بمثابة محاولة للنجاة تأمين العيش، ولكنه كان أيضاً ثمرة لمواهبه واهتماماته.

وبخلاف فرويد ومعظم أتباعه من الأطباء، اختار توسك أن يصبح طبيباً نفسانياً. وكان أنصار فرويد من الأطباء النفسانيين في سويسرا مهمين بالنسبة له لأنهم أدخلوا مفاهيمه إلى مقاطعة جديدة تماماً. وكانت أشد منجزات توسك أصالةً هي دراساته السريرية في الفصام (الشيزوفرينيا) واختلال العقل الهوسي الهمودي[4] manic - depressive insanity.

وكان أول عضو في جمعية فيينا للتحليل النفسي يقوم بدراسة الذهانات سريرياً، في وقت لم يكن فيه فرويد نفسه مهتماً إلا بمعالجة أشخاص أقل اضطراباً وحسب. كما قدّم توسك مساهمات باقية في النظرية التحليلية النفسية تمّ إدماجها في أعمال مفكرين معاصرين مثل برونو بتلهايم وإريك إريكسون[5]؛ لكنه لم يستطع البقاء في حلقة فرويد لأن صلته بفرويد كان تضطره للسماح بأن يُطغى عليه ويُغمر.

ويبقى أن أفضل مصدر لعلاقة توسك مع جماعة فرويد قبل الحرب العالمية الأولى هو يوميات لو أندرياس - سالومي. ولو هي التي عملت على تقريب فرويد من الجوّالمميّز للثقافة الأوروبية القديمة[6]. وكان عمرها واحداً وخمسين عاماً حين جاءت إلى فيينا عام 1912، وكانت قد أعدّت نفسها من قبل بقراءة كل ماكان فرويد قد كتبه. كما كانت قد وضعت نصب عينيها انتزاع اهتمام فرويد بها، ولقد نجحت بذلك تماماً

كانت لو من ذلك النوع البارع في جمع عظماء الرجال. وبصرف النظر عما كانت تتمتع به من جمال سابقاً، فقد كان عليها الآن الإتكال على قدراتها السيكولوجية في إثارة اهتمام أي مُغرمين محتملين. ونظراً لما تمتعت به لو من استجابة ناشطة وحيوية تجاه الأفكار، فقد أبدت ميلاً وقدرة استثنائية على التماهي مع الرجال، وخاصة ذلك النوع المبدع منهم والأكثر خضوعاً لإنعدام اليقين الداخلي. لكن الذين كانوا يقعون في حبها كانوا يكتشفون في النهاية أنها لم تُعط نفسها في الحقيقة. كانت بمثابة مرآة لهم، تساعدهم في حاجاتهم الإبداعية، لكنها تبقى بعيدة ونائية بشخصها. وكلهم كانوا بحاجة إليها، لكنهم تحققوا في النهاية أنها تملصت منهم.

كان فرويد يحب تلاميذه المبدعين ذوي المخيّلة، ولذا كانت لو اندرياس - سالومي تمثل كسباً شخصياً له وكذلك للتحليل النفسي. وبعد سنوات عديدة كتب فرويد أنه كان معجباً بلو إلى حد هائل وأنه كان مشدوداً إليها «بصورة غريبة بما فيه الكفاية ولكن دون أثر للإنجذاب

الجنسي»[7]. ومن خلال لو كان فرويد على تماس مع أفضل ما في الحياة الثقافية الألمانية، ومنحها ثقته إلى أبعد حد ممكن، لدرجة أنه ناقش معها في رسائل أعوامه الأخيرة المشاكل الانفعالية لدى ابنته آنا.

وفي عام 1912 صنّفت لو أندرياس - سالومي فيكتور توسك على أنه «الأبرز»[8] بين تلاميذ فرويد، وانطلقت بنشاط لإغوائه. وكان توسك وسيماً، أشقر الشعر، وأزرق العينين، وذا شارب جميل. وكان يصغرها بثمانية عشر عاماً. وخلال 1912-1913 شكّل فرويد ولو وتوسك ثلاثياً قدّم الفائدة لكل طرف من أطرافه. فلو غالباًماكانت تحظى برجلين في حياتها وفي آن واحد. أما بالنسبة لفرويد فقد كان للوضع مساوئه مثلما كانت له محاسنه. فقد كان فرويد غيوراً من إمكانية إقامة علاقة بين توسك ولو، لأن توسك كان الأشد شباباً وفتوة، والأقدر بالطبع من الناحية الجسدية. ومن جهة أخرى، كان يمكن لفرويد أن يحظى من لو بالمعلومات عن توسك، مما يساعد على إبقاء هذا التلميذ الذي قد يكون إشكالياً تحت السيطرة. وبالنسبة لكليهما، أي فرويد وتوسك، كانت لو بمثابة وقاء يخفف الصدمات.

ولو، كامرأة، لم تثر أبداً مشاعر التنافس لدى فرويد. فالنساء، بالنسبة لهذا الطراز القديم من الرجال، لسن منافسات. وكان بمقدور لو أن تطريه أو تتملقه ويصدّق كل كلمة تقولها. وكانت قادرة بسهولة على فصل إحساسها بذاتها عن عملها المهني؛ وأن تقدم لفرويد ماهو بحاجة إليه بصورة لا تعرّض كمالها للشبهة بأي حال من الأحوال. وبالمقابل، فإن حاجة فرويد لأن يتماهى تلاميذه معه كانت تثير التمرد والعصيان لدى الرجال؛ فأن يكون الرجل مثل فرويد حقاً يعني أن يكون في نهاية المطاف أصيلاً. ومن ثم فإن هذه الأصالة ذاتها كانت تضع حداً لما يجده فرويد فيه من نفع أو فائدة.

ولقد أبدى توسك درجة من الحقد الذي اعتبرته لو مفرطاً وظالماً

في نصرته فرويد إبان نزاعه مع أدلر[9]. وفي ذروة صراع فرويد العلني مع يونغ، راح توسك يرعد ضد هرطقة يونغ[10]. وكان توسك في أفضل أحواله في هذه المعارك اللفظية الشفوية، فضلاً عن أنه كان مشاكساً وشرساً في مقالاته المكتوبة أيضاً. وبعد سماع لو إحدى محاضرات توسك في التحليل النفسي تكوّن لديها انطباع بأنها أمام «ليس النظرية الفرويدية الكلاسيكية وحسب بل أيضاً أمام مقاربة مُحِبة ومُحترِمة على نحو غير عادي لاكتشافات فرويد الأساسية...». أما اعتراضها الوحيد فكان أن توسك «فرويدي بدقة زائدة؛ على الرغم من أن أحداً من غير المحتمل أن يلومه لو كان العكس»[11].

ومع ذلك فقد رأت لو اندرياس ـ سالومي بدقة مصادر التوتر بين هذين الرجلين. كان فرويد شديد الرغبة بأن يتجاوز كل حدود المعرفة السابقة. لكنه كان يعتقد أن توسك يتشبث بإشكاليات سابقة لأوانها[12]. وكان عمل توسك يثير فرويد ويؤدي إلى اهتياجه، وكانت أصالة توسك جزءاً كبيراً من المشكلة[13]. ولقد تحدثت لو مع فرويد في الأمر مراراً، بينما كانت ماتزال منهمكة في علاقتها مع توسك[14].

ولم يكن استقلال توسك سوى واجهة خارجية إلى حدّما. وأسوأ مافي الأمر أن توسك كان في تلك الفترة، ومن وجهة نظر فرويد، وكأنه ملتصق بصمغ أو غراء إلى اهتمامات فرويد الخاصة، وبطريقة غريبة بدا وكأن توسك قادر على توقع صياغات فرويد الخاصة[15]. وهكذا كان توسك مصدراً لقلق فرويد، ليس بسبب تمتع توسك بعقل من نوع عقل فرويد وحسب، بل أيضاً لجرأته في استخدام موهبته في إشكاليات تهمّ فرويد إلى أبعد الحدود. وخشية فرويد من أن يسرق توسك بعض أفكاره قبل أن يتمّها تساعد أيضاً في إيضاح ماجعل لو مفيدة لفرويد من خلال

إبقاء عينها على توسك(*)[16] . وكان فرويد واثقاً من أنها ستكون إلى جانبه في النهاية. وكان يريد التيقن من أن توسك لن يمتلك فكرة قبل أن يمتلكها هو نفسه.

وأدركت لو أن توسك مستغرق في ذاته واستبطاني، وأنه مفرط الطموح لكنه مخلص متحمس لفرويد. وكانت الحال على هذا النحو لدرجة أن توسك ألقى اللوم على فرويد بشأن مصاعبهما معاً. وكان تعلّق توسك بفرويد ناجماً جزئياً عن افتقاره للمصادر والقدرات الداخلية[17]. وأحبّت لو في توسك ضعفه أمام كيانه الداخلي، وكفاحه المضني لاستخدام ذكائه في السيطرة على أهوائه. وكان توسك متطلباً، لكن قدرته على تنمية الأوهام جعلته قادراًعلى الحب. بيد أن ذاته بقيت سجينة الماضي. «إلا أنني ومنذ البداية تحققت من أن هذا الصراع بالذات داخل توسك هو الذي حرك مشاعري الأعمق ـ صراع المخلوق البشري. الحيوان ـ الأخ. أنت»[18].

ومع بداية الحرب العالمية الأولى انهار كل شيء من حول توسك مرةً أخرى. ولأنه كان قد أنهى تعليمه الطبي، فقد بدأ حياته الجديدة، لكن المرضى كانوا نادرين وممارسة التحليل تكاد أن تكون مستحيلة. واستُدعي توسك إلى الجيش، وعمل على نحوٍ بطولي وعبقري في استخدام التشخيص الطبي النفسي لغايات انسانية. وكَتب مقالة بليغة في سيكولوجيا الفارين من الجيش، كانت واحدة من أبكر المحاولات في تطبيق المكتشفات التحليلية النفسية في مجال القانون[19]. ومرة أخرى عرّض نفسه للخطر بلطافته وابتعاده عن الأنانية لمصلحة المرضى. ولا بد من القول أيضاً أنه

(*) زعمت لو أنّ «المادة الكاملة لـ... كتاب نيتشه أصل الأخلاق وفصلها هي من إبداع بول ري الذي ناقش ذلك في محادثة مع نيتشه؛ وقد أصغى نيتشه بدقة إلى ري، وأخذ منه أفكاره، وأصبح معادياً له لاحقاً[16]» ـ بول روازين ـ

كان يرعى فرصةً لتحدي من هم أرفع منه مقاماً..

ومع نهاية الحرب، عاد توسك إلى فيينا ليستأنف ممارسته. لكن المدينة كانت تعيش في فوضى اقتصادية. وعلى الرغم من أنه قارب الأربعين، كان مايزال على توسك أن يعيش مثل طالب فقير، مع أنه يعيل عائلة. وسمح لنفسه أن يعتمد على حظوته الشخصية وقبوله لدى فرويد. ومع أن الكثير من أصدقائه ومساعديه كانوا يعانون من هذه المشاكل، إلا أن معظمهم لم يكونوا في مثل هذا الوضع غير المحصّن والقابل للعطب. وعلى سبيل المثال، فقد تمكّن فيديرن بسهولة من استغلال ممارسته الطبية بالمعنى الضيق للكلمة.

إن ماقدّمه توسك من انتاج كتابي أثناء الحرب لم يشجعه على التقدم بطلب للعمل كـ Dozent في جامعة فيينا وحسب، بل شجعه أيضاً على الطلب من فرويد أن يقوم بتحليله ـ وكان هذا بمثابة حلم عظيم. لكن توسك كان يعلم حتماً أن حضوره كان مدعاةً لعدم ارتياح فرويد الذي أجاب بالرفض. ومع أن هذا الرفض كان سبباً لمزيد من التوتر في علاقة فرويد بتوسك، إلا أن فرويد كان يعتقد أن بمقدوره إبقاء توسك ضمن الحظيرة.

وحاول فرويد التوصل إلى تسوية مع توسك. وأوصى بأن يذهب إلى التحليل مع طبيبة نفسانية تصغر توسك بخمس سنوات، هي هيلين دويتش، والتي بدأ فرويد بتحليلها في أوائل ذلك الخريف[20]. وكان قد مضى عليها مع فرويد حوالي ثلاثة أشهر عندما بدأ توسك بالذهاب إليها من أجل العلاج في كانون الثاني 1919 . وكان على فرويد أن يناقش الحالة مع هيلين دويتش ويوضح الأسباب التي منعته من تحليل توسك بنفسه.. وقال لها أنه يشعر بنوع من الكف بحضور توسك. وكان فرويد قلقاًومنزعجاً من توسك، كما ذكرت لو من قبل. كما أن أفكار فرويد كانت ماتزال وإلى حد بعيد في حالة تغيّر دائم، وقال لهيلين دويتش أن

انطباعاً «غريباً» قد تكوّن لديه حين دخل توسك إلى الجمعية، حيث استطاع أن يأخذ فكرة من أفكار فرويد ويطورها قبل أن ينتهي فرويد منها تماماً(*) [21] [22].

لقد كانت إحالة توسك إلى هيلين دويتش بمثابة إطراء لها لكنها كانت إهانة كبيرة بالنسبة لتوسك. فعلى الرغم من خبرتها الطبية النفسية، لم يكن لهيلين دويتش أية أهمية كمحللة. وكانت تعلم هي وتوسك أنه قام بأعمال أفضل بكثير بالمقارنة معها. و لم يكن توسك مضطراً لقبول هذه الإهانة. لكن لو اندرياس ـ سالومي كانت قد تكهنت بعجزه عن أن يكون مستقلاً تماماً، وكان يدرك هو أيضاً ولو جزئياً وجود عناصر من هذا الضعف في علاقاته مع النساء. وكما لم يكن توسك قادراً على أن يكون مستقلاً تجاه فرويد، فإنه ماكان يريد للآخرين أن يكونوا تابعين له أو معتمدين عليه. ولا بد أن اكتفاء فرويد بذاته، شأنه شأن اكتفاء لو، كان يجذب توسك على نحو خاص. ومن جهة أخرى، فإن فرويد كان رافضاً لتوسك جزئياً لبعض الوقت، وهذا بالضبط ماوفّر لتوسك ذلك المركّب من الدعم والنأي الذي جعله يشعر بالارتياح.

ابتلع توسك الإهانة ومضى إلى التحليل مع هيلين دويتش، حيث

(*) من الغريب أن فرويد، وفي مقالة أكملها في ربيع 1919، كتب أنه «قد مضى زمن طويل على اختباره أو سماعه أي شيء خلّف لديه انطباعاً غريباً...» وفي مكان آخر من تلك المقالة ألمح فرويد، لدى مناقشته ظاهرة «الشخصية المزدوجة» والتخاطر، إلى مشكلة واجهته هو وتوسك: «حيث يتماهى الخاضع مع أحد ما آخر، لدرجة أنه يكون في شك حيال أي منهما هو، أو يستبدل الذات الخارجية بذاته». «مهما يكن الأمر الذي يذكّرنا بـ... «قهر التكرار» الداخلي فإنه يتم تصوره بوصفه غريب وغامض[21]». وقبل ذلك كان فرويد قد افترض أننا نعزو خاصية «غريبة» للانطباعات التي تسعى إلى إثبات قدرة الأفكار الكليّة...[22]».

أمكن لهذه الأخيرة أن تكون بمثابة جسر بينه وبين فرويد. وكان توسك يستلقي على أريكتها ستة أيام كل أسبوع، مدركاً أنها سرعان ماستكون مستلقية على أريكة فرويد. وهكذا تمكّن من أن يتم تحليله على يد فرويد عبرها هي. كما تمكّن، في الوقت ذاته، من إعادة بناء علاقة مثلثة الأطراف مع فرويد وعبر امرأة. وتكاد أن تكون القصة مع لو ذاتها وقد تكررت، حيث كانت امرأة جذابة أخرى هي القناة بين الرجلين. وكان توسك مدركاً أن المرأة أقل تهديداً بالنسبة لفرويد، ومن خلالها كان بمقدوره الدفاع عن قضيته. أما بالنسبة لفرويد، فقد كانت هيلين دويتش، مثل لو، مصدراً للمعلومات عن توسك.

وفي جلساته التحليلية مع هيلين دويتش، كان توسك دائم الحديث عن فرويد. وكل المصاعب العميقة لدى توسك كانت الآن مرتكزة على فرويد. لكنه لم يكن حانقاً عليه، والأحرى أنه كان حزيناً لموقف المعلم منه. وكان يعتقد أن المشكلة بينهما نابعة من مصاعب فرويد الخاصة. وكان يشعر أيضاً أنه قد توصل إلى بعض الأفكار قبل فرويد، لكن هذا الأخير لم يعترف بذلك. ولا ريب أن توسك كان قادراً على امتلاك أفكار خاصة به، لكنها في الواقع كانت منسجمة مع ما يمكن أن يفكر به فرويد في النهاية. كما أن طريقة فرويد في العمل كانت تثير استياء توسك إذ تحول بينه وبين الثقة بأنه سيتمكّن من إثبات ذاته على نحو أصيل.

وينبغي القول إن اللوم ذاته تقريباً يقع على كل من فرويد وتوسك، كما أن جزءاً من الحدة في صراع فرويد وتوسك ينبع من التشابه في شخصيتهما. وكل منهما كان يعتقد أن الآخر يأخذ منه أفكاراً دون اعتراف بذلك. وكان ثمة أسس متينة لمثل هذا الاعتقاد لدى كليهما. وكان فرويد يرى أن ما يفكر به تلاميذه هو له في الجوهر. وبدا لتوسك أن المشكلة لا تكمن في المدى الذي يطاله إبداعه العقلي، ذلك أن فرويد سيضع بصمته في النهاية على مساهمات توسك. وكان كل منهما يعتقد

أنه فريد وعبقري ويخشى من أن يدمره الآخر. بيد أن توسك هو الذي طلب العلاج. ورأت هيلين دويتش، وهي التي سمعت شكاوي الطرفين واتهاماتهما، أن ثمة بعض الحقيقة في ماكان يشعر به كلاهما.

وبصرف النظر عن دوافع فرويد في إرسال توسك إلى هيلين دويتش، أو دوافع توسك في قبول هذا الإذلال، فقد ثبت أن هذا الإجراء لم يكن فعالاً. فبسبب تأثر هيلين دويتش بما اعتبرته عبقرية توسك، أصبحت ساعات تحليلها مع فرويد مليئة بالكلام عن توسك. وهكذا بدأ توسك يتدخل في تحليلها الخاص مع فرويد. وحوالي نهاية آذار، وبعد أشهر ثلاثة، وضع فرويد حداً لوضع مُحَرَّم.

وشرح فرويد لدويتش أن توسك أصبح بمثابة عائق في تحليلها الخاص وأنه قد قبل بها كمحللة له بقصد الاتصال بفرويد من خلالها. ودفعها فرويد للاختيار بين قطع تحليل توسك معها أو قطع تحليلها الخاص مع فرويد. وبالنسبة لدويتش، فإن هذا لم يكن خياراً واقعياً وإنما نوعاً من الأمر. وفي الحال انتهى علاج توسك.

وفي هذه المرحلة من حياته، لم يكن بمقدور فرويد هدر الوقت على أناس يعكّرون مياهه. وتوسك كان يريد منه الكثير وكانت مشاعره مفرطة في حساسيتها. ولأن توسك كان مُعتمداً على فرويد بصورة عصابية، فقد وجد هذا الأخير أن من الأسهل التخلّص منه بدلاً من تعريض نفسه لخطر الابتلاع. وبالطبع، فقد كان بمستطاعه الاستغناء عن نصير قديم مثل توسك، ذلك أن الكثير من التلاميذ الجدد كانوا يفدون عليه أفواجاً من كل مكان في العالم.

وحاول توسك ترتيب حياته الخاصة. ولكنه كان يفشل في إقامة علاقة راسخة مع امرأة. ومع نبذ فرويد له وإخفاق محاولته في أن يتمّ تحليله، حاول توسك إدخال امرأة جديدة في حياته ـ وهذه المرأة هي هيلدا لوي، عازفة بيانو تصغره بستة عشر عاماً. وكان قد التقاها كمريضة

جاءت إليه طلباً للعلاج. ومن المعروف أن زواج المحلل من مريضته كان يعني اقتراف جريمة كبرى بحق مهنته.لكن بهجة توسك المتأتية من وقوعه في الحب لعلها أخفت ماني داخله من حزن وأسى،فقد كان معروفاً عنه مايحصل لديه من تفعيل لصراعاته العاطفية عند انهاء مريضة من مريضاته لعلاجها فجأةً. كما يمكن للمرء أن يرى في اختيار توسك لمريضة سابقة وميض سخطه المتنامي على فرويد.

لقد كان نبذ فرويد لتوسك أمراً شخصياً جداً بحيث يصعب فهمه أو تبريره على أسس علمية. وتوسك لم يكن مستعداً لأن يصبح واحداً من رُسل فرويد؛ ولا بد أن الجانب الإبداعي لديه كان سيُحبَط لو لم يتمرد على فرويد. وكان عليه من ثم أن يكتشف ما إذا كان قادراً على أن يكون مبدعاً بصرف النظر عن وجود فرويد. ومن المؤكد أن هجر فرويد كان هو الأسلم لتوسك. ولكن لماذا كان عاجزاً عن العودة إلى برلين أو يوغوسلافيا؟ لقد كان الطب النفسي مهنة توسك الثالثة، وبعد أن هاجم هذا الطب دفاعاً عن فرويد، وجد نفسه يخسر فرويد أيضاً.

كان السبب الموهب لانتحار توسك هو عجزه عن إتمام زواجه من هيلدا لوي. ففي الصباح التالي لانتحاره كان عليه أن يحصل على رخصة الزواج. وعلى الرغم من أنه كان قد وقع في حبها فراراً من مآزقه إلى حد ما، فلا بد أنه تحقق من أن هذه المآزق ليست آيلة إلى الزوال. وكما هو الحال من قبل، فقد وقع توسك في الحب بحماس، ومن ثم خبا كل شيء. وهاهو يواجه التزام الزواج، وكان بحاجة للنجاح في الحب مع هيلدا لوي أكثر من أي مرة أخرى، على الرغم من علمه أن ذلك كله كان قد جرى معه من قبل. بيد أنه كان هذه المرة متروكاً بدون فرويد أيضاً.

وفي ساعات الصباح الأولى من اليوم الثالث من شهر تموز عام 1919، قرر توسك قتل نفسه. وكتب وصيته التي عدد فيها ممتلكاته بإسهاب. وهذا الجرد الطويل كان كل مالديه لتوطيد خلوده.كما كتب

رسالتين وختمهما وتركهما على مكتبه ـ واحدة لهيلدا، والأخرى لفرويد. ولأن توسك قرر الانتحار، فقد تصالح مع ذاته؛ على الرغم من كل مشاعره العدوانية الموجهة إلى الداخل، فارق توسك هذا العالم وهو لا يكنّ إلا الحب للآخرين. وأثناء كتابته كان يحتسي السيلفوفيتز، الشراب القومي اليوغسلافي. ومن ثم ربط حبل الستارة حول عنقه، ووضع مسدسه الحربي على صدغه الأيمن، وضغط على الزناد. وفضلاً عن انفجار جزء من رأسه، فقد شنق نفسه وهو يسقط.

وكتب فرويد النعي الرسمي لتوسك، مقرّظاً ما قدّمه من مساهمات في التحليل النفسي، ولكنه في رسالة إلى لو اندرياس ـ سالومي، كان أكثر صراحة بكثير حيال ارتياحه لرحيل توسك: «أعترف بأنني لم أفتقده حقاً؛ ومنذ فترة طويلة وأنا اعتبر أن لا نفع منه، بل وأنه بمثابة تهديد للمستقبل»[23](*) . إن إحدى مزايا فرويد هي صدقه في مشاعره، وشجاعته في الكتابة عن بعض أسوأ الخصال لديه ـ وهذا ماعرّضه للنقد في كثير من الأحيان. وبخلاف نعيه الرسمي لتوسك ومافيه من مديح علني، فإن فرويد لم يكن يشعر في داخله سوى بالإشفاق على توسك.

أما لو اندرياس ـ سالومي فقد فاجأتها ردة فعل فرويد تجاه موت توسك، ومع ذلك كان ردّها على رسالة فرويد قطعة من الدبلوماسية الحاذقة. فقد وافقت عموماً على تفسير فرويد لطبع توسك، لكنها تدبرت أمر نقل مركز ثقل الحدث الأخير [الانتحار] إلى قدرة توسك على الحب. فتوسك كان يثق بطبعه أقل مما يثق بذكائه. ولاحظت لو في تعليق هامشي من رسالتها قائلة: «حتى مثل هذا الطبع القوي يتقزّم ويتحول إلى عجز عند مواجهة عمالقة الغلو والإفراط الداخلية»[24] ووافقت لو على أن توسك كان بمثابة تهديد لمستقبل التحليل النفسي. كما قبلت تملّق فرويد

(*) هذا المقطع من الرسالة محذوف في الطبعة الأصلية، لكنه يظهر في الطبعة الانجليزية.

الذي مفاده أنه قد احتمل توسك كل هذا الوقت بسبب صداقتهما معه. وهكذا تخلّت لو اندرياس ـ سالومي عن توسك بسهولة بالغة، و لم تدافع عنه إلا بأقل القليل، بحيث يغدو من الصعب ألا نستنتج أنها قد استخدمت توسك فعلاً كل هذا الوقت لمصلحة علاقتها مع فرويد.

ولو أندرياس ـ سالومي، التي أصبحت محللة نفسانية مُمارسة، لم تكتب أبداً لفرويد أية كلمة أخرى عن توسك. ولكنها عندما عادت إلى فيينا عام 1921، وعاودت حضور اجتماعات جمعية فيينا، سجّلت في مفكرتها أنها تذكّرت غياب توسك: «فرويد لم يتبدّل؛ وثمة 50 تلميذاً، لكن أحدهم لم يكن موجوداً (فيكتور توسك). بحثت عنه في كل مكان، وبدا لي كما لو أن كل الوجوه القديمة المألوفة لم تكن موجودة»[25].

ولقد ظلّ موت توسك حقيقة مشينة ينبغي إخفاؤها في خزانة العائلة التحليلية النفسية. فبالنسبة لهيلين دويتش، لم يكن الانتحار مسؤوليتها بل مسؤولية فرويد. وكانت ترى أن من الممكن إهمال دورها الخاص، حيث كانت مجرد وسيط بين توسك وفرويد. ويبدو على السطح أنه لم تتكون بين المريض والمحللة سوى رابطة انفعالية واهية. إلا أن توسك كان قد خطب ودّ هيلين وبطريقة حاذقة من خلال قصة صراعه مع المعلم؛ وكانت هذه هي القوة الأشدّ إغراءاً لدى توسك. وهكذا كان بمقدور هيلين دويتش أن تطلق العنان لاهتمامها بهذا التلميذ المتمرد دون أن تعترف لنفسها بأن لديها هي أيضاً مشاعر نقدية تجاه فرويد. كما كان بمقدورها عزل كل نزواتها السلبية تجاه فرويد وتجسيدها في شخص توسك. ولعلها أن تكون قد شجعت ضمناً اهتمام توسك بتحليلها الخاص وإفصاحه عن المنافسة. و لم تدرك هيلين دويتش أبداً أن توسك كان يتملقها بحكايته، أو أنها ربما أن تكون قد انتفعت بها في عيني فرويد.

أما بول فيدرن، وفي رسالة[26] إلى زوجته بعد موت توسك مباشرةً، فقد ربط دافع الانتحار لدى توسك بإخفاقه في كسب اهتمام

فرويد الانساني. وأكد فيديرن صراحةً أن هذا الدافع كان نبذ فرويد لتوسك. والحقيقة أنه لم يكن هناك حاجة أبداً لإبقاء نزاع توسك مع فرويد سراً، اللهم إلا لإظهار فرويد قوياً ومنيعاً. وفيديرن، وغيره في تلك الجماعة الثقافية الصغيرة جداً، كان يعرف مسبقاً أن إسقاط فرويد لأحد ما يمكن أن يؤدي إلى دمار هذا الأخير دماراً ذاتياً. ذلك أن الطرد من جماعة ثورية كان بمثابة إفناء يفوق في شدته أي موت جسدي.

أما لو أندرياس ــ سالومي فكانت تعرف أن عُصاب توسك كان ممتداً بحيث يطال كامل شخصيته؛ وأن الصراع مع فرويد قد استهلكه كله تماماً. ولكنها كانت تعرف أيضاً أن القوة يمكن أن تضفي طابعاً طفلياً على أولئك الذين يستخدمونها مثل أولئك الذين يخضعون لها. ومع أنها ظلّت مخلصة لفرويد حتى وفاتها عام 1937 - حيث ساعدت إبنته آنا في التحليل النفسي، وغالباً ماكان فرويد يرسل لها النقود في أوقات المحنة - فقد أمكن للو أندرياس ــ سالومي، وبخلاف الكثيرين من أتباع فرويد، أن تعترف أن مآثر فرويد كانت مرتبطة إلى حد بعيد بما لديه من محدوديات. ولقد كتبت مرةً تقول : «حين نكون أمام كائنٍ بشري يُشْعِرنا بأنه عظيم، أليس علينا أن نعتبر ذلك بمثابة دافع محرِّض بدلاً من الإرتجاف لمعرفتنا أنه ربما لم يحقق عظمته إلا عبر نقاط الضعف التي لديه؟»[27].

المراجع:

(1) أنظر، على سبيل المثال، هنري بروسين، «مساهمات التحليل النفسي في دراسة النهان»، في تأثير الطب النفسي الفرويدي، تحرير فرانز الكسندر وهيلين روس (شيكاغو: مطبوعات جامعة شيكاغو، 1916)، صص178–199؛ وكذلك جورجي زيلبورغ، تاريخ علم النفس الطبي (نيويورك: نورتن، 1941)، ص502. وانظر فيكتور توسك، Ceuvres pasychoanalytiques (باريس: بسايو، 1975)؛ و«قضية فيكتور توسك»، American Imago (شتاء 1973).

(2) «فيكتور توسك»، الطبعة المعيارية، المجلد 17، ص275. ومن أجل مناقشة أكثر إسهاباً عن توسك ننصح القارئ بالرجوع إلى روازين، الأخ الحيوان. قصة فرويد وفيكتور توسك (نيويورك: نوبف، 1969)، وكذلك إلى «تأملات في الأخلاق والأصالة في التحليل النفسي»، في The Human Context، المجلد 4، العدد 3 (خريف 1972).

(3) انظر، مثلاً، فيكتور توسك، Paraphrase als Kommentar und Kritikzu Gerhart Hauptmanns «Und Pippa Tanzt» (برلين: زيغفريد كروناخ، 1906).

(4) فيكتور توسك، «في أصل الـ«آلة المؤثرة» في تلفصتك»، في مختارات من التحليل النفسي، تحرير روبرت فليس (نيويورك: مطبعة الجامعات الدولية، 1948)، صص31–64. انظر أيضاً بول روازين، «مساهمات فيكتور توسك في التحليل النفسي»، في Psychoanalytic Quarterly، المجلد 38، العدد 3 (1969)، صص349–353.

(5) برونو بتلهايم، القلعة الفارغة (نيويورك: المطبعة الحرة، 1967)، صص233–339؛ وإديث جاكوبسون، الذات والعالم الموضوعي (نيويورك: مطبعة الجامعات الدولية، 1964)، صxi؛ وإيريك إريكسون، الهوية: الشباب والأزمة (نيويورك: نورتن، 1968)، ص9؛ وبرترام ليوين في نعيه لفيديرن، Thepsychoanalytic Quarterly، المجلد 19 (1950)، ص296.

(6) هـ.ف.بيترز، أختي زوجتي: سيرة لو أندرياس ـ سالومي (نيويورك: نورتن، 1962)، ورودولف بينون، السيدة لو: مريدة نيتشه المشاكسة (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، 1968).

(7) أورده جونز في سيغموند فرويد، المجلد 3، ص213.

(8) أندرياس - سالومي، يوميات فرويد، ص57.

(9) المصدر السابق، ص51.

(10) المصدر السابق، ص169. انظر كارل. غ. يونغ، «تعليق على نقد توسك لنيلكين»في **Spring: An Annual** (1973)، صص183-187.

(11) أندرياس - سالومي، يوميات فرويد، صص51056.

(12) المصدر السابق، ص51؛ و«فيكتور توسك»، ص274.

(13) أندرياس - سالومي، يوميات فرويد، صص97-98.

(14) المصدر السابق، صص97-114؛ انظر أيضاً رسائل فرويد وأندرياس - سالومي، ص215.

(15) أندرياس - سالومي، يوميات فرويد، ص114.

(16) إلينبيرغر، اكتشاف اللاوعي، ص170.

(17) أندرياس - سالومي، يوميات فرويد، صص166-167.

(18) المصدر السابق، صص167-168.

(19) «في سيكولوجيا الفارّين من الحرب»، **Psychoanalytic Quarterly**،المجلد 38، العدد 3 (1969)، صص354-381.

(20) هيلين دويتش، مواجهات مع نفسي، ص135.

(21) «الغريب»، الطبعة المعيارية، المجلد 17، صص220، 234،238.

(22) «الطوطم والتابو»، الطبعة المعيارية، المجلد 13، ص86.

(23) قارن سيغموند فرويد ولو أندرياس - سالومي، **Briefwechsel** (فرانكفورت: فيشر، 1966)، ص108، مع رسائل فرويد وأندرياس - سالومي، صص98-99. انظر أيضاً بينيون، السيدة لو، صص402-403.

(24) بينيون، السيدة لو، ص403.

(25) رسائل فرويد وأندرياس - سالومي، ص229.

(26) روازين، الحيوان الأخ، صص153-154.

(27) أندرياس - سالومي، يوميات فرويد، ص163.

- 9 -

ميلاني كلاين

«المدرسة الانكليزية»

لم يكن لميلاني كلاين (1882-1960)، وهي التي تلقت تدريبها في بودابست وبرلين قبل انتقالها إلى انجلترا، سوى علاقة شخصية واهية مع فرويد، إلا أن أفكارها مثّلت نوعاً من التحدي لعمل ابنته آنا في مجال التحليل النفسي للطفل ولعبت دوراً بارزاً في حلقات التحليل النفسي، وخاصة في انجلترا و أميركا الشمالية. كما كانت ميلاني كلاين واحدة من أولئك الأشخاص المبدعين الذين يمكن لحركة فتيّة وغير مُعترف بها أن تبرزهم وتظهرهم. ولقد تركت بصماتها الخاصة على الفكر التحليلي النفسي في زمنها، دون أن يكون لديها أيّة مؤهّلات أكاديمية أو تدريب علمي.

وإسهام ميلاني كلاين الأساسي، شأنها شأن الكثير من السيكولوجيين بعد - الفرويديين، كان التأكيد على أهمية الطبقات قبل - الأوديبية في تطور الشخصية. وكانت روث برونشفيك قد حاولت، بتوجيهٍ شخصي من فرويد، صياغة الدور الباكر للأم، وهو الشيء الذي فعله كارل يونغ وأوتورانك في ردّهما على فرويد. كما عَمِلَ هاري ستاك سوليفان، ومنذ عهد قريب دونالد وينيكوت وإيريك إريكسون، على إيضاح الروابط الأقدم لدى الطفل مع أمه.

وفرويد، كرجل من القرن التاسع عشر، لم يكن وحيداً في تجاهله لدور الأم التربوي في تطور الطفل. فجون ستيوارت مِلْ لم يُضَمِّن السيرة

الذاتية التي كتبها أية إشارة لأمه، وكذلك فإنّ علاقة الإبن بأبيه قد استحوذت على كتاب صموئيل بتلر The Way of All Flesh. وفيما عدا استثناءات قليلة، فإن الأمهات، في القرن التاسع عشر، لم يؤخذن بالحسبان بوصفهن موضوعات ملائمة للروائيين. ولم تعتبر الأمومة ذات صلة بالموضوع من الناحية التحليلية النفسية حتى العشرينات، ونظراً للإلحاح الحديث على هذا الإتجاه الأخير أصبح من السهل نسيان أنه لم يكن على الدوام أمراً جوهرياً بالنسبة للمحللين النفسانيين.

ولقد أدّى ماقام به المحللون النفسانيون من بحث مكثف في مسألة الأمومة إلى تقدير أهمية الاتصال قبل ـ اللغوي Pre-verbal. فالمراحل الباكرة من تماس الطفل من أمه، أو مع بديل أمه، لا تشتمل على كلمات، كما أن وسائل الاتصال غير اللغوية تلعب دوراً هاماً في حياة البالغ، وإن لم يكن واضحاً على الدوام. أما فرويد نفسه فقد ألحّ على قدرة الكلمات على تحريرنا مما لا نفهمه، في حين كان المعالجين منذ أيامه وصاعداً أكثر حساسية تجاه حدود العقلانية rationalism التي تضمنتها مقاربته.

إن تشجيع وتدعيم المواهب والقدرات الموجودة أصلاً لدى المريض قد تكون إحدى المهام العلاجية الهامة. وثمّة مريضة قام بتحليلها كل من فرويد وميلاني كلاين تلقي تجربتها الضوء على الاختلاف بين مقاربتيهما. ولقد قالت هذه المريضة إن تحليل فرويد قد غيّر شكل حياتها، وإن تفسيراته كانت مفهومة وواضحة حتى بعد مرور سنوات؛ وكان تشجيعها من قِبَل فرويد على الإفضاء بما لديها هو الذي أثّر فيها. وبخلاف ذكاء فرويد الحاد، فإن ذكاء ميلاني كلاين لم يكن ملهماً؛ ولم يكن في تفسيراتها المحددة أي شيء متميز، ومع ذلك فقد كانت ميلاني كلاين مفيدةً على الدوام. وقد أفلح تحليلها في منح المريضة مزيداً من الإحساس بكينونتها إحساساً كانت تعرف على الدوام أنه موجود لكنها كانت مفتقرةً إلى القدرة على تحقيق ذلك وحدها.

قدمت ميلاني كلاين الكثير في كشف ما أضفاه فرويد على النساء من مَثْلَنَة **idealization** ، حيث تجاهل أدوارهن الواقعية كأمهات. لقد أبدى فرويد، الذي كان يشعر بمزيد من الأمان مع النساء، ماتميّز به القرن التاسع عشر من تودد وكياسة تجاههن.لكن هذا الموقف كان يمثّل أيضاً حطّاً ضمنياً من قدرهن، وذلك بما فيه من تجاهل للمدى الذي يمكن أن تبلغه مساواة الرجال والنساء. كما أن توصيف رابطة الأم - الابن بعبارات مثالية كما فعل فرويد هو في الوقت ذاته إنكار لحقّ المرأة في نيل إرضاء جنسي كامل مع زوجها.

وفي أيامها، كانت معظم وجهات نظر ميلاني كلاين قد قوبلت بالمعارضة، ونشبت معارك حامية الوطيس ضمن التحليل النفسي البريطاني حول مفاهيمها. ولكن بصرف النظر عن الطموح الذي ربما شعرت به كناقدة للطرائق التحليلية النفسية الأرثوذكسية في التفكير إلا أنها كانت تلائم أفكارها على الدوام بحيث تقع ضمن الإطار الفرويدي. وبدلاً من القول إن الكائنات البشرية تحيق بها إشكاليات تتعدّى الإشكاليات التناسلية أو حتى الأوديبية - وهذا مثال على الحسّ السليم كان المتمردون على فرويد قد اعتبروه اكتشافاً عظيماً - ركّزت ميلاني كلاين (مثل روث برونشفيك) على مراحل أبكر وأكثر بدئية تتعلق بيشائر عقدة أوديب.

ولقد بدا أن ميلاني كلاين عازمة على أن تكون أكثر ملكية من الملك، وقالت إن عقدة أوديب تبدأ بالتكوّن لدى الطفل الصغير في عمر الستة أشهر، نتيجة إسقاط(*) **projection** استيهامات الغضب والعدوان

(*) الإسقاط، في التحليل النفسي، هو العملية التي ينبذ فيها الشخص من ذاته بعض الصفات، والمشاعر، والرغبات وحتى بعض «الموضوعات» التي يتنكر لها أو يرفضها في نفسه، كي يموضعها في الآخر، سواء أكان هذا الآخر شخصاً أم شيئاً. وهذه بالطبع إحدى آليات الدفاع.

الطفلية. وفي حين تمّ الاعتراف عموماً بقيمة إلحاحها على الاستيهامات قبل ـ اللغوية لدى الأطفال، فإن تحديدها لتاريخ السيرورات الحاصلة في الطفولة الأولى قد قوبل بالنقد كونه غير قابل للإثبات. و لم تكتفِ ميلاني كلاين بالاعتقاد أن تقسيم فرويد الثلاثي للجهاز النفسي إلى أنا، وهو، وأنا أعلى يبقى محتفظاً بقيمته بل كانت تعتقد أيضاً أن كلاً من هيئات العقل mind هذه تكون متميزة منذ بداية الحياة تقريباً. كما أخذت مفهوم فرويد الخاص بغريزة الموت على نحوٍ حَرْفيّ، وزعمت أنها تتبعت تطور هذه الغريزة منذ الطفولة فصاعداً. وبدا للبعض أن افتراضها وجود انفعالات فطرية لدى الطفل، كالحسد مثلاً، هو بمثابة نسخة مُحدثة من الخطيئة الأصلية.

وعلى الرغم مما قيل عن أن ميلاني كلاين لم تكن ترضع أطفالها من ثديها، إلا أنها في تشديدها على ما تمّ تجاهله من أهمية وظائف المرأة كأم أسبغت على الثدي دلالة تكاد تكون ميتافيزيقية. وبينما كان أرنست جونز متزمتاً جداً في قوله إن «من المحتمل أن يكون لعضو الذكورة وحده رموزاً أكثر عدداً من كل الرموز الأخرى مجتمعة »[1]، فإن ميلاني كلاين أشارت إلى أهمية حسد الثدي لدى الرجال، إضافةً إلى خوف الخصاء. وعلى الرغم من أن فرويد ماكان ليقّر بأهمية حسد الأم أو الشعور العدواني تجاهها في سيكولوجيا الطفل، إلا أن ميلاني كلاين جذبت الاهتمام باكراً إلى الدور الذي تلعبه النزوات التدميرية الطفلية والدفاعات المتنوعة ضدها.

وعلى النقيض من وجهة نظر آنا فرويد في التحليل النفسي للطفل، كانت ميلاني كلاين مقتنعة أن لا ضرورة لأي اختلاف أو تبديل في التقنية بقصد توطيد الوضعية التحليلية مع الطفل الصغير. ويعود الخلاف بين آنا فرويد وميلاني كلاين إلى عام 1927، حين قدّمت كل منهما مقالاً في مؤتمر إنسبروك حول طريقتيهما المتباينتين في معالجة الأطفال. وكانت

ميلاني كلاين هي التي برّت آنا في الكلام واعتقدت أنها الأقوم، حيث طبّقت التقنية ذاتها وبصورة متزمتة على كل من الأطفال والبالغين. وبالنسبة لها، فإن مادة اللعب كانت معادلاً دقيقاً للتداعي الطليق في تحليل البالغ، حيث يمكن لمحلل الطفل أن يقدّم بجرأة وثقة تفسيرات عميقة للحياة النفسية. ولقد عبرت ميلاني كلاين مرةً عن أملها في أنّ «تحليل الطفل سوف يصبح وإلى حدّ بعيد جزءاً من تنشئة كل شخص شأنه شأن التعليم المدرسي الآن»[2]، وبذلك كانت تمضي بمنظومة فرويد الفكرية إلى العصر الألفي السعيد. وفي عام 1930 ذهبت بعيداً جداً لتجادل في أنّ «إحدى المهام الرئيسة لمحلل الطفل هي أن يكتشف الذهان لدى الأطفال ويعالجه»[3]. وكانت ميلاني كلاين قد دافعت لفترة عن التحليل الشامل للأطفال، بخلاف وجهة النظر الفيينية المألوفة التي مفادها أن ليس ثمة حاجة للتحليل لدى كل طفل. في حين أن عدداً وافراً من المحللين كانوا يرسلون أطفالهم للعلاج.

ولعل مقاربة ميلاني كلاين هذه هي الأكثر فائدة من الناحية العلاجية قياساً بالمقاربة الفرويدية الكلاسيكية، وذلك نظراً لاعتقاد كلاين أن كل شيء في الشخصية يجب أن يخضع للتحليل. وكانت ترى أن إعادة الطمأنينة reassurance يمكن أن تكون صعبة وقاسية، واقترحت أن يقوم المحلل بكشف ضروب القلق لدى المريض والسعي وراءها بالتفسيرات. كما ألحت على مدى معاناة الطفولة، في حين كان فرويد ينزع إلى النظر إلى الوجود برواقية(*) stoicism أشد. وكان ينظر إلى

(*) الرواقية: اتجاه في الفلسفة اليونانية، في القرنين الثالث والرابع ق.م، والرومانية، القرنين الأول والثاني ق.م. وقد سعت الرواقية لبناء صرح فلسفي يضم المنطق والطبيعيات والأخلاق. وتتميز بالمراعاة التامة لقواعد صارمة وبترويج التأمل الهادئ لظواهر الحياة، وبالدعوة إلى الطمأنينة وعدم التذمر. وتؤكد الأخلاق الرواقية ضرورة

التحليل نظرةً طبية، فكان مستعداً لترك دفاعات معينة دون تفسير، مادام المريض قادراً على التوصل إلى تسوية محتملة مع نفسه. أما كلاين فكانت تحاول مساعدة المريض على مواجهة ضروب قلقه كلها، دون أن تترك شيئاً، بما في ذلك أشد أنواع الإشكاليات بدائية.

ويتحدث أتباع ميلاني كلاين في إنجلترا عن تحليلات دامت عشرة سنوات دون أن يتساءلوا أبداً عما يبرر من الناحية العلاجية مثل هذا التدخل الكثيف في حياة كائن بشري[4]. ولكن حالما تصبح الحقيقة هي مبرر ذاتها، ويصبح البحث هدفاً للتقنية التحليلية، فإن أسس ذلك النوع من الأخلاقية moralism التي حَدَت بكثير من المحللين الأوائل إلى إزدراء أشكال «أقل شأناً» من العلاج النفسي تكون قد وُجدت.

إن تشديد ميلاني كلاين على دور الاستيهامات الداخلية inner fantasies لم يكن إلا امتداداً لموقف فرويد، بيد أن الاستيهامات اللاواعية، («الموضوعات الباطنية») أصبحت، بالنسبة لها، النقطة الحاسمة في الحياة البشرية، سواء أكانت سويّة أم مرضية[5(*)] . وعندها لا يعود النكوص في سياق العلاج إشارة خطر وإنما علامة على تعّمق التحليل[6]. وفي حين كان التحليل النفسي الأميركي ينحو إلى الإلحاح على الأنا وأوجه الصحة العقلية في أعمال فرويد، كانت ميلاني كلاين في انجلترا تبدي تلك الحساسية البريطانية المميزة تجاه الدور الذي تلعبه النزوات

ثبات المرء وصلابته في الدفاع عن الحقيقة، وانتصاره على الآلام وإزدرائه للملذّات. وتدعو إلى الاهتداء بالعقل، لا بالأهواء، فهو جزء من العقل الإلهي الكوني، وإلى الإذعان للقدر. وثمة بعض نقاط التقارب مع المسيحية.

(*) لعل من الممكن القول إن يونغ، في توصيفه للأنماط البدئية Archetypes واللاوعي الجمعي، قد سبق وجهة نظر أولئك المحللين النفسانيين الذين كتبوا عن عالم داخلي من «الموضوعات الباطنية[5]» ـ بول روزن ـ.

البدائية في الحياة. وفي حين تلتقي النظرة إلى السواء normality في الحلقات التحليلية النفسية الأمريكية الآن على مفهوم هينز هارتمان الخاص بقدرة الأنا «المستقل ذاتياً» على مقاومة النكوصات، يلحّ أتباع كلاين في إنجلترا على درجة ارتباط سيرورة التطور السويّ بالطبقات الذهانية. ومع أن عمل ميلاني كلاين لم يكن، نسبياً، موضع خلاف مادام مقتصراً على الأطفال، إلا أنها أصبحت في الثلاثينات أكثر اهتماماً بسيكولوجيا البالغ بل وبالذهانات. وربما كان البعض يعتقد أنها،كمحللة لم تنل شهادة طبية، غير مؤهلة للخوض في مشاكل الذهانيين، لكنها رأت، على الرغم من أنها لم تعالج ذهانيين، أن مفاهيمها تنطوي على تضمينات تتعلق بكيفية فهم سلوكهم.

ولقد أبدى فرويد نفوراً شديداً من الاتجاه الذي اتخذته ميلاني كلاين. ومن جديد، وكما كانت الحال مع مفهوم رانك عن رضّة الولادة Trauma of birth فإن وجهات نظرها بدت بمثابة كاريكاتور لأفكاره، إلا أن العداء كان منصبّاًهذه المرة على آنا وليس عليه هو نفسه. وعلى الرغم من إشارة فرويد في إحدى المناسبات إلى «تحليل الطفل بوصفه طريقة ممتازة للوقاية»، فإن شكوكه تزايدت حول قدرة التحليل الوقائية[7]. وعلى أية حال، فقد كان فرويد معتدلاً في أحاديثه عن ميلاني كلاين أمام الآخرين. واقترح طباعة مساهماتها ومساهمات آنا معاً، ورأى أنه قد انتفع من عملها حين أرصن مفهومه الخاص عن العدوان، وكان مُعجباً، على نحو خاص، بفكرة أن الأنا الأعلى لدى الطفل قد يعكس مالديه من استيهامات عدوانية مُسْقَطَة projected فضلاً عن سلوك الأهل الفعلي.[8] (لقد قيل إن فرويد «عندما ناقش في أواخر حياته تلك الأسباب التي دفعه طوال سنوات إلى عدم رؤية أهمية النزوات العدوانية،كان ميّالاً إلى تحميل نزوعاته اللاواعية الخاصة مسؤولية هذا التأخير»[9]).إلا أن موقف فرويد الأساسي من ميلاني كلاين كان يتمثّل في أن أفكارها «غير مفهومة»، شأن الانحرافات الأخرى في التحليل النفسي[10]. ولاحظ فرويد أن هذه هي

المرة الأولى التي كان فيها التحليل النفسي قادراً على تحمّل مثل هذا الانحراف ضمن الحركة[11].

كانت ميلاني كلاين، مثل آنا فرويد، مدرّسة في رياض الأطفال؛ وبعد زواجها التعيس وطلاقها اللاحق من زوجها، قام فرنسزي أولاً بتحليلها، في بودابست ومن ثم ابراهام في برلين. وعلى الرغم مما قيل عن أن أبراهام كان مفتوناً بأفكارها، فقد شعرت ميلاني كلاين بأنها معزولة كمحللة للأطفال في برلين فضلاً عن أنها لم تكن قادرة، كما يبدو، على الوصول إلى فرويد في فيينا. وكان أليكس ستراتشي، الذي كان خاضعاً للتحليل عند أبراهام في برلين آنذاك، يكتب عن ميلاني كلاين لزوجها جيمس، الذي كان ينقل ذلك بدوره إلى جونز.

وبعد موت أبراهام، قبلت ميلاني كلاين دعوة جونز لأن تحاضر في لندن، وفي عام 1926 قررت أن تستقر هناك. وكان جونز مدفوعاً باعتبارين، أولهما عام والآخر خاص. فقد أراد أن يحسّن النوعية الفكرية لجماعة التحليل النفسي اللندنية، وكان يرى أن «السيدة كلاين»، كما أصبح اسمها، يمكن أن تعمل على رفع هيبة جميعة لندن؛ ذلك أنها نجحت في إنشاء مدرسة في تحليل الطفل تنافس مدرسة آنا فرويد في فيينا. كما كانت السيدة كلاين في الوقت ذاته، معروفة بحدسها وبديهتها ـ ولاحظ واحد من زملائها مُعجبا "أنها كانت قادرة على خلق وسط ملائم ـ وكان جونز يريد استقدام محللة أطفال لتساعد أطفاله(*).

كان فرويد يعتقد أن آنا قد تعرّضت لهجوم من قبل مؤيدي السيدة كلاين، وكان ذلك صحيحاً إلى حد ما. وممن كانوا يدافعون عن موقف كلاين كان ثمة أكاديميون بارزون فضلاً عن مجموعة محترمة من المحللين

(*) في معهد التحليل النفسي البريطاني ثمة صندوق يحتوي الألعاب التي استُخدمت في أول تحليل للطفل في انجلترا. ـ بول روزن ـ.

النفسانيين. وقد روى جونز أن فرويد «أبدى تذمراً شديداً إزاء الحملة المعلنة التي افترض أنني أدرتها في انجلترا ضد ابنته آنا، وبالتالي ربما ضده هو أيضاً»[12]. وبدا لجونز أن آنا هي التي بادرت إلى مهاجمة ميلاني كلاين[13]. ونظراً لعلاقة جونز بالسيدة كلاين، فقد انقلبت ضده عائلة فرويد برمتها لفترة من الوقت. أما أفضل ماأمكن لفرويد أن يقوله لجونز عن السيدة كلاين فهو إن تحليل الطفل كان حقلاً غريباً بالنسبة له:

أنا لاأعتبر خلافاتنا النظرية أمراً واهياً، ولكنها مادامت غير نابعة من شعور سيء فإنها لا يمكن أن تفضي إلى أية نتائج مزعجة...ميلاني كلاين وابنتها اخطأتا..في حق آنا. وصحيحٌ انني أرى [كذا] أن جمعيتك قد تبعت السيدة كلاين في سبيل خاطيء، إلا أن المجال الذي استمدت منه ملاحظاتها غريب عليّ بحيث لا أملك أي حقّ في توجيه أية إدانة ثابتة ونهائية[14].

في الثلاثينات كانت جمعيتا فيينا ولندن تتبادلان المحاضرات، ولذا فإن وجهة النظر الكلاينية كانت معروفة لدى الفيينيين كما كان النقد الفييني معروفاً لدى الانجليز.ولم يَطُل الأمر إلى نشوب الحرب العالمية الثانية وهجرة المحللين الفيينيين إلى انجلترا، حتى أمكن عزل الجمعية البريطانية بما يكفي لأن تنشق صراحة. وعندما احتل النازيون النمسا وكان على جونز وفرويد أن يقررا من سيرافقهما إلى انجلترا من المحللين، كان واضحاً أن قوة الرأي الكلايني سوف تحول دون دعوة روبرت وايلدر، على سبيل المثال، إلى لندن، ذلك أن وايلدر كان محاضراً بالمبادلة(*) اتخذ من ميلاني كلاين موضوعاً له[15].

كانت الثلاثينات فترة مثيرة وخصبة بالنسبة للمحللين النفسانيين البريطانيين، لكن قدوم فرويد وحاشيته وضع حدّاً لهذه الفترة عملياً. ولعل

(*) Exchange Lecturer: محاضر يلقي محاضراته في غير جامعته على سبيل المبادلة.

ظهور آنا فرويد في المشهد الانجليزي هو الـذي اضطر ميلاني كلاين إلى تنسيق أفكارها وتنظيمها. وكان المحللون التقليديون قد نظروا إلى إلحاح ميلاني كلاين على ما قبل - التناسلي pre-genital بوصفه هروباً من عقدة أوديب، شأنه شأن هروب المنشقين الأوائل في التحليل النفسي. وإذا ماكان من الصعب القول إن آنا فرويد كانت تشكل حقاً نوعاً من التهديد لميلاني كلاين أم لا؛ فإن السيدة كلاين، وبالقدر الذي رأت فيه إلى عملها الخاص بوصفه تغييراً جوهرياً في التحليل النفسي، كان يمكن لها أن تتوقع لوم وتأنيب القادمين الأرثوذكس، وكان اللاجئون الأوروبيون يشعرون بأنهم آتون إلى جماعة إقليمية من جماعاتهم، في حين كان الانجليز في الثلاثينات يعتبرون لندن مركز الإبداع التحليلي النفسي؛ فقد كانت جمعيتها هي الجمعية الأكبر بعد جمعيتي برلين وفيينا.

وبعد عام 1938 صارت ميلاني كلاين تنفر من النقاش الفكري العلني الصريح وبدأت ببناء منظومتها الخاصة مع أتباعها. وعندئذٍ شرع إدوارد غلوفر يتصرف تبعاً لأسوأ توقعات السيدة كلاين، حيث هاجم مفاهيمها علناً. وكان غلوفر مقاتلاً شديد البأس، والرجل الثاني بعد جونز طوال سنوات. وكان جونز يرسله إلى الاجتماعات العامة والاختصاصية التي لم يكن يتمكن من حضورها بنفسه. وعندما اعتزل جونز في الريف أثناء الحرب العالمية الثانية، كان غلوفر هو المسؤول عن الجمعية. وكانت أفكار ميلاني كلاين قد أثارت اهتمام غلوفر في البداية لكنه صار يعتبرها بعد ذلك ضرباً من الهرطقة؛ وشعر أن إحساس الجمعية البريطانية بالدونية قد ساعد على تقبّلها التأثير الكلايني، وخشي أن تعمل قوة التحويلات أو النقلات التي انبنت أثناء التحليل التدريبي على امتداد أخطاء ميلاني كلاين إلى المستقبل. وفي مقالة كتبها غلوفر بعد أن هدأت المعركة،يمكن للمرء أن يسمع رعد تلاوة قائمة المتهمين في حركة التحليل النفسي:

إن جماعة كلاين تقتفي آثار رانك في ردّه التطور العقلي، وكل ضروب الاضطراب العقلي، إلى وضعية صدمةٍ أو رضّةٍ تحدث، ليس عند الولادة في الحقيقة، وإنما بعد الولادة بفترة وجيزة؛ كما أنها تقتفي آثار يونغ في ردّه القدرة الديناميـة والتطورية إلى استيهامات بدئية وأولية[16]. (وكان غلوفر قد وضع كتاباً قتالياً ضد يونغ، لكنه كان في الوقت ذاته مستقلاً عن الأرثوذكسية بما يكفي لأن يكتب موضوعاً نقدياً عن هارتمان.)

وبصرف النظر عن ضعف السيدة كلاين كمنظِّرة، فقد كان لديها مواهب بارزة كمعالجة نبيهة وحاضرة البديهة؛ لكن نقّادها الأشد صرامة زعموا أنها ـ وهي المرأة الجميلة والمتّسمة بالفخامة ـ كانت تعتمد كثيراً على قيام المرضى بتمثّلتيها وأنها تجاهلت ما لدى الأطفال الذين عالجتهم من ديناميات عائلية. وأن يكون المرء مهتماً بالدرجة الأولى بجعل المرضى أحسن حالاً لا يعني أن يكون هذا المرء عالماً، والمواجهة العلنية مع الفرويديين التقليديين أظهرت ميلاني كلاين في أقصى ضعفها، ذلك أنه كان يتعيّن عليها أن تصوغ في مفاهيم ماكان في أفضل الأحوال مجرد مهارة سيكولوجية طبيعية. وعلى الرغم من أن ميلاني كلاين كانت أصيلة ومبدعة، إلا أنها لم تكن شارحة جيدة لأفكارها الخاصة، وبعد أن حققت نجاحاً في لندن صارت مستبّدة جداً، على النقيض من سيرتها المتواضعة الأولى، وصارت تؤمن بكل كلمة كتبتها.

وعلى أية حال، فإن إدوارد غلوفر كان آخر شخص يمكن التفكير في أنه سيشنّ هجوماً ضارياً على السيدة كلاين. فـإلى جانب اهتمامه الباكر بأعمالها، كان ذا طرائق لطيفة من الناحية الشخصية. كما كان غلوفر مفكراً صافي الذهن وكاتباً بارعاً، واعتبر نفسه بمثابة حفيد لفرويد من الناحية الفكرية؛ ومامن أحد كان يمكنه التنبؤ بأن غلوفر سيكون الأداة في محاولة لتحطيم الجمعية البريطانية.

وكانت ابنة ميلاني كلاين، ميليتا شميدبرغ، شخصية أساسية في هذا الصدد. فميليتا كانت قد وقفت في البداية في صف أمها ضد آنا فرويد وبطريقة اعتبرها فرويد مثيرة للاشمئزاز. وفي عام 1934 مات اخوها أثناء ممارسته رياضة تسلّق الجبال، الأمر الذي اعتبرته أمها، تبعاً لطريقتها في التفكير، تعبيراً عن رغبة بالانتحار. وكانت ميليتا شميدبرغ طبيبة ومحللة (حيث تلقت تدريبها في برلين أولاً ثم قامت إيلا شارب بتحليلها في انجلترا)، فضلاً عن أن زوجها كان محللاً أيضاً. ولقد جاء انقلابها على أمها بيما كانت تعَالَج لدى إدوارد غلوفر. وكانت ميليتا، شأن غيرها من الأطفال لأبوين منفصلين بالطلاق، قد ذهبت مع أمها ولكنها مع ذلك حملت معها غيظها واستياءها. ومن المفترض أن يكون غلوفر قد رأى كم كانت متأذية وعزم على أن يقدم لها مابوسعه. وكانت شخصياً قد رتبت للمكوث مع أمها، أما الأرضية العامة لفعل ذلك فقد تكوّنت بدعم من غلوفر. فطوال سنوات كان غلوفر يكظم غيظه كرجل ثان بعد جونز، وشعر الآن أنه مع آنا فرويد وزملائها في انجلترا سوف يتوفرّ لديه الدعم لكي يفضح هرطقة ميلاني كلاين على نحو حاسم، ذلك أن غلوفر كان مقتنعاً،ربما بعونٍ من ميليتا شميدبرغ، أن كلاين منحرفة مثل أدلر يونغ.

وراحت الأم وابنتها تكيلان النقد واحدتهما للأخرى علانيةً يعاون كل منهما حلفاؤها. وبالنسبة لهؤلاء المحللين الأوائل كانت الأفكار هامة حقاً، وكان المصير الشخصي مرتبطاً بالتزامات فكرية على نحو لا فكاك منه. ومما خلق عثرة أمام المصلحين وصُنّاع السلام أن قائد الحملة الأساسي، غلوفر، كان موالياً لكلاين في السابق. أما جونز فكان في صفّ السيدة كلاين، وكان يعتقد أن آنا فرويد هي بمثابة عدوة لدودة لها[17]. في حين رفض الفرويديون التقليديون تقبّل ما في أعمال السيدة كلاين من تركيز على ضروب القلق المتصلة بالدوافع قبل ـ التناسلية. وتحت وطأة هذه الهجمة كانت معاناة كلاين الشخصية رهيبة، وخاصة بالنظر إلى سلوك ابنتها. وإذ شعرت بأنها قد أسيء فهمها، فقد أمكن لميلاني كلاين

أن تُظهر حنقها وقسوتها. أما ابنتها فقد تزايد في السنوات اللاحقة ابتعادها عن التحليل النفسي الذي عارضت أمها من أجله على رؤوس الأشهاد. ولذا ليس مدهشاً أن السيدة كلاين قد صَدَّرَت في كتاباتها عن حاجة متزايدة لتبرئة الأم واتهام الطفل. ولكنها كانت تبدي إعجاباً هائلاً بتلاميذها، مثل جون رايكمان وهربرت روزنفيلد.

وقبل الحرب العالمية الثانية كان مؤيدو كلاين قد شكّلوا مجموعة متميزة، لكن انقسامات المحللين البريطانيين تبددت حين عملت الحرب على تشتيت كثير من أعضاء الجمعية. وعندئذ وقف غلوفر على رأس الجمعية «المُطَهَّرَة» مؤقتاً، وعلى الرغم من زعمه معارضة ميلاني كلاين منذ بداية الفترة بين 1928 و 1931، فإن الصراع العلني بشأن كلاين لم ينفجر إلا حين بدأ المحللون بالعودة إلى لندن عام 1943. وقد دام النزاع الشديد حوالي ثمانية أشهر، على الرغم من امتناع كثير من الأعضاء عن المشاركة فيه. ذلك أن بعضهم كان مستعداً للجمع بين أفكار من كل المصادر، وبعضهم كان يرفض نشر الغسيل الوسخ أمام الجمهور، وثمة آخرون كانوا يريدون السلام وحسب.

وبالنسبة لأولئك الذين عبّروا عن رأيهم بوضوح، كان الأمر جدالاً علمياً يتطلب حلاً، مع أننا إذا ما استعدنا الانفعالات المتعلقة بهذا الموضوع فسوف يبدو طابعها الديني أقوى من طابعها العلمي. وكان عدد الذين اتخذوا موقفاً مناصراً لكلاين أكبر من عدد الذين ناصروا فرويد، مما حدا بغلوفر لأن يخشى من انقلابهم على الجمعية. وبعد ذلك بسنوات اعترف غلوفر بتقديره الخاطيء لقوة السيدة كلاين، لكن هذا الاعتراف جاء في وقت كان قد قرر فيه الاستقالة من الجمعية البريطانية؛ حيث استقال معه واحد أو اثنين من المحللين. ومن ثم انتسب غلوفر إلى الجمعية اليابانية للتحليل النفسي (مبتعداً عن لندن قدر المستطاع)؛ يبدو أنه ظلّ يمارس في

لندن،كما أصبح لاحقاً عضواً في الجمعية السويسرية، نظراً لكون سويسرا هي الموطن التقليدي للاجئين روحياً.

وحمد السجال ضمن الجمعية البريطانية ببساطة. ذلك أن الكلاينيون قاوموا طردهم من الجمعية، في حين أصرت آنا فرويد على وضع الإجراءات التدريبية الخاصة بها كي لا يتلوّث تلاميذها بالايديولوجية الكلاينية. وكانت سيلفيا باين هي من تولى لم شمل الجمعية باقتراحها نوعاً من التسوية التنظيمية: حيث أمكن لآنا فرويد أن يكون لها مجموعتها التدريبية (المجموعة «ب») ضمن الجمعية التحليلية النفسية النظامية؛ بينما كان بقية المحللين ينتمون إلى فرع منفصل (المجموعة «آ»). وثمة في الجمعية إلى اليوم مجموعة صغيرة من الكلاينيين المتحمسين، ومجموعة أكبر نوعاً ما من أولئك الذين تبعوا آنا فرويد. بيد أن العدد الأكبر بكثير من المحللين، ويبلغ حوالي نصف الجمعية، لا ينتمون إلى أي من المجموعتين ولذا يعرفون باسم «بمجموعة الوسط» أو «المستقلين». وبصورة عامة، فإن المحللين البريطانيين هم الذين حافظوا على التوازن بين القاريين(*) المتحاربين، ومن ضمن هؤلاء «التسوويين» ظهر بعض من الفكر التحليلي النفسي الأشد أصالة: ومن بين أشهر ممثلي هذا الاتجاه جون بولبي، ميشيل بالينت، ودونالد وينيكوت.

ولقد أبدى الكلاينيون قدرة على إنجاز أعمال مثيرة للاهتمام، كما في علم الجمال مثلاً، لكن هؤلاء «المهرطقين» كانوا متزمتين ومتعصبين شأن أسوأ المدافعين عن الأرثوذكسية. كما أن غايات كلاين العلاجية مانت مثالية إن لم نقل إنها كانت طوباوية. وكانت الاندفاعة الكلاينية اندفاعة صليبية، وحتى لو كان هذا الاتجاه فرعاً أصيلاً صحيح النسب

(*) القاريّون Continentals: تعبير يطلقه الانجليز على الأوربيين من غير الجزر البريطانية.

ضمن التحليل النفسي، فإنه يبقى متعارضاً مع مقاربة فرويد الأكثر اتزاناً ورصانة.

لقد كانت ميلاني كلاين تكنّ تقديراً أشد بكثير من ذاك الذي يكنّه فرويد لمشاعر دينية في أساسها، كما أن فهمها لما أطلقت عليه اسم «الموقف المعودي depressive position» في تطور الطفل كان مُصَمَّماً بحيث يصوغ مفهومياً كيف يشعر المرء بأنه أفضل حين يكون صالحاً منه حين يكون طالحاً. كما بذلت عناية خاصة تجاه المشاكل التي يواجهها الشخص في تحمّله التجاذب الوجداني، بحيث لا يشعر بأنه شديد القلق مخافة أن تتغلب كراهية المرء على مالديه من حب[18]. وعلى أية حال، فقد كانت ميلاني كلاين ذات كلمة مسموعة إلى حد بعيد لدرجة أن الوضع في الجمعية البريطانية للتحليل النفسي ظل متوتراً وعسيراً حتى وفاتها عام 1960، أما كون التحليل النفسي في انجلترا ليس أكثر رضاً عن ذاته من الناحية الفكرية فهو ناجم إلى حد ما عن طاقتها واستغراقها في الحياة.

المراجع

(1) أرنست جونز، مقالات في التحليل النفسي، ص103

(2) ميلاني كلاين، مساهمات في التحليل النفسي، (لندن: هوغارث؛ 1948،ص276)

(3) المصدر السابق، ص253

(4) بلة مع حنه سيغال، 12 تشرين الثاني 1966، ومقابلة مع إليوت جاكويس، 17 تشرين الثاني 1966

(5) أنطوني ستور، ك.غ.يونغ (نيويورك: فايكنغ؛ 1973،ص55)وانظر أيضاً ص41

(6) إليزابيث زيتزل،»المفاهيم الحالية عن النقلة»، المجلة الدولية للتحليل النفسي، المجلد 37، الأجزاء 4-5 (تموز - تشرين الأول 1956)، ص372-273

(7) قارن «محاضرات تمهيدية»، المجلد 16، ص365، مع «مسألة التحليل غير الاختصاصي»، ص249، انظر أيضاً «ملاحظة المحرر»، الطبعة المعيارية، المجلد 23، ص213

(8) «دراسة سيرية ذاتية»، ص70؛ «الحضارة ومنغّصاتها»، صص130، 138

(9) أرنست كريس، «تطور سيكولوجيا الأنا»،Samiksa ، المجلد 5، العدد 3 (1951)،ص159

(10) مقابلة مع إيفا روزنفيلد، 17 تشرين الثاني 1966

(11) إدوارد غلوفر، «مخطوط سيرة ذاتية»، ص16،انظر أيضاً رسالة من السيدة ريفير إلى أرنست جونز في الفصل الثاني من مخطوطه للجزء الثالث من السيرة التي كتبها عن فرويد (مخطوطات جونز).

(12) جونز، سيغموند فرويد، المجلد الثالث، ص137

(13) رسالة من جوهان فان أوبهويسن إلى أرنست جونز، 13 تشرين الأول 1927 (مخطوطات جونز).

(14) أورده جونز في سيغموند فرويد، المجلد الثالث، ص197

(15) مقابلة مع ويلي هوفر.

(16) إدوارد غلوفر، «موقع التحليل النفسي في بريطانيا العظمى»، في التطور الباكر للعقل (لندن: إيماغو؛ 1956)، ص358؛ انظر أيضاً إدوارد غلوفر، فحص منظومة كلاين في سيكولوجيا الطفل (لندن: The Southern Post Ltd؛ 1945) ؛ د.دبل يو. وينيكوت، «نظرة شخصية إلى مساهمة كلاين»، سيرورات النضج والبيئة الميسرة، صص171-178؛ حنه سيغال مدخل إلى أعمال ميلاني كلاين (لندن: Heinemann؛1964) ؛ج.و.ويسلوم، «فرويد ميلاني وكلاين»، التحليل النفسي والفلسفة، تحرير تشارلز هانلي وموريس لازيروفيتز (نيويورك:مطبعة الجامعات الدولية؛ 1970)، ص327-362؛ هاري غنتريب، الشخصية والتفاعل الانساني (لندن: هرغارث، 1961(الفصول 10-12)

(17) رسالة من أرنست جونز إلى ماكس إيتنجون، 14 أيار 1943 (مخطوطات جونز).

(18) اليزابيث زيتزل، «الوضعية الهمودية»، في اضطرابات وجدانية، تحرير فيليس غرين آكر (نيويورك: مطبعة الجامعات الدولية؛ 1953)، صص109-110

هذا الكتاب

سيرة النساء اللواتي تعرّفن بفرويد ودخلن حياته وحركته التحليلية النفسية هي سيرة الأسرار، والفضائح، وإن لم يكن بالمعنى الأخلاقي للكلمة. وهي أيضاً سيرة المصائر الغريبة من انتحار، وقتل، وإدمان، وهجر للأزواج أو لفكرة الزواج من أصلها...، الأمر الذي يعيد إلى الأذهان تلك الفكرة التي غالباً مايعبّر عنها العامّة من أن الفلسفة وعلم النفس طريق سالكة إلى الجنون. ولكنها في الآن ذاته سيرة نساء أثبتن حضوراً قوياً إزاء عقلٍ عبقري وشخصية ذات سطوة، وفي حركةٍ كانت بمثابة ثورة فكرية عميقة لم يعد العالم بعدها مثلما كان من قبل. ومن ثمّ، فإن هذه السيرة لا تكتفي بإلقاء مزيد من الضوء على حياة فرويد وأعماله، بل تثير أيضاً جملةً من القضايا التحليلية النفسية أبرزها قضية المرأة والأنوثة، والتحليل النفسي للطفل. وهما قضيتان مترابطتان وما تزالان تثيران سجالاً محموماً ونقداً لا يستكين.

وهذا الكتاب يشتمل على كل المتع التي تنطوي عليها سيرة جديرة بالعناء. وهو لا يُشبعُ فضولنا التلصصيّ وحسب، وإنما المعرفي أيضاً، كل ذلك فضلاً عن متعةِ الحكاية.



To: www.al-mostafa.com